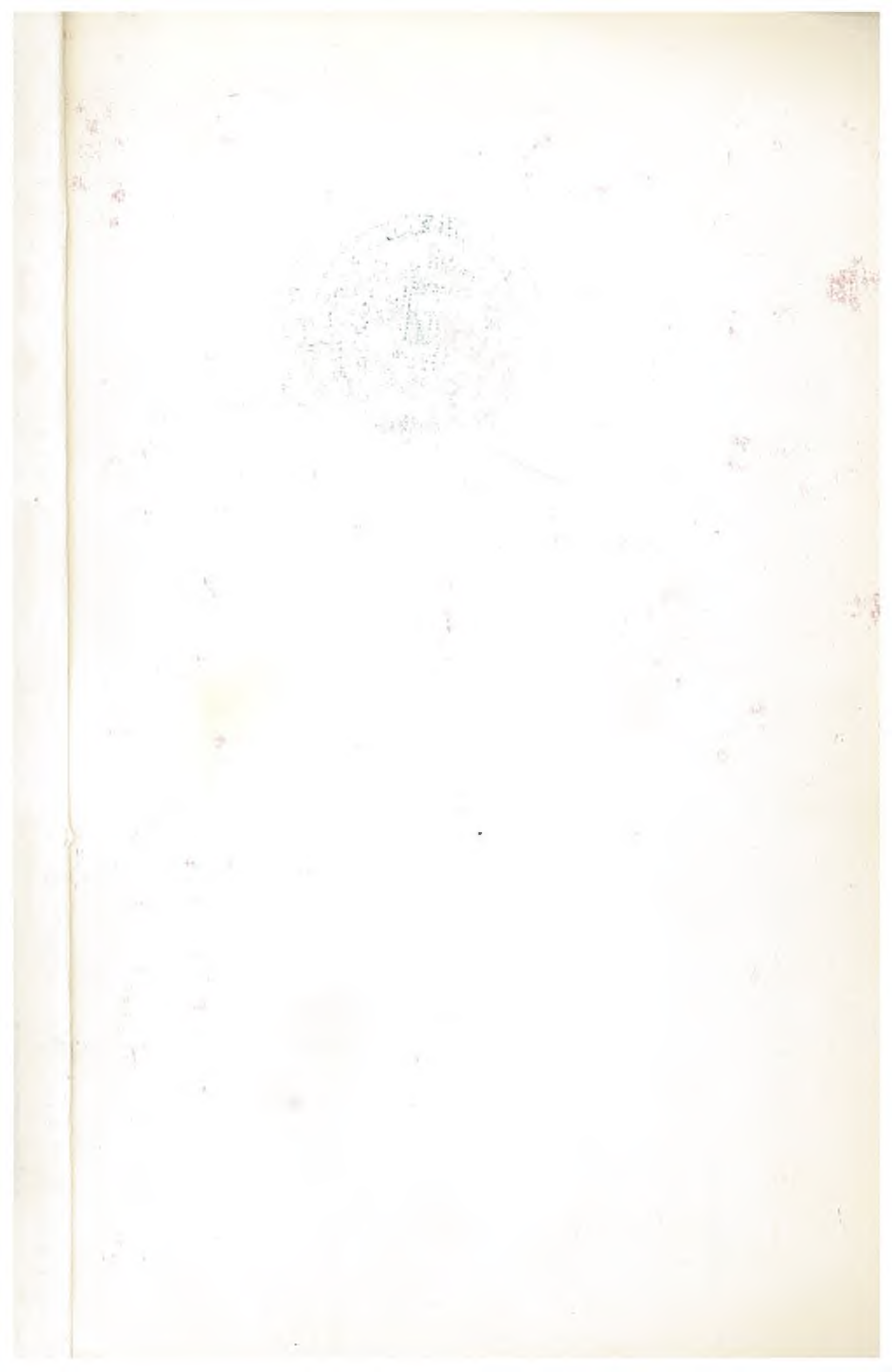
جذور

القضية الفِلسْطينية

الدكتور اميل توما



Roots of the Palestine Problem

by

Dr. EMILE TOUMA



Roots of the Palestine Problem

by

Dr. EMILE TOUMA

اصدار المكتبة الشعبيـــة في الناصرة

طبـــع في مطبعـــة الاتحاد التعاونيـة بحيفـــا

جذور

القضية الفلسطينية

الدكتور إميل توما



المحتويات

الصور من مجموعة الاستاذ عارف العارف

صورة الغلاف : بريشة ليلى علوش

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- هذا الكتاب « صدر » في صورته الاولى على شكل حلقات دراسية في مجلة الجديد على امتداد سنتين تقريبا • وكان القصد من نشر تلك الحلقات جلو صفحات من تاريخ القضية الفلسطينية وتحليل أحداثها على أسس علمية موضوعية ••

وقد لا يستطيع أحد ان يزعم وجود نقص في الكتب والابحاث التى تناولت القضية الفلسطينية •• فهي تكاد لا تحصى ولا تكف دور النشر عن اصدارها •• ولكن المرء يستطيع ان يدرك أن هــذا الفيض بحد ذاته يوحي بتعقيد القضية وحاجتها الى تعميق الوضوح وتكثيفـــه •••

ولهذا أحسست بضرورة كتابة هذه الحلقات •• فكتب القضية الفلسطينية فى العالم الغربى لونتها الصهيونية بحيث أضاعـــت موضوعيتها ، وزيفتها النظرة الامبريالية حتى أفقدتها الصلـــة بالعلميـــة ••

أما الكتب فى العالم العربي فأكثرها أهمل عناصر خطيرة اجتمعت فى القضية الفلسطينية وضخم عناصر أخرى فأضاع التوازن ••

ومـــع هذا ففي هذه الكتب معطيات غزيـرة وفي بعضهـــا فصول مثيـــرة •••

وهي كلها دليل على عنف المشاعر التى أطلقتها وتطلقهـــا هـــذه القضيـــة •••

وعلى هذا الضوء فمن المتطاول على التاريخ أن أدعي ان هـــذا الكتاب سيضع الامور في نصابها ويحدد الخطوط الفاصلة فـــي قضية لا تزال ملتهبة وتؤلف عقده القرن العشرين الكبرى •••

انما من حقي ان أقرر انه محاولة لفهم القضية الفلسطينية على ضوء فرضيات الاشتراكية العلمية فى التاريخ •••

وهي محاولة اولى عريضة أخذت التطور العام والملامح الجوهرية محورا لها ولم تتوقف طويلا عند قضايـــا عـــلى غايــة من الاهمية فى الصـــراع الاجتماعى ••

وهذا يعني أن الميدان لا يزال رحبا •• والحاجة ملحـــة ••

بديهي ان نوايا الكاتب لا تفرض على القارىء التزامات عينيـــة ولا تنتقص من حقه فى الحكم عليه ذرة واحدة •

اميـــل تومـــا

الفصل الاول

نشوء العقدة الفلسطينية

لم تنشأ القضية الفلسطينية في عزلة عن الاحداث العالمية بل كانت جزءا لا يتجزأ منها .. وهي لا تزال حتى اليوم تؤلف عقدة من العقد الدولية المترابطة عضويا بعضها ببعض ..

ولذلك فلا بد عند بحثها عن رؤية ظروف تطورها في المدى التاريخي ليسهل فهم الحاضر ، فعندئذ يمكن اضاءة طريق المستقبل

لقد التقت على التربة الفلسطينية ثلاث قوى تفاعلت فيما بينها ، كل بقدر طاقاتها ، وخلقت بصراعاتها القضية الفلسطينية :

* **الامبريالية البريطانية**
* **الحركة الصهيونية**
* **الحركة القومية العربية**

ونبدأ بالامبريالية البريطانية

قد يكون من الصعب تحديد تاريخ تطلع بريطانيا الى احتلال الشرق الادنى في التاريخ المعاصر ولكن المؤرخ فيليب حتي يعتقد أن انكلترا ، وان لم تكن تجاور الدولة العثمانية اقليميا ، الا انها ابتدأت منذ القرن السادس عشر تبدي اهتماما خاصا بها بسبب تجارتها البرية مع الهند والشرقين الادنى والاقصى . ويضيف : ببدء تلاشي الامبراطورية العثمانية تخطت مصالح بريطانيا التجارة الى

الامبريالية فهي لم تكن تريد أن ترى الدولة العثمانيـة مقطعـة الاوصال ، كما انها لم تكن ترغب في رؤية روسيا متمركزة عـلى البسفور (كتابه بالانكليزية « تاريخ سوريا » ص ٦٩٨) .

والحقيقة انه منذ بداية القرن التاسع عشر أخـذت الشركات البريطانية من الهند تقوم بخدمة ملاحة منتظمة الى البصرة والسويس (١٨٠٩) . وفى البحر المتوسط بدأت شركة بواخـر بريطانيـة أيضا بخدمة منتظمة الى مصر وسوريا .. (برنارد لويس في كتابه « العرب في التاريخ » ص ١٦٩ ..)

ولا جدال في أن احتلال نابليون بونابرت ، بجيشه الفرنسي ، مصر عام ١٧٩٨ ومحاولته احتلال سوريا الطبيعية (ونقصـد بها فلسطين وشرق الاردن ولبنان وسوريا) كانتا حملة عسكريـة سياسية هدفت الى أمرين : تهديـد الامبراطورية البريطانيـة الكولونيالية في الهند .. وتوسيـع الامبراطوريـة الفرنسيـة الكولونيالية .

ولذلك تمثل الحملة النابليونية نقطة تحول في سياسـة الكولونيالية البريطانية .. فقد بدأت بعدها سلسلة « اتفاقاتها » مع امراء ومشايخ ولايات سواحل شبه الجزيرة العربية ابتـداء من عدن حتى الكويت ، واحتلت المواقع الاستراتيجية والاقتصاديـة الحاسمة التي يمكن أن تقطع الطرق على أية قوة تهدد الهنـد درة التاج الامبراطوري البريطاني ، كذلك عاونت القوات البريطانيـة القوات العثمانية على اجلاء القوات الفرنسية عن مصـر عام ١٨٠١ ولكنها لم تحاول البقاء فيهـا آنذاك ..

أما محاولتها احتلال قطر ما في منطقة الشرق الادنى فقد جرت عام ١٨٠٧ حين هبطت قوة بريطانية بقيادة الجنرال فريزر الـى

مصر بقصد احتلالها ٠٠ الا انها اخفقت وهزمتها القوات المصرية في الرشيد فاضطرت الى الانسحاب الى الاسطول البريطاني الذى أبحر بها عائدا الى قواعده ٠٠

وهناك من المؤرخين من يعتقد أن هذه الحملة لا تؤلف محاولة بريطانية مصممة على احتلال مصر ، بل كانت من قبيل الاستكشاف وتوطيد المواقع البريطانية الاقتصادية حيال التطورات الداخلية في مصر التي تبلورت انذاك فى تقليص نفوذ المماليك حلفاء بريطانيا، وصعود محمد علي الى الحكم الذى كان يبدي ميلا للفرنسيين ٠٠٠ ولكن هذا التقدير لا يصمد للوقائع فبريطانيا حاولت قصدا احتلال مصر في عام ١٨٠٧ الا انها ما كانت تستطيع أن تلقي بقوات أكبر من القوات التي ألقتها في المعركة ٠٠ ففى ذلك الوقت كان نابليون يسيطر على أوروبا ويهددها تهديدا خطيرا ويفرض عليها ، لمواجهته، حشد قواها لا توزيعها على مختلف الجبهات

وعادت أطماع الكولونيالية البريطانية بادية للعيان في فترة محاولة حاكم مصر محمد علي وولده ابراهيم اقامة الدولة العربية الكبيرة الاولى في الفترة المعاصرة بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ ٠

آنذاك وقفت بريطانيا بوضوح وعنف تقاوم هذه الدولة الفتية، التي امتدت من مصر عبر سوريا الطبيعية حتى حدود آسيا الصغرى ، وتعاونت مع الامبراطورية العثمانية والدول الكولونيالية الاوروبية الاخرى لاجلاء القوات العربية المصرية عن سوريا واعادتها الى مصر وحصر الدولة الحديثة التي كانت تنمو في حدود مصر ٠

وقامت عام ١٨٤٠ القوات البريطانية البرية ، التي أنزلت على ساحل سوريا ، والبحرية التي كانت تقصف القوات المصرية من

البحر بدور فعال في تقهقر قوات ابراهيم المصري وانسحابها من سوريا ..

ولاحظ المؤرخ جورج أنطونيوس أن مقاومة بريطانيا مشروع الدولة العربية الناشئة كان أحد العوامل الجوهرية في اخفاقها .. كتب : « قد يكون الاصطدام بين محمد علي وانكلترا أمرا لا بد من وقوعه لان نمو سلطانه في مصر ثم امتداده الى الجزيرة العربية والبحر الاحمر أكسبه سيطرة قوية فى تلك المناطق الواقعة على طريق من أخطر الطرق التجارية في العالم ، وله فى الوقت نفسه قيمة خاصة للتجارة الانكليزية (يقظة العرب تعريب علي حيدر الركابي ص)

وتدعم الوقائع هذا التقدير ، فوزير خارجية بريطانيا (ورئيس وزرائها فيما بعد) بالمرستون في رسالة الى سفير بلاده في نابولي بتاريخ ٢١ اذار ١٨٣٣ كتب :

« ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم العربية وقد لا يحوي هذا المشروع ضررا ما في حد ذاته ولكنه سيؤدي الى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه ، وفضلا عن ذلك فلا نرى سببا يبرر احلال ملك عربي محل تركيا في السيطرة على طريق الهند » . (المصدر ذاته ص ٢١-٢٢)

وفي رسالة الى السير ويليام كامبل سفير بلاده في كابل عام ١٨٣٣ كتب بالمرستون في نفس الروح الا انه كان أحد وأشد بتأكيده على عدم تسليم بريطانيا بوجود دولة غير تركيا على طريق الهند فهي « خير من ملك عربي يقوم على هذه البلاد ويكون

نزاعـــا للعمـــل كثير الحركـــة » (الدولة العربيـــة المتحـــدة أمين سعيد ص ٩٥ جزء أول)

الكولونياليـة البريطانيـة
تصبح صهيونية قبل
نشوء الحركة الصهيونية

لقد أثبتنا تطور المطامع البريطانية في الشرق الادنى تمهيـدا لنبحث في بداية اللقاء بين الكولونيالية البريطانية والصهيونيـة من قبل أن تولد الحركة الصهيونية بحوالي نصف قرن ..

وكان التهديـد الذى مثله محمد علي وولـده ابراهيـم بمحاولتهمـا اقامـة الدولة العربيـة الكبيـرة نقطة البدايـة في هـذا اللقـاء ...

كتب ناحوم سوكولـوف ، أحـد كبار مؤسسي الحركـة الصيهونية ، يبرز الصلة بين محاولـة اقامـة الدولة العربيـة الكبيرة وتبني الكولونيالية البريطانية الفكـرة الصهيونية مـن قبل أن تنشأ منظمة صهيونيه أو يضـع أسسهـا أيديولوجـي يهودي فأكـد :

« ونشأت (بعد تدخـل الدول الاوروبية لانقاذ الامبراطورية العثمانية واعادة قوات ابراهيم الى مصـر ، مسألـة مستقبـل فلسطين . هل كانت ستبقى بيد تركيا ام هـل كانت بريطانيـا العظمى ستفوز بالاماكن الهامـة . وكان السائـد في الـرأي العام البريطاني ضم عكا وقبرص الى الامبراطورية البريطانيـة . فبريطانيا وقد احتلت موقع عكا الحصين الذى لا يقهـر كانـت لا تضطر الى السعي لضمان حرية الطريق الى الهنـد مـن أي دولة أخـرى » .. ثم أورد أمثلـة عديدة على ساسة بريطانيين

نادوا باستيطان اليهود في فسطين . (كتابه تاريخ الصهيونية المجلد الاول ١٠٤) .

ومن هذه الامثلة انه فى ٢٥ ايلول ١٨٤٠ كتب الايرل سافنسري بالمرستون وزير الخارجية البريطاني بشأن المسألة السورية (التي كانت لا تزال موضع بحث في الميدان الدولي وتدور حولها المفاوضة مع محمد علي ·أ·ت) يقترح اقامة مستعمرة بريطانية (دومنيون) وأضاف أن المنطقة تحتاج الى المال والعمل .. وأن العبرانيين يترقبون العودة إلى سوريا ولذلك فاذا ضمنت الدول قوانين تحقق المساواة في سوريا وتبدد شكوك العبرانيين فعندئذ يستنفرهم النداء فيخرجون بثرواتهم وصناعتهم ... وأكد فى النهاية أن استعمار العبرانيين سوريا هو أرخص وأضمن أسلوب لتزويد هذه المناطق القليلة السكان بحاجاتها .. (المصدر ذاته المجلد الثاني ص ٢٢٩) .

وعاد شافتسري ليؤكد هذا الامر بعد ربع قرن .

ففي مقال كتبه عام ١٨٧٦ تحدث عن اليهود بوصفهم تجارا بارزين وقال ان سوريا تحتاج الى رأس مال وسكان واستنتج أن اليهود يستطيعون تزويدها بالامرين .. وسأل شافتسري : أو ليس لبريطانيا مصلحة في ذلك .. وأجاب :

« انها لضربة لانكلترا اذا ما استولى أي من منافسيها على سوريا . فامبراطوريتها التى تمتد من كندا في الغرب الى كلكتا (الهند) واستراليا في الجنوب الشرقي تقطع نصفين .. يجب أن تصون انكلترا سوريا لنفسها .. ألا تستدعي السياسة اذن أن تنمي انكلترا ، وهي دولة تجارية بحرية عظمى ، قومية اليهود وأن يرجع اليها فضل استيطان اليهود في

فلسطين » (سجل ذلك ناحوم سوكولوف في كتابه تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ٢٠٦) ٠

وبين هذين التاريخين ١٨٤٠ و ١٨٧٦ عالج عدد من الكتاب والساسة البريطانيين غير اليهود ما كان يطلق عليها آنذاك المسألة التركية أو المسألة الشرقية وأكدوا أمرين ، بالتساوى تقريبا : ضرورة سيطرة بريطانيا على الشرق الادنى وبالتحديد سوريا (وتشمل فلسطين) واستخدام اليهود أو العبرانيين في استيطان فلسطين أو سوريا لتثبيت السيطرة البريطانية على المنطقة وحماية طريق الهند ٠

وكان أحد هؤلاء الكولونيل شارلس هنري تشرشل (١٨١٤ ـ ١٨٧٧) أحد ضباط الحملة البريطانية التي حاربت القوات المصرية العربية في سوريا عام ١٨٤٠

كتب في مقدمة كتابه « جبل لبنان » (بالانكليزية صدر عام ١٨٥٣) : ان كنا نريد الاسراع في تقدم المدنية وأردنا توطيد سيادة انكلترا في الشرق فمن الواجب أن تقع سوريا ومصر تحت سيطرتها ونفوذها بهذا الشكل أو بذاك

ودعا الى مثل هذا المستشرق البريطاني السراوستن هنري لايارد (١٨١٧ ـ ١٨٩٤) عضو البرلمان في سنوات الخمسين من القرن التاسع عشر ٠٠ قال في احدى خطبه التي عالج فيها المسألة التركية : « علينا أن لا ننسى انه اذا كانت مصر طريقا من الطرق الى الهند فسوريا ووادي الدجلة والفرات هي الطريق والدولة التى تسيطر على هذين القطرين تتحكم في الهند » ٠ (مجموعة خطاباته في المسألة التركية ص ١٠ صدر بالانكليزية عام ١٨٥٧) ٠

وقال الكولونيل جورج جولر (١٧٩٦ ـ ١٨٦٩) حاكم جنوب استراليا في خطاب ألقاه في ٢٥ كانون الثاني ١٨٥٣ : لقد وضع القدر سوريا ومصر بين انكلترا وأعظم مناطق امبراطوريتها الكولونيالية ومراكز تجارتها في الهند والصين والارخبيل الهندي واستراليا ـ وأضاف أن استيلاء أي دولة على مصر وسوريا يهدد تجارة بريطانيا ، ولذلك يدعو القدر انكلترا الى أن تحسن سوريا وتطورها وذلك بنشاط أبناء اسرائيل ومساعيهم

وتؤكد هذه التصريحات فعالية المحرك الكولونيالي في دفع كتاب انكلترا وساستها الى الدعوة الى بسط النفوذ البريطاني على سوريا (فلسطين) واستخدام أبناء اسرائيل أو العبرانيين في استيطانها على نسق المستوطنين الاوروبيين في أمريكا لتحقيق ذلك ·· فهذا فقط يفسر صدور الكتب العديدة نسبيا التى تدعو الى هذا الامر ·· (١)

وقد طابق اشتداد الاهتمام الكولونيالي في الشرق الادنى أزمات سياسية دولية معينة ·· الاولى أثناء محاولة محمد علي وولده ابراهيم اقامة الدولة العربية الكبيرة في مصر وسوريا ·· والثانية أثناء التوتر الذى رافق مسألة حفر

---

(١) من هذه الكتب : كتاب توماس كلارك « فلسطين لليهود » وفيه أبرز الكاتب أن استيلاء اليهود على فلسطين بحماية بريطانيا ضرورة قصوى (٢) كتاب هولنغورت تاريخ اليهود في فلسطين الصادر عام ١٨٥٢ ويدعو الى اقامة دولة يهودية في فلسطين لحماية طريق الهند ·

ولاحظ هذا الامر هوراس ماير كالن في كتابه « الصهيونية والسياسة الدولية » فكتب : انتشرت فكرة بعث اسرائيل باعتبارها ممكنة التحقيق على صعيد السياسة العملية والمستوى الديني (٢) في بريطانيا وفرنسا بين غير اليهود بشكل أوسع وأشد من انتشارها بين اليهود ، فبالنسبة لهولنغورث حين كتب عام ١٨٥٢ في انكلترا (ملاحظات حول وضع اليهود في فلسطين) لم تكن اقامة الدولة اليهودية فى فلسطين عملا انسانيا وعادلا بل ضرورة سياسية في الذهن البريطاني لحماية الطريق عبر آسيا الصغرى الى الهند ـ أما المحرك المباشر فكان الحديث الملح حول قناة السويس ٠ فهذا المشروع الكبير حرك الفرنسيين للتفكير بالفكرة نفسها (بعث اسرائيل) كما يظهر ذلك من كتاب دينبي « المشكلة الشرقية الجديدة » وكتاب أ٠لاهرامي : « المسألة الشرقية » ٠٠ ص (٤٨ ـ ٤٩)

وهكذا ينبه هذا الكاتب الى أن سياسة الكولونيالية البريطانية الصهيونية ٠٠ أي تبني انكلترا فكرة « بعث اسرائيل » قابلتها في مرحلة قصيرة سياسة كولونيالية فرنسية صهيونية ٠٠ وبذلك جرى التنافس الكولونيالي حول فلسطين

---

(٢) لقد انتشرت فكرة دينية ـ الى جانب الفكرة السياسيه المذكورة ـ تقول ان عودة اليهود الى فلسطين أو بعث اسرائيل بقرب خلاص الانسانية وعودة المخلص ولذلك على المسيحيين الدعوة الى ذلك

فى ميدان واحد هو ميدان « البعث الاسرائيلى » ! الا أن هـــذه الفترة كانت قصيرة جدا ٠٠ والكولونيالية الفرنسية لم تهتم الاهتمام الضخم بالمشروع الكولونيالي الاسرائيلي الذى أبدته بريطانيا منذ عام ١٨٤٠ وما بعد

وتعود الى هذه الفترة محاولة تخفيف حدة التنافس الانجلو-فرنسي باقتراح هنري دونانت ، فى رسالة مفتوحة ، تأليف جمعية شرقية دولية يؤيدها الرأي العام الدولـي لبعث الشرق زراعيا وصناعيا وتجاريا ، وخاصة فلسطين ، بالتعاون مع الاسرائيليين وبتأييد أصحاب القول الفصل في فرنسا وبريطانيا وغيرها ٠ (تاريخ الصهيونية المجلد ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٦١)

هـذا ويلاحظ المؤرخ أن الحماس البريطاني لفكرة الاستيطان اليهودي خف في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ثم عاد وتجدد في القرن العشرين ٠

ولهذا أسباب ٠٠

لقد لاحظ لينين في دراسته العبقرية « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » انه فى أوج ازدهار المزاحمة الحرة عالميا فى مرحلة ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ كان السياسيون البرجوازيون في بريطانيا ضد السياسة الكولونيالية وكانوا يعتبرون تحرر المستعمرات وانفصالها التام عن انجلترا أمرا محتوما ٠ (حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ص ١٦٨) ٠

ولذلك لم تكن بريطانيا ، التي احتلت مناطق عديدة فى العالم تفكر في المرحلة هذه ، باحتلال مناطق جديدة بل بمواصلة سياسة الاستيطان الكولونيالي الذي بدا في القرن السابع عشر ، وترى فيه سبيلا لحماية مصالحها التجارية وهذا ما

ظهر من كل تصريحات وكتابات الساسة البريطانيين ..

وهذا ما أكده سوكولوف فكتب : ان فكرة استعمار سوريا نشأت في حين كان استعمار أمريكا واستراليا يجري على قدم وساق .. وأضاف فالسيطرة على القطر السوري كانت تزيد في موارد بريطانيا التجارية وقواها الدفاعية (تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ١٠٥ ـ ١٠٦)

ثم هناك سبب اخر أبعد بريطانيا عن فكرة احتلال سوريا آنذاك .. ونقصد به التوازن الدولي في العالم . فقد كان يستبعد اجراء تغييرات في أوضاع الامبراطورية العثمانية تمنح أي من الدول الكولونيالية امتيازا على الاخرى .

وأهمية صيانة هذا التوازن ظهرت في المناسبتين اللتين نشبت فيهما الحرب بين روسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية .. ففي المناسبة الاولى ـ وعرفت بحرب « القرم » ـ (٣) هزمت في بدايتها روسيا القيصرية الامبراطورية العثمانية فاقتحمت بريطانيا ومعها فرنسا وسردينيا وبروسيا ميدان المعركة وقلبت نصر روسيا القيصرية هزيمة وعقد مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ وقرر « تمامية السلطنة العثمانية » وتكامل أراضيها .

أما في المناسبة الثانية فهزم روسيا القيصرية الامبراطورية العثمانية عام ١٨٧٦ لم يؤد الى تدخل عسكري واستطاعت روسيا القيصرية أن تفرض على الامبراطورية العثمانية معاهدة سان ستيفانو .. الا أن بريطانيا نجحت في أن تجند دول أوروبا الكبرى وأن تفرض على روسيا القيصرية الاشتراك في مؤتمر برلين والقبول

---

(٣) ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦

بنتائجه وأهمها اعادة الولايات التي احتلتها روسيا القيصريه الى الامبراطورية العثمانية .

وقد دخل عامل التجارة في الموقف البريطاني من يهود الشرق الادنى .

في كتابة « تقرير حول سوريا » وصف جون بردنغ اليهود فى دمشق فكتب أن التجار اليهود الاجانب في دمشق هم الفئة الاغنى بين التجار وذكر عائلتين تملك كل منهما مليون ونصف مليون جنيه (وهذه ثروة ضخمة فى ذلك الحين) وأضاف أن أكثر البيوتات التجارية تتاجر مع بريطانيا . (سوكولوف تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ٧٦) .

وهذا قد يكون عاملا من العوامل التي جعلت بريطانيا تمد حمايتها على يهود الامبراطورية العثمانية في سنوات الاربعين من القرن التاسع عشر .. أي فى هذه الفترة من شيوع الصهيونية الكولونيالية البريطانية غير اليهودية ..

ولاحظ سوكولوف أن عوامل سياسية أيضا دفعت بريطانيانحو مد حمايتها لتشمل اليهود في الامبراطورية العثمانية . (تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ١١٨)

وفسر ضرورات السياسة البريطانية هذه الدكتور ادوارد روبنسون (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣) في كتابه تنقيبات توراتية في فلسطين » حين كتب :

« كانت فرنسا منذ وقت طويل حامي الدين الكاثوليكي (التابع لروما) المعترف بها .. ووجد أبناء الكنيسة الاورثوذكسية (الرومية) أنصار أشداء فى الروس .. ولكن لا يوجد متحيزون للانكليز في أي مكان من الامبراطورية العثمانية » .

وبما أن الدول الكولونيالية ، في مساعيها للتسرب الى الامبراطورية العثمانية واقتسام تركتها في الشرق الادنى كانت تستفيد من التظاهر بالدفاع عن هذه الطائفة أو تلك فقد وجدت بريطانيا انها في حاجة الى طائفة لتواجه روسيا القيصرية وفرنسا ، فأرادت أن تتوكأ على اليهود .. وقد لجأت فيما بعد حين اشتد الصراع بين الدول الامبريالية الى زعماء الدروز تماما كما وجدت فرنسا بغيتها في زعماء الموارنة وروسيا القيصرية في زعماء الروم الاورثوذكس .. (٤)

وهنا نستطيع أن نجيب على السؤال لماذا خفت الدعوة الى بعث اسرائيل في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ..

أوضح لينين كماذكرنا أنفترة المزاحمة التجارية بين١٨٤٠و١٨٦٠ خلقت الاعتقاد بأن تحرر المستعمرات (المستوطنات على وجه التحديد) أمر محتوم .. على اعتبار أن وجودها يعرقل نمو التجارة واتساعها ، ولكنه أضاف في كتابه « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ان الوضع تغير بنمو الاحتكارات وتراجعها عن مبدأ المزاحمة الحرة في التجارة الدولية ..

لقد بدأت الكولونيالية تتحول الى امبريالية ، ومن ملامح الامبريالية اتمام تقسيم العالم بين الدول الامبريالية ..

ولهذا اشتد الصراع بينها على المستعمرات ..

وكتب لينين فى هذا الصدد : « ان مرحلة اشتداد الاستيلاء

---

(٤) تمتعت الدول الاوروبية بنظام الامتيازات في الامبراطورية العثمانية وهذه كانت تمنح من يمتع بالحماية الاجنبية حقوقا خاصة منها عدم المثول أمام المحاكم المحلية .

على المستعمرات ، اشتدادا كبيرا ، هي بالنسبة لانجلترا سنوات ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ ، واشتدادا ملحوظا جدا في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر . ومرحلة الاشتداد الكبير بالنسبة لفرنسا وألمانيا هي العقدان الاخيران بالضبط » (حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ص ١٨٣)

وهكذا ففي الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، خصوصا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، اشتد الصراع الامبريالي على الامبراطورية العثمانية ..

وكان الصراع على أشده بين بريطانيا وفرنسا في الشرق الادنى ..

ولم يكن الصراع على مجرد النفوذ أو المواقع الاقتصادية ، بل على الاقطار نفسها ، فالاستيلاء على القطر المعين كان يمنح احتكارات الدولة السائدة المواقع الاقتصادية ويمكنها من السيطرة على سوقها ومقدراتها .

وفعلا ركزت بريطانيا جهودها لاحتلال مصر ونجحت في ذلك عام ١٨٨٢ في حين نجحت فرنسا في احتلال تونس قبل سنة من هذا التاريخ ..

يقسم « دافيد هيل » في كتابه « تاريخ الدبلوماسيه في التطور الدولي في أوروبا » تاريخ السياسة الدولية التي مارستها بريطانيا العظمى من سنة ١٨٧٠ وما بعد الى أربع مراحل :

١ ـ الاسيوية الاولى وفيها قاومت بريطانيا تقدم روسيا في آسيا الوسطى في اتجاه الهند

٢ ـ الافريقية (سنوات ١٨٨٥ ـ ١٩٠٢ على وجه التقريب)

وفيها اشتـــد الصراع بين بريطانيا وفرنسا من اجـــل اقتسام افريقيا ووقعت حادثة فاشودا (٥) فاصبحت الحــــرب بـــين القطريـــن قاب قوســـين أو آدنـــى

٣ ــ الاسيوية الثانية وخلالها عقدت بريطانيا معاهـــدة مع اليابان للتصدي لروسيا القيصرية

٤ ــ الاوروبية وفيها وقفت بريطانيا أمام ألمانيا التي كانت تريد اعادة تقسيم المستعمرات لتفوز «بحقها» منها ٠

والمهم هنا أن بريطانيا احتاجت فكرة بعث اسرائيل في فترة المزاحمة الحرة ولم تكن فى حاجة لها فى وقت الصراع الشديـــــد مع فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر فقد كان ميدان الصراع مصر وافريقيا وفيهما لم يكن من الممكـــن الاستفادة من صهيونيـــة بريطانيا الكولونياليـــة ٠٠

الا انها احتاجت من جديد الى الصهيونية في بداية القــــرن العشريـــن ٠

ولكـــن انذاك كانت الصهيونية قد أصبحـــت يهودية ٠٠ وكانت منظمتها قد بدأت تحتل مكانها في بعض المحافل الاوروبية٠٠

---

(٥) قرية على حدود السودان التقت فيها قوتان بريطانيـــة وفرنسية كانتا تحددان حدود امبراطورية كـل منهما ٠٠ انـــذاك رفضت بريطانيا السماح لقوة فرنسا بالتقدم واضطرت فرنســـا للتراجع ٠

الفصل الثانى

ملاحظة على مرحلة ما قبل الصهيونية

يختلف الكتاب الصهيونيون في تقدير ماهية الصهيونيـــة ويتفاوتون في نهجهم عند تعقبهم آثار نشوئها ، دون أن يؤثـــر ذلك على استنتاجاتهم الجوهرية المعاصرة ٠

وفى هذا الصدد يقرأ المرء ، على سبيل المثال ، هذا التقديـــر لاحد كبار زعماء الصهيونيين القدامى ناحوم سوكولوف :

« انها حقيقة بسيطة ٠٠ يبدأ تاريخ اسرائيل بالصهيونيـــة ، ويبين هذا التاريخ في الازمنة السحيقة طريق تحقيق الصهيونية ٠٠ فالخروج من مصر كان مثلا للجمع بين الهجرة والكولونياليـــة (استعمار الارض أ٠ت) ٠٠ والعودة من بابل كانـــت حدثـــا صهيونيا عظيما » (كتابـــه تاريخ الصهيونيـــة الجـــزء الاول ص ١٥ من المقدمـــة) ٠

ولكن مقابل هذا اللون من الغيبية القوميـــة ، التي تتجاوز مراحل التاريخ وتخلط بين المقولات الاجتماعية يستطيـــع المـــرء أن يجد نسقا أقرب الى العقلانية ٠٠ في ما كتبه بن هلبرن :

« أدى الانعتاق (مساواة اليهود بالمواطنين عامـــة بعـــد الثورات البرجوازية في القرن الثامن عشر ــ أ٠ت) الى خلافـــات ايديولوجية بشأن مبادىء الكيان اليهودي ومؤسساته ، وبـــين



دخول القوات البريطانية مدينة القدس في ٩-١٢-١٩١٧

٣ من اساطين
الاستعمار البريطاني

هربرت صموئيل
اول مندوب سامي

اللورد بلفور
صاحب الوعد المشهور

الجنرال اللنبي
« فاتح » فلسطين



الايديولوجيات التي نشأت آنذاك . (القرن التاسع عشر جوهريا – أ.ت)

وفي هذه الفترة كانت الصهيونية تطورا مختلفا عن الرتب نسبيا . لقد ظهرت في صورة نقد لحل المسألة اليهودية على أساس التحرر المدني وحده وكانت محاولة لمواصلة الفرضيات التقليدية حول طبيعة التاريخ اليهودي وهدفه ، الامر الذي نبذه تلامذة التنوير اليهود » (كتابه فكرة الدولة اليهودية ص ٤) .

وكان التفاوت في التوجه عاما لم يفلت منه الصهيونيون « الاشتراكيون » ! ففي حين ، اعتبر بوروخوف الصهيونية : الرد على احتياجات الشعب اليهودى الاقتصادية والثقافية ولذلك فهي بعث قومي واجتماعي معاصر (اليهود وفلسطين بقلم س . ليفنبرغ ص ٩ – ١٠) .. اقتفى س. ليفنبرغ نفسه اثار « الشوق الى صهيون » والعودة الى فلسطين من أيام الانبياء العظام ليبني منه ايديولوجيته « الاشتراكية » الصهيونية . (كتابه اليهود وفلسطين ص ٣٥ – ٣٨) .

صحيح أن الانبياء تحدثوا عن جمع بقايا اليهود من الشتات من أربعة أطراف الارض (أشيعا ٢ (٢ – ٤)) وعن غربلة بيت اسرائيل من بين جميع الامم .. وانهاء سبى شعب اسرائيل وغرسهم فى أرضهم فلا يقلعوا منها أبدا « عاموس ٩ (٩ و ١٤ – ١٥) » ، الا أن ذلك ارتبط عبر الاجيال بقدوم المسيح وحلول الاخرة .. آنذاك كما تنبأ ميخا يعيد الرب شعبه الى أرضهم ويملك عليهم في جبل صهيون « ٤ (٦–٧) » .

وكتب أ.شارف ، عند تقويمه حركات المسيحية في القرن السابع والثامن ميلادي : ان دعاة المسيحية بين اليهود ، على الرغم

من تباين انطلاقاتهم الدينية اعتقدوا أن الصراع بين بيزنطيـــة والخلافة الاسلامية هو الصراع الاخير وسيسبق « اليوم الاخر » ٠ (من كتاب تاريخ الشعب اليهودى العالمي محرره س٠روث ص ٥٦) ٠

وبمرور الاجيال واخفاق حسابات المتدينين لتحديدموعـــد « اليوم الاخر » ساد الاقتناع الطوائف اليهودية أن معجزة قـــدوم المسيح المرتقب ستحل في موعدها بارادة الرب ولذلك فمن التطاول والتجديف السعي للاسراع بها ٠٠ ولم يتخل المتدينون عن هـــذا الرأي وقاوموا الصهيونية حتى وقت متأخر جدا ٠ (وعد بلفور ، أصوله وخلفيته ، بقلم السيدة ادجار دوغديل ، ص ٨) ٠

ولاحظ بن هلبرن ، اعتمادا على تراث القرن التاسع عشـر أن الوعد بقدوم المسيح افترض أن لا يقوم اليهود بأي عمـــل لاعادة سيادتهم (القومية) فعليهم أن يواصلوا رسالتهم بين الامم على اعتبار أن الخـــلاص سيأتي من جراء تدخـــل الهي ٠ (فكـــرة الدولـــة اليهوديـــة ص ٨٨)

ان فكرة المسيحية ــ ٠٠ أو قدوم « المخلص » ــ تعود الـــى أزمنة غابرة وعرفتها الشعوب والطوائف الدينية المختلفـــة ، ولا تزال تتمسك بها طوائف اسلامية ونصرانية ، على الرغم مـــن أن النصرانية قامت على الايمان بقدوم المسيح الذى كان يترقبه اليهود ٠٠ والاسلام قام على أساس أن النبي محمد خاتم الرسل والانبياء ٠

وقد عرفت النصرانية فى بداية عهدها تيارا شبيها بالتيـــار اليهودى ، الذى انشغل رجاله باجراء الحسابات لتحديـــد موعـد قدوم المسيح ، واقترنت فكرة ترقـــب ، في التيار النصرانـــي ، عودة المسيح ، بقيام دولة الله على الارض فى القدس ٠٠

كذلك عرف الاسلام ، بالاضافة الى الترقب العام بقـــدوم

المهدي ، حركات مهدوية ، اما طائفية دينية مثل حركة الائمة الاثني عشر ، واما سياسية ـ اجتماعية كانت ثورة المهدي في السودان أبرزها في التاريخ المعاصر .

ولا نعدو الحقيقة اذا لاحظنا أن الشوق الى المسيح أو المهدي هو من شوق الانسانية الى « الفردوس المفقود » أو « عصر الانسانية الذهبي » الذي تتفق الاساطير على أن الانسانية ولدت فيه وعاشت في ظلاله ردحا من الزمن قبل أن تبدأ مصاعبها ..

كتب بون هنيس هولمس : « تشكل المسيحية في اصلها وجوهرها العميق رؤيا الهروب . ففي الايام التي سبقت الشتات، كانت هروبا من حكم روما الحديدي ، وفي الايام التي أعقبت الشتات كانت هروبا من التحقير والاضطهاد اللذين حلا بطوائف اليهود الموزعين في أقطار عديدة » (كتابه ، فلسطين اليوم وغدا ، ص ٧٧) .

ويكشف التدقيق التاريخي أن ترقب المسيح بين الطوائف اليهودية ، الذى كان يقترن طبيعيا بالعودة الى صهيون ، كان يشيع في أقطار عينية وفي تواريخ محددة (في سوريا في القرنين السابع والثامن ، وفي اسبانيا في القرن الحادي عشر ..) حين كانت الطائفة اليهودية في ذلك القطر أو ذاك وفي التاريخ المعين ، تعيش في ظروف صعبة ، تتوق الى الخلاص فتتشبث بالمسيحية وفكرة العودة الى صهيون .

ولكن هذه الفكرة كانت دينية ، ولذلك لم تتجسم تنظيميا الا في حالات قليلة جدا وفي أقاليم عينية .. وهكذا تجسمت فى سوريا تنظيميا في القرنين السابع والثامن ، وكانت اشتياقا دينيا شائعا في اسبانيا في القرن الحادى عشر .. وهذا الشكل

التنظيمي ، لم يتجاوز بضع حالات ، اندثــرت عبر القــرون ، وانتهت فى القرن السابع عشر ..

وهكذا فالفرق كبير بين الشــوق الى صهيون أو فكـــرة المسيحية التى كانت ولا تزال تؤلف عقيدة من عقائد الايمان الديني فى اليهودية ـ مثلما تؤلف فكرة عودة المسيح أو قدوم المهدي عقيدة من عقائد الايمان فى النصرانية والاسلام ـ وبين الصهيونية بوصفها أيديولوجية سياسية معاصرة نشأت في قرن محدد ونشطت فـــي ظروف تاريخية ملموسة ومارست حياتها في أوضاع عالمية عينية .

ولا يغير في ذلك أن الصهيونية اقتبست هـــذا الشـــوق وأقامت بناءها الايديولوجي عـــلى الدين اليهودي وجعلته جوهـــر القوميــــة التي أرادت خلقها ..

* * *

ولا بد عند هذا الحد من معالجة اسطورة أخرى نسجتهـــا الصهيونية الى جانب أسطورة الشوق « الخالد » الى صهيون الـــذى لم يكن سوى شوق غيبي للهروب و « للخـــلاص » !! ونقصــــد بذلك أسطورة الشتات الذى زعمت الصهيونية أن القوى الظالمـــة فرضته على اليهود وحالت عبر التاريـــخ دون عودتهـــم الى أرض « الميعـــاد » ..

ان التاريخ ينســـف هذه الاسطورة تماما .. ويــــلاحظ أن اليهود رحلوا عن « أرض الميعاد » طلبا للرزق قبـــل أن يطاردهم أحد .. واذا تركنا جانبا قصة « هبوطهم » الى مصر أيام يعقوب (١) (الذى تكنى باسرائيل) هربا من الجوع في أرض كنعان ، نجـــد أنهم عادوا الى الهجرة بعد قيام ملك اسرائيل وقبل سبي بابـــل في القرن السادس قبل الميلاد ..

ويكتب ناتان أوسيبل في كتابه «كتاب المعرفة اليهودية» :

ووجد الاسرى الذين نقلهم نبوخذ نصر الى بابل في ٥٨٦ قبل الميلاد ٠٠ « في أرض سبيهم طوائف يهودية كبيرة وعميقة الجذور نشأت في القرن الثامن (قبل الميلاد) ٠ ويمكن أن نفترض أن القادمين الجدد زادوا عدد هذه الطوائف ٠ وحين عاد المنفيون من بابل الى القدس بعد قرن من الزمن كان مدهشا أن نرى ، حسب أقوال عزرا ونحميا ، لا أكثر من ٦٠ ألف يعودون فقط ٠ بديهي إن أكثرية المنفيين اختارت أن تبقى فى بابل » (ص ١٢٦ ـ ١٢٧) ٠

هذا الامر الذى تؤكده المصادر التاريخية عامة يوافق اتجاه ذلك العصر ٠ وقد جاء في تاريخ كمبردج القديم (حرره ج٠ب٠ بري س ٠ أ٠كوك و ف٠أ٠ ادكوك) ان المحتمل أن يكون اليهود تعاونوا مع أشقائهم الفنيقيين الذين كانوا في ذلك العصر قد بدأوا ينتشرون في العالم المعروف ويتعاطون التجارة خاصة مع الشرق ٠ الجزء السادس ص ١٣٧) ٠

وقبل أن يقمع الرومان الثورة اليهودية فى فلسطين ويدمروا الهيكل عام ٧٠ بعد الميلاد كان اليهود قد انتشروا فى مراكز الاقتصاد والتجارة في الامبراطورية الرومانية ٠٠ ولم يمنعهم من التركز في « أرض الميعاد » سوى ارتباطهم الوثيق بتجارة واقتصاد تلك المراكز من مثل الاسكندرية ٠٠ فآنذاك لم تكن قد نشأت صعوبات للعودة الى صهيون ٠

وكتب ناتان اوسبيل ٠٠ في معرض الحديث عن « الشتات » قبل تدمير الحياة اليهودية المستقلة في ٧٠ قبل الميلاد ٠٠

« والحقيقة الساطعة انه من قبل الكارثة كان « تشتت » اليهود يتسع منذ وقت طويل ٠٠ » (كتاب المعرفة اليهودية ص ١٢٦) ٠

وهناك من يقدر أن نسبة اليهود في « أرض الميعاد » في أيام الرومان قبل تدمير الهيكل بلغت الربع ·· وفي مصر لوحدها كان عدد اليهود مليون من مجموع ثمانية ملايين هم سكان البلاد في ذلك العصر · (تاريخ كمبردج القديم الجزء ٩ ص ٤٢٩) ·

ولهذا فمن التعدي على التاريخ والعقلانية العلمية الحديث عن الصهيونية «منذ فجر التاريخ» والخروج من مصر ·· أو عن أخبار اليهود على الشتات ·

وانطلاقا من هذه الحقيقة يصبح الحديث عن الشعب اليهودي الموحد عبر الاقطار والقارات ضربا من البلادة الفكرية ·· فمنذ أن هاجر اليهود واستقروا في مختلف الاقاليم أيام البابليين الرومان الهيكل وقضوا على مقومة الشعب اليهودي في فلسطين مواطنها ··

ولهذا كان من الممكن رؤية التفاوت في المصير في فترات مختلفة من التاريخ وفي أقطار متباينة من العالم ·· ففى حين دمر الرومان الهيكل وقضوا على مقاومة الشعب اليهودى في فلسطين وشردوا أبنائه تمتعت الطوائف اليهودية في مواطنها بعطف الامبراطورية ولم تمس ·· وحافظت ، على سبيل المثال ، الطائفة اليهودية في الاسكندرية على ازدهارها الاقتصادي بغض النظر عن مصير اليهود في فلسطين انذاك ·

وبدون أن نحاول تعقب تاريخ الطوائف اليهودية بالتفصيل نستطيع أن نلاحظ أن الطوائف اليهودية في مختلف أنحاء الامبراطورية العربية الاسلامية ازدهرت مثلها مثل سائر الشعوب والطوائف ما دامت الامبراطورية في عصورها الذهبية وشاع فيها الاستقرار ، وأصابها التدهور والجمود حين تدهورت الامبراطورية

باشتداد الصراع الاجتماعي في داخلها وازدياد ضغط القبائل التركية عليها • ولعل ما طرأ على يهود اسبانيا في العهد العربـي الاسلامي لابلغ دليل على صحة هذا الارتباط •• فقط حين انتصر الاسبانيون على العرب وأشاعوا محاكم التفتيش كان على اليهود ، مثلهم في ذلك مثل المسلمين ، أن يختاروا بين البقاء والتكثلك أو الفرار والتشريد ••

كذلك لا بد من أن نلاحظ أن تدهور الامبراطورية العربية الاسلامية أدى الى انتقال مراكز استيطان الطوائف اليهودية من شرق حوض البحر الابيض المتوسط الى اوروبا التي كانت تتطور بسرعة •• وتحولت أكثرية هذه الطوائف من طوائف آسيوية شرقية الى طوائف أوروبية •

وهكذا عند بداية العصر الحديث ، على الرغم من بقاء الطوائف اليهودية في العراق ومصر وأقطار شمال افريقيا باعداد قليلة تحول مركز الثقل من حيث الاستيطان الى اوروبا • وهناك لا في الشرق نشأت الايديولوجية الصهيونية وقامت حركتها السياسية المعاصرة •

الثورات البرجوازية
وانعتاق اليهود

وعاشت الطوائف اليهودية في اوروبا في القرون الوسيطة في الغيتوات ••

ولم يكن ذلك دائما بسبب التفرقة الدينية واتجاه الكنيسة النصرانية نحو عزل اليهود عن النصرانيين •• فالتاريخ يعرف مناسبات طالب فيها قادة هذه الطوائف بالانعزال عن سائر المواطنين •••

وفي هذا كتب « هوارد مورلي ساخر » في كتابه « مسيرة التاريخ اليهودي المعاصر » : « من سخرية القدر أن يطالب اليهود بأنفسهم في اقامة الغيتوات الاولى في اسبانيا وصقلية في العصر الوسيط المبكر باعتبارها رمزا ماديا لتنظيمهم الذاتي » ·· وأضاف أن بعض اليهود اكتشفوا أخطار هذه الانعزالية في القرن السادس عشر ولكن ذلك جاء متأخرا فآنذاك فرضت الغيتوات فرضا على اليهود ·· (ص ٢٩) ·

كذلك ليس دقيقا القول أن التضييق على نشاط اليهود الاقتصادي وحرمانهم من العمل الزراعي هو الذي فرض عليهم اختيار الاشتغال بالتجارة والربى في العصور الوسطى ·· فكما لاحظ كتاب تاريخ كمبردج الوسيط أن اليهود منذ القرن السادس أقاموا المستوطنات التجارية في أوروبا وحافظوا على علاقات ودية مع أبناء دينهم في ايطاليا واسبانيا والشرق (الجزء الثاني ص ١٥٦) · وهذا الاتجاه استمر عبر القرون حتى اشتهرت الطوائف اليهودية بالشئون المالية ومعرفة قوانين التجارة ··

أما اشتغالهم بالربى فيعود الى تحريم الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا التعامل بالربى على النصارى ونشوء فراغ أشغله اغنياء اليهود ·

وتجدر الاشارة هنا الى أن الطوائف اليهودية التي كانت تستقر هنا أو هناك لم تكن في طبيعة الحال طبقة واحدة بل طبقات ، مثلها في ذلك مثل سائر المجتمعات ، الا انها كانت تقوم عادة حول نواة تجارية ـ مالية وتؤلف طائفة انعزالية بسبب نظام الغيتوات ·

وهكذا وصف كتاب تاريخ كمبردج الوسيط عملية الاستيطان

في أوروبا في بدء عهدها :

« وكان كثيرون من اليهود في الايام الاولى من الاستيطان في أوروبا مزارعين · الا أن المهاجر المسالم الى بلاد مأهولة لا يستطيع الاستيطان بسهولة على الارض · ثم ان الطبيعة الطائفية وضرورة القيام بالطقوس الدينية اليهودية جعلت من الافضل الابقاء على الصلات الدائمة التي لا يسهل القيام بها في ظروف الوحدات الريفية (المتباعدة) وهذا وطد الاتجاه الطبيعي بين القادمين الجدد نحو البقاء في المستعمرات التي كان قد أقامها أبناء ملتهم ··

ويضيف : « وبلا شك كانت الطلائع التى تغلغلت في أوروبا الغربية واقامت المستوطنات (اليهودية) تجارية وعملت فى التجارة» « الجزء السابع ص ٦٤٣ ـ ٦٤٤ » ·

ثم أن موقع هذه الطوائف الاقتصادى والتعصب الديني الذي امتازت به القرون المظلمة في العصر الوسيط خلق ظروف الاضطهاد الديني الذى تعرضت له بعض الطوائف في أيام الصراع الاجتماعي القاتمة ·· ولذلك كان بديهيا أن يشتد هذا الاضطهاد مثلا أيام الصليبيين ويصل درجة المذابح ·· فالصليبية جسمت خطورة الصراع الاجتماعى المتفجر فى المجتمع الاقطاعي الاوروبي ·

ومع كل هذا الاضطهاد الذى وصل حدودا وحشية في بعض الاحيان لم تنشأ أيديولوجية صهيونية وبقيت فكرة المسيحية في اطارها الالهي ·

وجدير بالذكر هنا أن الراب منشي بن اسرائيل الذى سافر الى انجلترا فى القرن السابع عشر ليسترحم حاكمها ، كروميل ، ليسمح باستيطان اليهود فى تلك البلاد ، كان يعلن أن على

اليهود أن ينتشروا في أربعة أطراف المعمورة قبل أن يعيدهم الرب الاله الى « أرض الميعاد » (تاريخ الصهيونية ، ناحوم سوكولوف الجزء الاول ص ١٧ ــ ١٨) ٠

ولم يكن الاضطهاد مقتصرا على اليهود ٠٠ فالنظام الاقطاعي السائد انذاك امتزج بالتعصب الديني واستخدمه الاقطاعيون في الصراعات الاجتماعية ٠٠ ولذلك شاهدت تلك الحقبة من الزمن مذابح دينية ذهب ضحيتها أبناء الاقليات النصرانية في أوروبا (البروتستانت في فرنسا والكاثوليك في بريطانيا) ٠٠ كما استنفرت حروبا دينية مدمرة بين الكاثوليك والبروتستانت راى فى جذورها المؤرخون الماديون صراعا بين الكثلكة الاقطاعية والبروتستانتية الرأسمالية ٠

* * *

ودشن نمو الرأسمالية اقتصاديا في أوروبا عصرا جديدا ٠ وحين حققت الثورات البرجوازية سيادة الرأسمالية سياسيا ، بالاضافة الى سيادتها الاقتصادية ، حدثت ثورة في حياة الطوائف اليهودية ٠

ويجمع المؤرخون على أن انتصار الثورة البرجوازية في أوروبا عامة حطم جدران الغيتوات وفتح الطريق واسعة أمام اندماج الطوائف اليهودية بالشعوب التي كانت تعيش بين ظهرانيها ٠

واذا كانت الثورات البرجوازية قد أعربت عن نمو القوميات وتبلورها في حدودها الاقليمية ، واكتسابها المميزات القومية العينية فهي في الوقت ذاته بدأت عملية اكتساب الطوائف اليهودية مميزات القوميات التي كانت تمتزج بها ٠٠

ودشنت الثـــورة البرجوازية الفرنسية الانعطاف الحاسم في انهيـــار الاقطاعية وانتصـــار الرأسمالية على الصعيد الاوروبـــي العام ، ولذلك جسدت نقطة حاسمة في عملية انعتـاق اليهـــود واندماجهم بالشعوب اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا •

ونزعـــم أن الثـــورة البرجوازية الفرنسية شكلت نقطـــة البداية في هذه العملية للامرين التاليين :

* لان الحـروب النابليونية ، بغض النظـــر عن طابعهـــا التوسعي ، نقلت مبادىء الثـــورة البرجوازية الديمقراطية ـ ومنها مساواة اليهود بسائر أبناء الشعوب ـ الى الاقطار الاوروبيــة التي وصلت اليها هذه الجيوش •

* ولان الامبراطور نابليون جسم هذه العملية بعقـــد مجلس السنهدرين ـ وهو هيئة قضائية عليا كانت قائمـة في أزمنـــة مملكة اسرائيل الغابرة ـ واستصدر قرارات منه بهذا المعنى :

ويقينا أن التئام مجلس السنهدرين كان حدثا هـــاما فـــي حياة الطوائف اليهودية في أوروبا فى القرن التاسع عشر لانـــه وضع أسس أيديولوجية لحل المسألة اليهودية في ظروف صعـــود البرجوازيـــة ، وصاغ فكـــرة الانعتاق واندماج الطوائف اليهودية بالشعوب التي تطبعوا بطبائعها القوميـــة •

لقد التأم السنهدرين بحضور ثمانين شخصيـــة دينيـــة وعلمانية من مختلف أنحاء الاقاليم التي كانت تسيطر عليها فرنسا نابليون في أوائل شباط ١٨٠٧ لاعطاء أجوبة على أسئلة محـــددة من مثل : أيحق لليهود تعدد الزوجات ؟ أيصـــح الطلاق فـــي اليهودية ؟ أيمكن الزواج بين اليهود والنصارى ؟ أيعتبر اليهـــود الذين ولدوا فى فرنسا ، فرنسا وطنا لهم ؟ هـــل تشجع القوانين

اليهودية الربى بين اليهود ؟

واتضح أن الاسئلة كانت مصيريـــة على اعتبار انها ستحدد العلاقات بين اليهود والشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ٠

ولم تكن الاجوبة اصطناعية شكلية ٠٠ ولم تكـن من النـــوع المثالي المجـــرد ٠٠ لقد جاءت في القضايا الجوهريـــة تجسـم عمليـــة التطـــور التاريخي ٠

وبحق أكد المؤرخ هاورد مورلي ساخر أن السنهدرين كــان مخلصا بلا شك حين أكد أن اليهود داروا ظهورهـم على فكـــرة وجودهم كأمة (كتابه مسيرة التاريخ اليهودي المعاصر ص ٦٣) وأن فرنسا وطنهـــم ٠

وانذاك أعلن أحد كبار رجال السنهدرين المالي الكبير أبراهام فورتادو : « لسنا نؤلف أمة في داخل أمة أخرى ٠٠ ان فرنسا وطننا ٠ أيها اليهود هذا هو وضعكم ٠ ان واجباتكم قد تحددت والسعـــادة تنتظركم » (المصـــدر أعـــلاه) ٠

وفسر الكاتب أهداف نابليون من عقد السنهدرين ومن هـــذه المظاهرة بتحقيق مساواة اليهود بالفرنسيين واعلان فرنسة اليهود ، تفسيرات عديدة لعل أوقعها انه أراد الاستفادة من اليهود فـــي بولونيا لتزويد جيشه الذى كان يعده للزحف على روسيا القيصرية ٠٠ وأضافوا ان نابليون بعقد السنهدرين كسب اخـــلاص يهـــود فرنسا ويهود بولونيا على السواء (المصدر ذاته) ٠

الا أن القضية الهامة هنا أن عملية الاندماج لم تكن طارئة ، حلت بحلول نابليون وذهبت بذهابه ، بل عميقـــة الجـــذور ٠٠ ولذلك استمرت بعد هزيمـــة نابليون واتخذت طابعا طبيعيا تماما في مختلف الاقطار الاوروبية ٠٠ ولم يكن التطـــور كمـــا أراده

نابليون ـ تطورا يؤدي الى ولاء اليهود في كل مكان لفرنسا ـ بل كما قضت به الاوضاع الموضوعية .. فكان ولاء كل طائفة يهودية للقطر الذى ترعرعت فى ظله واندمجت كل طائفة فى حياة شعبها وبدأت تسهم في عملياته الاجتماعية .. واتضح الانقسام الطبقي في هذه الطوائف تماما كما اتضح في سائر الشعب في هذا القطر أو ذاك .. وكما أن حركة الطبقة العاملة آنذاك عرفت قادة من أبناء الطوائف اليهودية في أوروبا كذلك عرفت الاحزاب البرجوازية من بين قادتها من انتسبوا الى الطوائف اليهودية ..

لقد بدأت مرحلة أصبح أبناء الطوائف اليهودية يعلنون أنهم فرنسيين وبريطانيين وألمان يدينون بالدين اليهودي أو الموسوي ..

ونتيجة التطور غير المتعادل بين أقطار أوروبا كان من الطبيعي أن تتفاوت عملية انعتاق اليهود واندماجهم .. ولذلك تخلف انعتاق يهود الولايات الالمانية عن انعتاق يهود فرنسا .. واتخذت عملية انعتاق اليهود في روسيا القيصرية طابعا معقدا ٠

وعند هذا الحد لا بد من التوقف عند مسألة يهود روسيا القيصرية .. فبينهم نشأت بذور الفكرة الصهيونية وزعمت الحركة الصهيونية حين قامت في الغرب انها قامت في الدرجة الاولى لانقاذهم ..

لا جدال في أن القيود على اليهود في روسيا القيصرية بقيت زمنا طويلا بعد أن حطمت الثورة الفرنسية البرجوازية الديمقراطية جدران الغيتوات في فرنسا وغيرها من أقطار اوروبا الغربية ٠

لقد حاصرت القيصرية اليهود في منطقة في غربي امبراطوريتها

شملت منطقة كبيـــرة من بولونيا الشرقية التي كانت تؤلف جـزءا من الامبراطوريـة القيصريـــة ٠٠

وفي هذه المنطقة كانت حياة اليهود صعبة الا انها كانت أفضل من حياة الفلاحين الروس التي انحطـت الى الـــدرك الاسفـــل في ظل الاقطاعيـــة الروسية (كتاب مسيرة التاريـــــخ اليهـــودي المعاصر ص ٨٥ ـ ٨٦) ٠

وتمايز اليهود طبقيا وتباينت القيود عليهم ٠٠ فالاغنيـــاء منهم تخلصوا من عبء الاضطهـــاد الطائفي والفظاظة الاقطاعيـــة في حين حلـت المصائـــب بجماهير اليهود مثلهم في ذلـك مثـــل سائر سكان الامبراطورية القيصرية (٢)

صحيح ان القيصرية لجأت ، فيما لجأت اليـــه من أساليب ، لقمع الثورة الاجتماعية ، الى تشجيع المنازعات القوميـة ، عـــلى أساس مبدأ فرق تسد ، مما أدى الى مذابح في القفقاس وفي غيره من المناطق ٠٠ وفي هذا الاطار استخدمـــت القيصرية ســـلاح

---

٢ ـ في أواسط القرن التاسع عشر حين فرضت القيصريـــة تجنيد أبناء اليهود ٠٠ كان أبناء اليهود الاغنياء يتخلصون من الجندية بأساليب الرشوة مما أثار حقد اليهود الفقراء فأعربوا عن ذلـــك بأغنية شعبية معناه : أبناء السيد « روكوفر » الغني سبعـة ٠٠ لا يلبس أحدهم طقم الجندية ٠٠ ولكن الارملة الفقيرة « ليـــة » ابنها واحد ٠٠ ولكنهم يطاردونهم كأنهم طريدة برية ٠٠ من الحـق تجنيد الجماهير الكادحة !! الحذائون والخياطون فهم « مجـــرد حمير » !! ولكـــن أبناء الاغنياء الكسالـــى ٠٠ من حقهـــم أن يواصلوا حياتهم « الهادئة »

معاداة اليهود وشنت عليهم تحريضا دينيا سافلا ونظمت مذابح كانوا ضحاياها ·

ولكن كل هذا لم يغير القوانين الموضوعية ·· ولان الحركة الثورية الاجتماعية كانت عميقة الجذور واسعة القاعدة اتسمت حركة الانعتاق اليهودى في روسيا القيصرية ـ كما لاحظ ذلك لينين ـ بالاتساع والعمق بفضل يقظة الوعي البطولي بين البروليتاريا اليهودية (مجموعة كتاباته النسخة الانكليزية الجزء السابع ص ١٠١) ·

ولهذا حين بدأت الصهيونية نشاطها في روسيا القيصرية بدأته في ظروف يقظة الوعي الطبقى بين جماهير البروليتاريا اليهودية التي انخرطت في العملية الثورية ، وحاولت أن تجذبها بعيدا عن هذه العملية الثورية كما سنرى ·

الفصل الثالث

نشوء الصهيونية وايديولوجيتها

لم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الصهيونية في أوروبا وأن يكون توقيت ظهور منظمتها في نهاية القرن التاسع عشر ، وأن تصوغ أيديولوجيتها على الوجه الذى صاغته فيه .. فالاوضاع الاقتصادية والسياسية هي التي خلقت التربة لظهور اللاسامية والصهيونية التى زعم أصحابها الرد الوحيد على اللاسامية ..

* * *

ان الاستيطان الكولونيالي الذى بدأ في القرن الثامن عشر استمر في القرن التاسع عشر وخاصة في أقطار افريقيا ، الا أن الامر الحاسم الذى ميز الربع الاخير من ذلك القرن كان انتقال الرأسمالية في أوروبا الى أعلى مراحلها : مرحلة الامبريالية ..

وهذا كان يعني تحول رأسمالية التنافس الحر الى الاحتكار واندماج المال المصرفي بالصناعة وتصدير رؤوس الاموال واقامة احتكارات عالمية وتقسيم المستعمرات تماما ..

هذا من ناحية أما من الناحية الاخرى فالانتقال من الرأسمالية الى الامبريالية شدد الصراعات الاجتماعية والقومية ، وجعل الصراع بين الطبقة العاملة والرأسمالية الصراع الجوهري الذى يترك طابعه على كل ميادين الحياة ونواحي التطور ...

هربرت صموئيل اول منـدوب سامي
يتـلو على وجهـاء الطوائف الثلاثـة في البلاد نصوص صك الانتداب



مظاهرة القدس سنة ١٩٢٠ احتجاجاً على الانتداب ومطالبة بالاستقلال

ولم ير القرن التاسع عشر شيوع أيديولوجية الاشتراكيـــة العلمية ومولد الحركة الشيوعية العالمية (١) فحسب ، بـــل شهد أول محاولة في التاريخ تقوم بها الطبقة العاملـــة (الفرنسيـــة) لخلع نير الرأسمالية واقامـــة المجتمع العـــادل الـــذي يقضـي عـــلى استغلال الانسان للانسان ..

لقد هزت هذه المحاولة التي يعرفها التاريخ بكومونة باريس عام ١٨٧١ الرأسمالية وخاصة في أوروبا وأيقظتها على خطـــورة الطبقة العاملة التي اتسعت صفوفها بفضل التطـور الصناعـــي المتواصل ، وتحسن تنظيمها بفضل خبراتها المتراكمة ، وتعمقـت نضاليتها الثورية نتيجة ظروفها القاسيـــة .

ولجأت الرأسماليـــة الى مختلـــف الاساليـــب لوقـــف المـد الثـــوري ..

فمن الناحيـــة الواحـــدة استخدمت القمع والعنف في وقف مد النضـــال الطبقي الثـــوري ، ومن الناحية الاخرى لجأت الى الاستيطان الكولونيالي في سبيل تخفيف عنف هذا الصـراع ..

هكذا وصف الامبريالي سيسل رودس (٢) دور الكولونيالية الاستيطانيـــة في هذا الصراع في عام ١٨٩٥ :

« كنت أمس في الايست اند (حي العمال في لنـــدن) ، وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين وقد سمعت هناك خطابات فظيعـــة كانت من أولها الى آخرها صرخات الخبـــز !

---

١ ـ تأسست الاممية الاولى عام ١٨٦٤ وحلت عام ١٨٧٦ .. وتألفت الامميـــة الثانية عام ١٨٨٩ .

٢ سميت اقاليم في افريقيا باسمـــه : روديسيا الجنوبيـــه وروديسيـــا الشماليه ، وروديسيا الشماليه لا تزال تحكمها اقلية بيضاء من المستوطنيـــن ... اما الجنوبيـــة فاستقلت .

الخبز ! وأثناء عودتي الى البيت كنت أفكر بما رأيت ، وتبينت أوضح من السابق أهمية الاستعمار ·· ان الفكرة التي أصبحوا اليها هي حل المسألة الاجتماعية ، أعني : لكيما ننقذ أربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة من حرب أهلية مهلكة ينبغي علينا نحن الساسة طلاب المستعمرات أن نستولي على أراض جديدة لنرسل اليها فائض السكان ولنقتني ميادين جديدة لتصرف البضائع التي تنتجها المصانع والمناجم · فالامبراطورية ، وقد قلت ذلك مرارا وتكرارا ، هي مسألة البطون · فاذا كنتم لا تريدون الحروب الاهلية ينبغي عليكم أن تصبحوا استعماريين » (٣) ·

ولم تكتف الرأسمالية بهذين الاسلوبين بل استخدمت اللاسامية أيضا حين دعتها الى ذلك ضرورة تحويل الصراع الاجتماعي عن مساربه الصحيحة ··

وابتدع الرجعيون اللاسامية ـ وهي من الايديولوجية العنصرية السيئة الصيت ـ في هذه المرحلة بالذات ، مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الامبريالية واحتدام الصراعات الاجتماعية في أوروبها لانهم اعتقدوا انها سهلة الترويج ··

ويحدد كثيرون من المؤرخين وقت ظهور اللاسامية في سنوات السبعين من القرن التاسع عشر ويؤكدون أن الساسة لجأوا اليها خدمة لاغراضهم ··

وهذا ما يؤكده ماكس ديمونت في مؤلفه « اليهود والله والتاريخ » حين كتب : ان اللاسامية وهي أيديولوجية معاصرة تختلف تمام الاختلاف عن معاداة اليهود ، في القرون الوسطى ،

---

٣ ـ نشر الحديث الصحفي ستيد واستشهد به لينين في كتابه « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ·

نشأت في أواخر القرن التاسع عشر (ص ٣١١ و ٣١٣) ، وشاعت بين الفئات المتوسطة التي كانت قلقة بحكم عدم استقرار أوضاعها الاجتماعية (ص ٣١٥) وأضاف أن ساسة اليمين استخدموهـا في محاربـة ساسة اليسار . ثم كتب : وفسر الساسة عـدم استقرار هذه الفئات لا بأسبابه الاجتماعية والاقتصاديـة ، بـل بسبب شرور اليهود ، فاذا كانت هذه الفئات تخاف أخطار الرأسمالية عليها ، لوحـوا لها باليهودي الرأسمالي المستغـل ، أمـا اذا كانت تخاف الشيوعية فكانوا يلوحوا لها بالشيوعي اليهودى المتامر. (ص ٣١٨) .

وهكذا فظهور الايديولوجية العنصرية رافق الامبريالية التي كانت تبرر احتلالها وسيطرتها على الاقطار المتخلفـة في آسيـا وافريقيا بذريعـة « تمدين » شعوبها .

وذريعة « التمدين » التي اتخذت شعار لها « عبء الرجـل الابيض » استنفرت بطبيعة الامـور فكرة رقي شعوب الـدول الامبريالية عرقا على الشعوب المتخلفة ونقواتها العنصريـة بالنسبة لتلك التي أدنى منها تطورا أو « أغمق » منها لونا ..

واتؤكـد حقائـق التطور أن الايديولوجية العنصريـة كانت أسبق من اللاسامية التي تفرعت عنها ، وان اللاساميـة انتشـرت أول ما انتشرت في ألمانيـا الامبرياليـة في وقـت الصـراع الاجتماعي ..

ويتفـق كافة المؤرخين على أن مستشار ألمانيا بسمـارك الذى قام بدور كبير في انعتاق اليهود ودمجهم في الحياة الالمانية ، لجأ بنفسه الى اللاسامية في معركته السياسية حين قاد معركـة حزب المحافظين مع الاحرار الذين اعتبرهم تقدميين ..

وكتب هوارد مورلي ساخر في مؤلفه « مسيرة التاريـــخ اليهودى المعاصر » يؤكد ارتباط اللاسامية بالصراع الاجتماعـــــي على النحـــو التالي :

« وكانت سنوات السبعين فى القرن التاسع عشر بالحقيقـة سنوات أزمة الطبقة الوسطى الدنيا · كانت سنـــوات هبـوط اقتصادي فقـــد خلالهـــا أصحـــاب الحوانيت والمعلمـــون ، بشكـــل خطيـــر مكانتهم بوصفهم أصحـاب الياقات البيضاء » ·· واضاف : « وخلال هذه الفترة بالضبط ظهر المدعو أدولـــف ستوكر وأدرك كره هذه الفئة الاشتراكية الماركسية والبروليتاريا فأسس «حزب العمال المسيحي الاجتماعي » واستخدم اللاساميـــة في دعايته لكسب الانصـــار » (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥) ··

ويتأكد ارتباط اللاسامية بالاوضاع الاجتماعية الاقتصاديـــة في أنها لم تظهر الا في أوقات احتدام الصراعـات الاجتماعيـــة وتبددت حين لم تعد هناك ضرورة لها ·· ولذلك لم يكن من قبيـل المصادفة أن اللاسامية التي شاعت في المانيا في سنوات السبعـين والثمانين في القرن التاسـع عشر اختفـــت تقريبا من الحيـــاة السياسية عند نهاية القرن المذكور ومطلعه لتعود اليها في فتـــرة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، في وقت احتـدم فيـــه الصـــراع الاجتماعي احتداما هائـــلا واتسعت صفوف الحركة الشيوعيـــة وتعاظم دورها في الحياة الاقتصادية والسياسية ··

وليس يهمنا طبعا من اللاسامية هنا غير مقولتها الاساسية،فهي انطلاقا من مصدر أيديولوجيتها العنصرية تعتبر اليهود أمة منفصلة لا يمكن لافرادها أن يندمجوا بالشعـــوب التي يعيشـــون بين ظهرانيها ··

ولذلك كانت اللاسامية نقيض حركة انعتاق اليهود التي اقترنت بالثورات البرجوازية ، في أوروبا على وجه التحديد ، وخطت خطوات بعيدة المدى في دمج الطوائف اليهودية بالقوميات التي تعيش في أقطارها ..

واقترن ظهور اللاسامية بتطور عيني في الفكرة القومية في أوروبا ..

لقد كانت الحركات القومية في أوروبا حركات تقدمية دينامية هدفت الى تصفية تجزئة الاقطاعية وانعزالية ولايات الشعب الواحد ..

وفي الفترة التى نحن بصددها ، على الرغم من بقاء جيوب الكفاح القومى في الامبراطوريات المتعددة القوميات في أوروبا ، كانت الفكرة القومية قد فقدت طابعها التقدمي وأصبحت اداة في أيدي الامبرياليين يستخدمونها لتوسيع امبراطورياتهم تحت شعار « الكبرياء القومي » « وتمدين الشعوب » ..

وظهر هذا التغيير في طابع الحركات القومية في الحرب الفرنسية ـ البروسية التي خاضتها بروسيا من أجل خلق الاوضاع لاتمام وحدة ألمانيا . ولكن هذه الحرب الايجابية في بدايتها تجاوزت طابعها التقدمي حين تخطت الجيوش البروسية حدود ألمانيا وغزت الاراضي الفرنسية ..

وهكذا ، اذا استثنينا بعض الشعوب التي كانت ترزح تحت قيود الكبت القومي نستطيع أن نقول أن القومية أصبحت في أوروبا أداة بيد القوى الرجعية .

الايديولوجية الصهيونية

تبلورت الفكرة الصهيونية السياسية المعاصرة التى

ظهرت في القرن التاسع عشر في كتاب تيودور هرتسل « الدولة اليهودية » ٠٠ الذى ظهر عام ١٨٩٦ ٠

صحيح أن منظمات « أحباء صهيون » نشأت أساسا في روسيا القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ودعت الى الهجرة الى فلسطين ، الا انها لم تترك أثرا عميقا في حياة جماهير الطوائف اليهودية وكان من الممكن أن يعد الذين لبوا هذه الدعوة بالعشرات ، فجماهير هذه الطوائف في روسيا القيصرية كانت قد انصبت في موجة الحركة الثورية الناهضة ٠

كذلك عالج القضية اليهودية من منطلقات مماثلة لمنطلقات هرتسل اليهودي الروسي مواطن أوديسا ليوبنسكر ووضع استنتاجاته في كتابه « التحرر الذاتي » ، الا أن دعوته لاقامة دولة يهودية — لا في فلسطين بالضرورة اذ استبعدها ، واعيا ، — لم تجد اطارا تنظيميا ٠٠ وكان يجهلها هرتسل وأولئك الذين أقاموا المنظمة الصهيونية فيما بعد ٠٠

ولهذا اقترنت الحركة الصهيونية بهرتسل لانه قرن أيديولوجيته بالمنظمة الصهيونية التي نشأت بعد المؤتمر الصهيونى العالمي الذى عقد في بال من أعمال سويسرا في عام ١٨٩٧ ٠

ما هى اسس الايديولوجية الصهيونية !؟

ان منطلق أصحاب هذه الايديولوجية الاول ، كما صاغه هرتسل وخلفاؤه من بعده « أن الشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها هي ، اما ضمنا أو صراحة ، لاسامية وأن اليهود هم شعب واحد ٠٠٠ جعلهم أعداؤهم هكذا بدون موافقتهم كما يحدث مرارا وتكرارا في التاريخ » ٠ (هرتسل : « الدولة اليهودية » اصدار مجلس الصهيوني الاميركى عام ١٩٤٦ ص ٩٢) ٠

وهكذا ينطلق الصهيونيون من المقولة الغيبية التي تتجاهل العوامل الاقتصادية ـ الاجتماعية التي خلقت اللاسامية ويؤكدون أن اللاسامية أبدية قائمة بين كل الشعوب قاطبة ، وهي لطابعها العدائي أنشأت الشعب اليهودي ووحدته ·· بدون ارادته أو موافقته ··

وهذا يعني أن الصهيونية قبلت مقولة اللاسامية وأصبحت وجهها الاخر ··

وفي هذا الصدد كتب بن هلبرن صاحب كتاب « فكرة الدولة اليهودية » : « نمت اللاسامية السياسية اذن بوصفها حركة مضادة للثورة معادية للوضع القائم لا بالنسبة لوضع اليهود فحسب ، بل بالنسبة الى البناء الديمقراطي والمواقف الليبرالية التي اتخذتها المجتمعات المعاصرة عامة » ··· (ص ١٠) ··

وأضاف أن جمهرة اليهود رفضت مقولة اللاسامية واعتبرت نفسها جزء من القوميات التى اقترنت حياتها بحياة طوائفها اليهودية : « فقد أنكر اليهود الساعون نحو الانعتاق أن يكونوا قومية منفصلة » · (ص ١٢) ·· وعلى هذا الضوء يظهر أن الصهيونية فرضت الايديولوجية اللاسامية حول « القومية اليهودية المنفصلة » على الطوائف اليهودية ، على الرغم من مقاومتها ذلك ··

وفي الواقع وجدت الصهيونية صعوبة كبيرة في الانتشار بين الطوائف اليهودية في أوروبا الغربية حيث ظهرت المنظمة الصهيونية في البداية ·· ومن الدلائل على ذلك أن الطائفة اليهودية في ميونخ من أعمال ألمانيا رفضت بشدة عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينتها ، مما دفع القيمين عليه لعقده في بال السويسرية ·

وقرر التقارب بين اللاسامية والصهيونية ، أيديولوجيا ، على الرغم من التناقض الظاهر بينهما ، قرره الى حد كبير موقف المنظمة الصهيونية من اللاسامية ·· فالقيادة الصهيونية لم تجد في اللاسامية عدوا خطيرا بل عاملا مساعدا على تحقيق برامجها ، انطلاقا من قولة هرتسل ان أعداء اليهود هم الذين جعلوهم شعبا واحدا ··

بل ان هرتسل ذهب الى أبعد من ذلك ، وفي وصفه انتقاله من معسكر أنصار الانعتاق والاندماج الى أنصار الانعزالية الطائفية كتب انه اكتشف « أن اللاسامية وهي قوة غير واعية وشديدة المراس بين الجماهير لن تضر اليهود » وأضاف أنه يعتبرها « حركة مفيدة لتطوير الخلق اليهودي » · (يومياته ـ مختصرة اصدار المكتبة الكونية ص ١٠)

وهكذا ، فعلى الرغم من التناقض بين اللاسامية التي تصف اليهود بكل المثالب التي اكتشفتها العقليات المتعصبة ، والصهيونية التي تضفي على اليهود كافة نعوت الكمال الانساني ، فقد كان التقارب ملازما لهما على صعيد العمل ·· اذ كانت الصهيونية ترى في اللاسامية محركها التاريخي وتحتاج الى نشاطها لتحقق أهدافها ··

واتخذ هذا التقارب لا شكل سكوت عن اللاسامية فحسب بل اطار تعاون وثيق بين اللاساميين والصهيونيين ·· وهذا ما أظهرته حقائق التعاون بين القادة الصهيونيين مع النازيين قبل الحرب العالمية الثانية ··

وليس الوقت ببعيد حين نشرت بعض مجلات هذه البلاد فضيحة المنظمة الصهيونية فى العراق التي ألقت القنابل على

الكنس وتجمعات اليهود بقصد اجتثاث جماهير الطائفة اليهودية من تربتها الطبيعية ، التي نمت فيها عبر قرون ، وتهجيرها الى اسرائيل ..

واعتمادا على المقولتين : أبدية اللاسامية « وفشل » عملية الانعتاق والاندماج ، أولا ، ووجود الشعب اليهودي بفضل أعدائه ، ثانيا ، استنتجت الصهيونية أن المشكلة اليهودية لا حل لها بغير تجميع « شتات » اليهود في مركز واحد فيقيموا دولتهم وتنتهي مشكلتهم التي « امتدت حوالي ألفي سنة » منذ أن « شتتهم الرومان » !! (٤)

ولم يترك الصهيونيون أيديولوجيتهم بهذه البساطة بل تعمقوا في بحث ملامحها وألبسوها حللا « علمية » ...

ومن هذا القبيل ما كتبه ليوبنسكر في كتابه « التحرر الذاتي » .. فقد اعتمد في بنائه الايديولوجي على أن اليهود هم قوم شبح لا وطن لهم ، وبما أن الانسانية تكره الاشباح لذلك تنزل بهم الشعوب الاضطهاد والتعذيب .. والحل اذن يكمن في تحويلهم من قوم شبح الى قوم طبيعي .. وهذا يتم اذا ما أقاموا وطنا لهم في مكان ما .. فعندئذ يتوقف اضطهادهم حتى لو بقيت بعض طوائفهم في أقطار مختلفة .. فهم عندئذ يكونون جالية كسائر الجاليات التي تعيش بين قوميات أخرى ..

ولم يكن تعيين الوطن أمرا مفروغا منه منذ البداية .. فليو بنسكر استبعد فلسطين عند بحثه أمر اختيار الوطن ، واعيا ، على اعتبار أن ذكرياتهم المرتبطة بها قد تكون عاملا

---

٤ ـ لاحظنا في البدايه زيف هذا الزعم ، فحين قضى الرومان على ما يسمى بالهيكل الثاني في سنة ٧٠ ميلاديه كان ثلاثه ارباع اليهود في انحاء مختلفه من الامبراطورية .

معرقلا .. كما أن المنظمة الصهيونية ، مع انها في مؤتمرها الاول دعت الى اقامة الوطن القومي في فلسطين ، الا انها عادت في عام ١٩٠٣ ووافقت على اقتراح ممثل الامبريالية البريطانية تشمبرلين اقامة الوطن القومي في أوغندا ..

أما الاتفاق نهائيا على اختيار فلسطين فيعود الى عاملين : نشوء ظروف تساوقت فيها مصلحة الامبريالية البريطانية والصهيونية أولا واكتشاف الصهيونيين أن من الاسهل استنفار جماهير الطوائف اليهودية لبناء وطن قومي في فلسطين بسبب اقترانها بالدين اليهودي وذكريات تاريخية قديمة ..

كذلك ارتأت الايديولوجية الصهيونية الامة اليهودية لا أمة عالمية فحسب ، بل أمة من نوع فريد تتجاوز التقسيمات الطبقية وينتفي فيها الصراع الاجتماعي ..

ولهذا كانت دعوة هرتسل معادية للاشتراكية التي وضعها التاريخ على بساط البحث في تلك الفترة التاريخية في أوروبا ..

وكان واضحا أن الصهيونية التي كان من الممكن أن تجد قاسما مشتركا مع اللاسامية ، لم تجد قاسما مشتركا مع الاشتراكية العلمية ، وكان اصطدامها بها تصادما مباشرا على طول الجبهة ...

ففي حين كانت الحركة الاشتراكية الثورية آنذاك تدعو الى وحدة النضال الطبقي بين العمال عامة بغض النظر عن انتمائهم القومي أو الطائفي وترى في القضاء على حكم الطغيان الرأسمالي حلا للمشاكل القومية والطائفية ومن بينها المشكلة اليهودية ، وتنادى باندماج اليهود مع سائر القوميات ، ظهرت الصهيونية عنصرا مخربا في الطبقة العاملة تدعو الى انسحاب

العمال اليهود من النضـــال الطبقي والسير وراء سراب الصهيونية وتعميـــق العزلة الطائفية والقومية في مرحلـــة النهوض الطبقي الثـــوري ..

وفي حين أن القيادة الصهيونية لم تبـــذل أي جهد لجـــذب اليهود الرأسماليين النشيطين من الاحزاب البرجوازية (ليبرالية كانت أم محافظـــة) ، بذلت جهودا ضخمـــة ، لجـــذب اليهود من الحركات الثورية ..

وفرضت تطورات الحياة السياسية ـ الاقتصادية في أوروبا والولايات المتحدة حيث تدفقت الهجرة اليهودية في نهاية القـــرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تغييرات في الايديولوجيـــة الصهيونية التي لم تجـــد جذورا لها بـــين جماهيـــر عمـــال الطوائـــف اليهوديـــة ..

ولهـــذا ظهر تياران لا يتعارضـــان بالضرورة .. تيـــار الصهيونية التقليدي الذى يرتأي الدولة اليهوديـــة ، في وطنهـــا المقبل دولة برجوازية ، مثـــل سائـــر الدول البرجوازيـــة في اوروبا ... وتيار الصهيونية « الاشتراكيـــة » الـــذى يقبـــل بمقولات الصهيونية كلها ، الا انه يدعو الى أن تكـــون الدولـــة دولة « اشتراكيـــة » ..

ونؤكـــد أن هذين التيارين لم يتعارضا وبقيا في اطـــار الايديولوجية الصهيونية البرجوازية ، المتناقضة تناقضا لا مهاودة فيه مـــع الاشتراكية العلمية لان تيار الصهيونية «الاشتراكية» ! انطلـــق من قاعـــدة التعاون الطبقي باعتباره الطريـــق الوحيـــد لاقامة الوطن القومي وتنفيذ برنامج الصهيونية الاقليمي ..

وتتبلـــور الايديولوجية القومية البرجوازيـــة في هـــذه

الصهيونية « الاشتراكية » ! في توجهها الجوهري لمشكلة الطوائف اليهودية « فالصهيونية الاشتراكية » كما أذاعها بير بوروخوف ترى الصراع القومي سابقا للصراع الطبقي الاجتماعي ولذلك لا بد من تجميع الشتات واقامة القوم أولا ·· وهذا ما يتعارض مع الاشتراكية العلمية التي ترى التطور التاريخي حصيلة الصراع الاجتماعي منذ أن نشأت الطبقات بعد عهود الانسانية الاولى ··

والامر الجوهري الذى يميز الاشتراكية العلمية عن الايديولوجية البرجوازية أن الاشتراكية العلمية ترى في نشوء القوميات واقامة الدول ظاهرة اقترنت بنشوء الرأسمالية وانتصارها على التمزق الاقطاعي لا ظاهرة أزلية ·

وهنا ينشأ السؤال : هل يمكن اعتبار الصهيونية بوصفها أيديولوجية قومية ، أيديولوجية حركة تحرر قومي يهودي ؟

ان نشوء القوميات والدول القومية اقترن بنشوء البرجوازية وانتصارها على الاقطاعية ··

هذا ما وقع في بريطانيا وفي فرنسا وفي غيرها ··

وفي مثل هذه الاقطار لم تكن هناك حركات قومية ·· بل حركات اجتماعية تسلمت قيادتها البرجوازية وأيدتها الطبقات الشعبية ـ من العمال والفلاحين في معركتها مع الاقطاعية ··

ولكن نتيجة التطور غير المتعادل والتفاوت في ظروف القوميات الاوروبية نشأت بين القوميات المكبوتة فى الامبراطوريات العثمانية والروسية القيصرية والنمساوية ـ الهنغارية حركات تحرر قومي هدفت الى اقامة الدول القومية المستقلة ···

وأيدت الانسانية المتقدمة وفي طليعتها قوى الاشتراكية العلمية هذه الحركات القومية باعتبارها حركات تدعم مسيرة التقدم الاجتماعي ·· وقد أسهمت هذه الحركات فعلا في تقويض دعائم الامبراطوريات الاقطاعية وتدعيم الديمقراطية البرجوازية وخلق الظروف الافضل لنمو النضال الطبقي ··

ولكن أيديولوجية القومية البرجوازية التقدمية كانت قد تحولت ، في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر ، وقت ظهور الصهيونية ، الى أيديولوجية التوسع الاقليمي على حساب الشعوب وبهذه الايديولوجية اقترنت الصهيونية لا بغيرها ··

ثم ان الايديولوجية الصهيونية في مسيرتها لم تسهم في الظروف الموضوعية في حركات التقدم الانساني ، بل دعمت قوى الردة والامبريالية على الصعيدين الاوروبي والعالمي ·· فمن الناحية الاوروبية الداخلية وقفت الصهيونية ضد حركات انعتاق اليهود العامة واندماجهم بمجتمعاتهم في كل قطر من الاقطار ، كما صادمت الحركات الاشتراكية الثورية بمحاولتها جذب العمال اليهود بعيدا عن تلك الحركات · ومن الناحية العالمية دعت الى الاندماج في مخططات الامبريالية العالمية بشقيها الكولونيالي الاستيطاني والسياسي الاستراتيجي ··



الفصل الرابع

الصهيونية حتى وعد بلفور

مخطط هرتسل
والاستيطان الاستعماري

كان كتاب تيودور هرتسل « دولة اليهود » ، تجسيدا للايديولوجية الصهيونية ، ومخططا لبناء الدولة اليهودية ، عالج ادق تفاصيل عملية البناء ابتداء من اقامة « جمعية اليهود » ـ الهيئة التي ستشرف على المشروع ـ والشركة اليهودية ـ المؤسسة التى ستنفذه اقتصاديا ـ حتى قضايا تهجير اليهود بطبقاتهم وتنظيم المدن في دولتهم واختيار لغتهم وعلمهم وسن دستورهم ٠

وعلى هذا الضوء يعتبر كتاب « دولة اليهود » مخطط الممارسة الصهيونية ، وتظهر فيه ملامح السياسة العامة التى اختطتها المنظمة الصهيونية بعد أن قامت في المؤتمر الصهيوني الاول ٠٠

وحسب المخطط تكون البداية في تعيين رقعة الارض التى ستقوم عليها الدولة اليهودية ، و « جمعية اليهود » هي التي ستختار فيما بعد اذا كانت هذه الرقعة ستكون فلسطين أو الارجنتين (« دولة اليهود » بالانكليزية اصدار مجلس الطوارىء الصهيوني الاميركي عام ١٩٤٦ ص ٩٥) ثم تأتي « الشركة اليهودية » لتنفذ المشروع عمليا « فتصفي مصالح اليهود

المهاجرين .. وتنظم التجارة في القطر الجديد » (المصدر ذاته ص ٩٢) .

ويحتل فصل « الشركة اليهودية » حيزا محترما في كتاب « دولة اليهود » لان هرتسل أراد أن يعالج بالتفصيل - الى حد ما طبعا - مسألة تصفية أموال اليهود غير المنقولة ونقلها مع رؤوس الاموال السائلة الى القطر الجديد لاستخدامها في بناء المساكن وشراء الاراضي وتنظيم التجارة .

وحدد هرتسل رأسمالا لهذه الشركة بمقدار ألف مليون مارك (٥٠ مليون جنيه أو ٢٠٠ مليون دولار بسعر نهاية القرن العشرين) واختار مركزا لها لندن لتكون تحت سلطة بريطانيا القانونية وحمايتها . (المصدر ذاته ص ٩٨) .

وتصور هرتسل واقرانه تنفيذ المشروع على نسق الاستيطان الكولونيالي في الجزائر وروديسيا وغيرها ولذلك حين أسسوا أداة الصهيونية المالية في عام ١٩٠٢ أطلقوا عليها الشركة اليهودية الاستعمارية (الكولونيالية) واعتبروها « أداة الحركة الصهيونية المالية وهدفها الجوهري تطوير فلسطين والاقطار المجاورة لها صناعيا واقتصاديا » (تاريخ الصهيونية ناحوم سوكولوف جزء ٢ ص ٣٧١) .

ولم تكن القضية مجرد تشابه في الاسماء ، فقادة الصهيونية أكدوا فيما بعد التماثل بينهم وبين الممارسة الاستعمارية (الكولونيالية) ..

وكتب الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف في معرض تفسيره دوافع تأسيس شركات المنظمة الصهيونية المالية في بريطانيا :

« وشجعت الانجازات العظيمة التي حققها الغزو السلمي البريطاني (الاستيطان الاستعماري (الكولونيالي) أ٠ت) الحركة الصهيونية لتضع ثقتها وأموالها فيها (في بريطانيا أ٠ت) ٠ لقد « خلق » سيسل رودس (الامبريالي البريطاني الذي قاد احتلال ولايات عديدة في افريقيا وسميت روديسيا باسمه أ٠ت) بمبلغ مليون جنيه فقط روديسيا التي تمتد مساحتها ٧٥٠ ألف ميل مربع ٠ وسيطرت شركة شمال بورنيو البريطانية برأسمال ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه على ٣١٫٠٠٠ ميل مربع ، وشركة افريقيا الشرقية البريطانية التي أشرفت على ادارة ٢٠٠٫٠٠٠ ميل مربع بدأت بالمبلغ الذي بدأت فيه الشركة اليهودية الاستعمارية أي بمبلغ ٢٥٠٫٠٠٠ جنيه » ٠ (المصدر أعلاه المجلد ٢ المقدمة ص ٤٧)

وأكد سوكولوف هذا الامر حين عاد وكتب في معرض مناقشته المتشككين :

« وتسأل ما هي سياستكم ؟ وآخرون يقولون يجب استبعاد السياسة فالصهيونية يجب أن تكون اما استعمارا واما حركة روحية ٠٠ (ولكن) يجب أن نكون صهيونيين في استعمارنا وروحنا وديننا » ٠ (المصدر أعلاه المجلد ، ص ١٧) ٠

ولذلك لم يكن غريبا أن تتجه الحركة الصهيونية الى الامبراطورية البريطانية ٠٠ وفي هذا الصدد كتب ناحوم سوكولوف أيضا « وكان واضحا أن تقوم بريطانيا بدور على غاية من الاهمية في السياسة الصهيونية ٠ ومنذ البداية كانت لندن مركز المنظمة الصهيونية الماليةومحجة الصهيونية السياسية » ٠ وأضاف ولذلك قادت الطريق هرتسل الى لندن ٠٠ فبريطانيا هي التي اقترحت اقامة الدولة اليهودية في أوغندا (افريقيا)



المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث عقد في مدينة حيفا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠



ونظمت بعثة العريش ٠٠ لقد كانت المالية الصهيونية انكليزية والنظرة السياسية الصهيونية انكليزية ٠٠

وهذا التجاوب بين القيادة الصهيونية وبريطانيا الامبراطورية منذ بدء المنظمة الصهيونية أكده اللورد ملتشت في كتابه «جارك» فكتب أن الحركة نمت بعد المؤتمرين الثاني والثالث « وتحقق تقدم هام في انكلترا حيث كان غير يهود لامعين من مؤيدي مثل العودة الى صهيون » (ص ١١١) ٠

وفعلا بدأت في هذه الفترة بالذات المفاوضات بين هرتسل ممثل المنظمة الصهيونية وجوزيف تشمبرلين سكرتير (وزير) المستعمرات البريطاني بشأن استيطان اليهود الاستعماري الكولونيالي في عدد من الاقطار ٠٠

وفي المفاوضات الاولى بين هرتسل وتشمبرلين تقدم هرتسل في ٢٢ تشرين الاول ١٩٠٢ بمشروع لاستعمار قبرص وشبه جزيرة سيناء حتى العريش ، الا أن تشمبرلين استبعد قبرص لان اليونانيين والمسلمين (الاتراك) سيرفضون ذلك . ولكنه نظر نظرة ايجابية نحو مشروع استعمار شبه جزيرة سيناء (وعرف فيما بعد بمشروع العريش) واقترح على هرتسل الاجتماع باللورد لاندسون من وزارة الخارجية لهذا الغرض ٠٠٠ (هرتسل ريدر ص ١٢١) ٠

وتابعت المنظمة الصهيونية المشروع الذى كان يجب أن يعتمد على موافقة المندوب السامي البريطاني في مصر آنذاك ، اللورد كرومر ٠٠ وارسلت بعثة لاستقصاء الحقائق الى سيناء ، بدا بعدها هرتسل يفاوض اللورد كرومر في هذا الشأن ، الا أن [illegible] تحفظ من المخطط فسقط المشروع ٠

وبعد ذلك اقترح تشمبرلين منح أوغندا (في كينيا) للاستعمار الصهيوني واقتنع هرتسل بالعرض فبحثه في المؤتمر الصهيوني السادس في بال الذي عقد بين ٢٣ ـ ٢٨ آب ١٩٠٣ ، ونجح في أخذ موافقة أكثرية المندوبين على قبول العرض واقامة « فلسطين جديدة » في تلك المنطقة ..

ولكن المشروع فشل لاكثر من سبب ، ومن أهم الاسباب مقاومة المستوطنين الانكليز أي استيطان يهودي واسع يهدد مواقعهم ، على اعتبار أن المنطقة ستتحول الى اقليم حكم ذاتي يهودي لو تم المشروع .. ومنها معارضة قسم من الصهيونيين اختيار أوغندا اعتقادا منهم انها لن تحرك عواطف اليهود كما تحركها فلسطين التي ترتبط بتقاليدهم وطقوسهم الدينية ..

وهنا تجدر الملاحظة أن مخططات بريطانيا في هذه الفترة من بداية القرن العشرين تباينت ، الى حد ما ، مع مخططاتها في أواسط القرن التاسع عشر .. آنذاك كانت محافلها تدعو الى « بعث صهيون » أو « اعادة اسرائيل » في فلسطين .. وكان ذلك كما لاحظنا قد ارتبط بمشاريعها الاستعمارية في منطقة الشرق الاوسط ابان الهزة السياسية التي أحدثتها مصر في عهد محمد علي عند محاولتها اقامة الدولة العربية الكبيرة بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ .. أما في مطلع القرن العشرين فكانت بريطانيا قد احتلت مصر ولم تكن تستطيع في ظروف التوازن الدولي الدقيق الذي أبقى الامبراطورية العثمانية على كف عفريت (فسميت رجل أوروبا المريض) أن تخطط الاستيلاء على فلسطين .. ولذلك كان اهتمامها بالمنظمة الصهيونية قائما على رغبتها في تسخيرها لتنظيم استيطان استعماري في بعض أنحاء

الامبراطورية البريطانية وبشكـــل خاص في أوغندا ..

ولكن تغيير الاوضاع في العالم ابان الحرب العالمية الاولـــى وسنوح فرصة لتقسيم ممتلكات الامبراطورية العثمانية (التركية) بعثا المشروعـــات الامبرياليـــة البريطانيـــة القديمـــة وعـــاد البحث من جديد في « اعادة اسرائيل » ..

المنظمة الصهيونية في الميدان الدولي

بين ٢١ ـ ٣١ آب ١٨٩٧ عقد في بال المؤتمر الصهيونـــي الاول الذي أقام المنظمة الصهيونية العالمية وصاغ البرنامج الصهيوني على الوجـــه الاتي :

« تسعى الصهيونية الى بناء وطـــن للشعب اليهودي فـــي فلسطين يضمنه القانون العام (الدولي) » .

« ويرتأي المؤتمر استخدام الاساليب الاتية (لتحقيق ذلك) : »

* تنمية استعمار فلسطين بالعمال الزراعيـــين والصناعيين
* تنظيم وتلاحم اليهودية كلها (الطوائف اليهودية أ.ت) بالمؤسسات الملائمة على الصعيدين المحلي والدولي حسب قوانين كل قطـــر .
* تقوية وتنمية الوعي ومشاعر القومية اليهودية .
* اتخاذ اجراءات تمهيدية للحصول على الموافقة (الدولية أ.ت) حيث هي ضرورية لتحقيق أهداف الصهيونية » .

ويتضح من هذا أن التأكيد كان على أمرين : تنفيذ اقامـــة الوطن القومي أو الدولـــة اليهودية على نســـق الاستيطـــان الاستعماري .. والحصول على الموافقة الدولية حيث هي ضروريـــة لتحقيق أهداف الصهيونية

ويقينا أن السنوات القليلة التي قضاها هرتســـل بعـــد

المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ الى وفاته في ٣ تمــوز ١٩٠٤ كانت سلسلـــة من المحاولات للحصول على موافقـــة الـــدول الامبريالية على مساعـــدة الصهيونية على تحقيـــق أهدافهـــا ٠٠ مقابل اسهام المنظمة الصهيونية في تدعيم استراتيجيتها الامبريالية ٠٠

والملاحظة البارزة في هذا الشأن اتصال الصهيونيين بكافة الدول الامبريالية ابتداء من الامبراطورية العثمانية المتداعية والامبراطورية الالمانية الفتيـــة الناهضـــة حتى الامبريالية البريطانية العريقـــة والدولة الايطالية الحديثة التي بدأت تتطلع الى الفـــوز بحصـــة من المستعمرات ٠

واذا كانت اتصالات هرتسل على الصعيد الدولي قد بـــدأت باجتماعه بالوزير العثماني في ٢١ حزيران ١٨٩٦ لبحث الاستيطان الاستعماري في فلسطين تحت رعاية السلطان ٠٠ فقـــد كانـــت احدى مقابلاته الاخيرة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٠٤ مـــع ملك ايطاليا الذى أبدى عطفـــا على مشروع الصهيونيـــة استيطـــان طرابلس الغرب تحت الحمايـــة الايطالية ٠٠ (احتلت ايطاليـــا طـــرابلس الغرب واستعمرتهـــا استعمارا استيطانيـــا فـــي ١٩١٢ وما بعـــد) ٠

والحقيقـــة أن القيادة الصهيونيـــة ، في نشاطهـــا على الصعيـــد الدولي ، كانت ترى مشروعاتها جزءا من النشـــاط الامبريالي وأعربت عن أهدافها بهذه الروح ٠٠

ولا حاجـــة بنا الى المغالاة في تقدير أهمية توجه هرتسل الى المستشار الالماني الامبراطوري بسمارك ليستشيره في مشروعـــه ويطالبه في ان يقرر في مدى فائدته للامبريالية الالمانية الناهضـــة (تاريخ اليهود ابرام ليون ساخر ص ٣٥٤) انما نريـــد أن نثبت

ن هرتسل كان دائما يؤكد فائدة مخططه الصهيوني لاوروبا الامبريالية ..

لقد كانت مقابلة هرتسل الاولى لبحث مخططه ـ قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول ـ مع الدوق الكبير دوق بادن في كارلسرو .. وكتب يصفها في يومياته فذكر أنه تكلم حول الفائدة العظمى التي تجنيها أوروبا من اقامة الدولة اليهودية . وأضاف مستعرضا أقواله أمام الدوق : « وسنبني خطوط السكك الحديدية في آسيا لتكن طريق الشعوب المثقفة . ولن تكون هذه الطريق في حوزة اي من الدول الكبرى » .

وقال الدوق ـ وفي هذا أكثر من مدلول : « وستحل المشكلة المصرية . فبريطانيا تتمسك بمصر لان عليها أن تدافع عن طريقها الى الهند » . (هرتسل ريدر ص ١٠٨).

ومع هذا ركز هرتسل جهودا كبيرة لكسب تأييد الامبريالية الالمانية .. وفي مقابلاته الثلاث مع قيصر ألمانيا غليوم الثاني ـ الاولى في استمبول في ١٨ـ١٠ ـ ١٨٩٨ والثانية في فلسطين ٢٩ ـ ١٠ ـ ١٨٩٨ والثالثة في القدس في ٢ ـ ١١ ـ ١٨٩٨ ـ أكد على الفوائد التي ستجنيها ألمانيا الامبريالية من تبنيها المشروع الصهيوني وحمايته .. فالاستعمار الصهيوني في فلسطين برعاية ألمانيا وحمايتها سيفتح الطريق البري لآسيا من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي ، وبذلك يدشن عهدا جديدا ويفتح آفاقا رحبة ..

لقد أضاء وجه القيصر ـ حسب تعبير هرتسل ـ حين تكشفت أمامه الرؤيا التي رسمها هرتسل بمخططه (يوميات هرتسل المحرر مارفن لوينثال ص ٢٧٢) .

وحين لم تثمر المساعي فى اقناع القيصر الالماني لوضع الاستعمار الصهيوني تحت حمايته لاعتبارات دولية أهمها العلاقات الالمانية ـ العثمانية وعدم رغبة القيصر الالماني في تعكيرها .. وبعد أن أحجم السلطان عبد الحميد عندما قابله هرتسل في ١٩ أيار ١٩٠١ عن منح « الفرمان » بالاستعمار الصهيوني فى فلسطين ركز هرتسل جهوده على كسب تأييد بريطانيا التي بادرت كما أسلفنا الى عرض استعمار اوغندا على الصهيونيين في عام ١٩٠٣ .

وازاء هذا لم يكن غريبا أن يطرق هرتسل أيضا باب القيصرية الروسية التي اقترفت مذابح اليهود في بعض مدنها محاولة منها اشغال الرأي العام وابعاد الثورة عن بلادها .

وفي هذا الاطار اجتمع هرتسل بوزير الداخلية القيصري بهلفه الذى عرف بمعاداته اليهود وكان مسؤولا عن مذبحتهم في كيشينوف ، في ١٠ـ٨ـ١٩٠٣ . وفي هذه المقابلة ، والمقابلة التي أعقبتها في ١٤ آب ١٩٠٣ ، توصل الاثنان الى قدر كبير من التفاهم .. فهرتسل تعهد بأن تسلخ الصهيونية اليهود عن صفوف الاشتراكيين ، وتعهد بهلفه بتمكين المنظمة الصهيونية بالعمل (وكما قال سمح لليهود بالتنظم ، الامر الذي حرمه على المسيحيين) ، كما وعد بالتدخل مع السلطان لتسهيل الاستيطان الاستعماري الصهيوني في فلسطين . (يوميات هرتسل ـ المحرر مارفن لوينثال ـ ص ٣٨٩ و ٤٠١ و ٤٠٢)

وأصبحت مقاومة الحركات الاشتراكية الثورية التي تبناها هرتسل آنذاك تقليدا عميق الجذور في القيادة الصهيونية ولا تزال

السياسة الصهيونية في هذا الميدان على حالها .

الخلاف بين الصهيونية العملية والصهيونية السياسية

ومع نمو التنظيم الصهيوني على الصعيد القطري تبلورت ولاءات المنظمات القطرية كل للدولة القومة التى تنتسب اليها

وهكذا كان ولاء المنظمة الصهيونية في ألمانيا للامبرياليه الالمانية كما كان ولاء المنظمة الصهيونية البريطانية للامبرياليه البريطانية ..

وتجسم هذا الامر في مجريات المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في بال بين ٢٧ تموز و ٢ آب ١٩٠٥ ، وكان المؤتمر الاول بعد وفاة هرتسل . فلقد تقرر في هذا المؤتمر التخلي عن فكرة استعمار الصهيونية أوغندا والعودة الى البرنامج الاصيل الذى حدد فلسطين هدفا للاستيطان الاستعماري الصهيوني ... وعلى الاثر انشق عنه فريق من كبار الصهيونيين البريطانيين بقيادة اسرائيل زانغويل والفوا « الاتحاد الاقليمي اليهودي » وهدفه تنمية استيطان اليهود في أي جزء ملائم من العالم ..

وكان هذا الانقسام انعكاسا للصراع بين الدول الامبريالية في المنظمة الصهيونية ..

ورفض المؤتمر العرض البريطاني لاستعمار أوغندا .. وتأكيده على العمل العملي فى فلسطين ..واختياره المصرفي الالماني دافيد ولفسون رئيسا له رجح كفة القوى الصهيونية الموالية للامبريالية الالمانية مما دفع زانغويل وعددا من الصهيونيين البريطانيين الى الانسحاب واقامة منظمة عرفت بالمنظمة الاقليمية وهدفها التفتيش عن أقاليم لاستعمارها تحت العلم البريطاني !

ولذلك كان طبيعيا فيما بعد أن يحل اسرائيل زانغويل

منظمته حين وعدت بريطانيا وعدها المعروف باسم وعد بلفور ، وبذلك دمجت المخطط الصهيوني باستراتيجيتها وألغت الفروق بين الصهيونيين البريطانيين والصهيونيين عامة على اعتبار أن الدول الامبريالية الاخرى لم تكن في الميدان آنذاك ٠

وقد كانت القوى الصهيونية الالمانية ، الحاسمة في المنظمة الصهيونية العالمية حتى بداية الحرب العالمية الاولى حين بدأت مرحلة الحسم بين المجموعتين الامبرياليتين الكبيرتين في العالم ٠

انذاك انعكس الصراع بين القوى الصهيونية الموالية للامبريالية الالمانية والقوى الصهيونية الموالية للامبريالية البريطانية في أكثر من ميدان ، ويصور حايم وايزمن هذا الامر بدون أن يعترف بظاهرة انعكاس الصراع الامبريالي في المنظمة الصهيونية حين يصف في كتابه « الخطأ والتجربة » معركة اللغة التي دارت في عشية الحرب العالمية الاولى في فلسطين ، فيكتب عن وجود شبكات تعليم ثلاث في فلسطين الاولى باشراف (اليانس ازرائيلين يونفرسال) ومقرها باريس ولغة التعليم فيها الفرنسية ، والثانية « هلفسفيرين در دويتشن يودين » ومقرها برلين ولغة التعليم في مدارسها الالمانية ، والثالثة مدرسة «افيلينا دي روتشيلد» في القدس ولغة التعليم فيها الانكليزية ٠

ويلاحظ أن منظمة « الهلفسفيرين » كانت أداة الدسائس (لذا بالضبط) الالمانية في الشرق الادنى ٠ (كتابه التجربة والخطأ اصدار شوكن نيويورك ص ١٤٢) ٠

ثم ينتقل الى معركة اللغة فيذكر نشوء « التخنيكوم » فى حيفا تحت حماية ألمانيا والمنافسة التي جرت في هيئة الهلفسفيرين

حول لغة التعليم ويصف دعاة التعليم باللغة الالمانية بيهود القيصر ويضيف انهم ألمان أكثر من الالمان ولكنه لا يعترف أن دعاة التعليم العبري كانوا من أنصار الامبريالية البريطانية (ص ١٤٣) ٠

ونجح يهود القيصر الالماني ، على حد تعبير وايزمن ، في تفضيل اللغة الالمانية بأكثرية ساحقة ٠٠ ولكن اضراب المعلمين في التخنيكوم في حيفا وتمسكهم بالعبرية حسم الامر ضد اللغة الالمانية ٠ (ص ١٤٤) ٠

وفي هذه الفترة ظهر الصراع بين الدولتين الامبرياليتين الكبيرتين بريطانيا والمانيا ، في المنظمة الصهيونية ، وكأنه خلاف بين الصهيونيين ـ السياسيين ـ والصهيونيين العمليين ومع هذا فلم يكن هذاالخلاف مجرد انعكاس الصراع الامبريالى ٠

وهنا علينا ان نتوقف عند هذا الخلاف بين الصهيونيين السياسيين والصهيونيين العمليين ٠

لم يكن هذا الخلاف حول ايديولوجية الصهيونية واهدافها بل حول اسلوب تحقيقها ٠٠ ففى حين دعا الصهيونيون السياسيون وكان خطهم مسيطرافى ايام هرتسل الى استصدار تشريع دولى بتأييد المشروع الصهيونى ٠٠ دعا الصهيونيون ـ العمليون ـ بدون الانتقاص من أهمية ـ التشريع الدولي ـ الى البدء باستيطان فلسطين استعماريا لخلق حقائق قائمة ٠٠٠

وكان دعاة الصهيونية ـ العملية ـ فى البداية صهيونيى روسيا القيصرية الذين حاولوا توجيه الهجرة من بلادهم واوروبا الشرقية الى فلسطين بدلا من الولايات المتحدة ، ولذلك لم يكن فى وسعهم الانتظار حتى تصدر الدول الكبرى وعدا باقامة الوطن القومى اليهودى اوالدولة اليهودية ٠٠ وبكلمات اخرى كان

الصهيونيون – العمليون – بدعوتهم الى استيطان فلسطين يحاولون تحويل التيار الجارف من الهجرة عن الولايات المتحدة وغيرها من الاقطار الغربية التى كانت ترحب بالهجرة الاوروبية ..

وفي هذا الاطار كانت الدعوة الى الصهيونية « العملية » ، دعوة الى انقاذ الايديولوجية الصهيونية بذاتها وصيانة فكرة الدولة اليهودية .. اذ أن الهجرة من أوروبا الشرقية الى النصف الغربي من الكرة الارضية أكدت ، لا التماسك اليهودي القومي ، بل الاندماج الانساني العام القائم على الرغبة في الهروب من الاضطهاد والتفتيش عن الحياة الكريمة .. الحياة الانسانية ..

وهكذا تبلورت الصهيونية « العملية » ، في تهجير اليهود الى فلسطين ، التي ألفت آنداك جزء من الامبراطورية العثمانية ، بدون انتظار وعد دولي باقامة الدولة اليهودية .

ولكن حين اشتد الصراع الامبريالي البريطاني – الالماني أصبح في مصلحة الامبريالية الالمانية التي تحالفت مع الامبراطورية العثمانية أن تسخر الصهيونية لمقاصدها ، فتؤيد الاستيطان الاستعمارى في فلسطين ، الواقعة فى الامبراطورية العثمانية ، في حين كانت الامبريالية البريطانية ، كما اتضح ، تريد تسخير ، هذه المنظمة ، لمقاصد الاستيطان الاستعماري في ممتلكات الامبراطورية في افريقيا ..

ومع هذا فمن الخطأ تقسيم الصهيونيين بهذه البساطة وبهذا الشكل الميكانيكي .. فقد تداخلت الاتجاهات في المراحل المختلفة وكان الانقسام في الولاء الامبريالي بين الدولتين واضحا في فترة مشروع أوغندا وحتى عشية الحرب العالمية الاولى ..

ونؤكد هذه الحقيقة لان عددا من الصهيونيين الذين كانوا

من أشد الموالين للامبريالية البريطانية ـ وبينهم وايزمن ـ انتسبوا الى الصهيونيين « العمليين » وعارضوا مشروع أوغندا بدون أن يعني ذلك تأييدا للامبريالية الالمانية .

وفي نهاية المطاف اندمجت الصهيونية « السياسية » بالصهيونية « العملية » بعد التخلي عن مشروع أوغندا وأصبح هذا الاندماج يخدم الدولة الامبريالية التي استطاعت الاستفادة منه .. وكانت الامبريالية البريطانية ..

الاستيطان الاستعماري في فلسطين

لم يؤد قرار المؤتمر الصهيوني السابع الذى تخلى عن فكرة استعمار أوغندا والتمسك بفلسطين الى وقف عملية الهجرة اليهودية الواسعة من أوروبا الى العالم الجديد ..

لقد دعت المنظمة الصهيونية الى الاستيطان في فلسطين على اعتباره تجسيما للكيان القومي وبذلت كل جهد لجذب المضطهدين من يهود أوروبا الشرقية اليها ، الا انها لم تستطع وقف التيار الجارف من أولئك اليهود المضطهدين الوافد على الولايات المتحدة .. فالنهوض الاقتصادي في العالم الجديد وشروط الاستيطان الافضل تغلبا على دعوة « البعث القومي » الصهيوني ..

وهكذا في فترة قصيرة امتدت بين ١٨٨١ و ١٩١٨ أصبح عدد اليهود فى الولايات المتحدة حوالي أربعة ملايين في حين كان عدد اليهود في فلسطين في عشية الحرب العالمية الاولى ٨٠ر٠٠٠ وهبط اثناءها الى ٦٥ الف ..

ومع هذا ، وعلى الرغم من المناقشة التي دارت بين الصهيونيين « العمليين » ، الذين يريدون الاستيطان حالا ، والصهيونيين « السياسيين » الذين أرادوا « فرمان » اعتراف من الدول قبل

البدء بالاستيطان ، فقد كان يجري استيطان بطيء ويقيم اليهـــود المهاجرون مستعمرات في مختلف أنحاء فلسطين ٠٠ وحســـب المعطيات كانت هناك ٦ مستوطنات يعمل فيها ٤٠٠ فلاح عـــلى ٢٥ ألف دونم في عام ١٨٨٢ ، زادت قليلا في الفتـــرة التي سبقـت الحـــرب العالميـــة الاولى ٠

ومن المعروف أن المنظمات الصهيونية كانت تشتري الاراضي لتقيـم عليهـــا المستعمـــرات من الاقطاعييـــن الغائبيـــن بوجه خاص ، مما سبب تصادمات بين الفلاحين العـــرب الذيـــن كانوا يستغلون تلك الاراضي والفلاحين اليهود الذين تسلموا الاراضي التياشترتها لهم منظمتهم من « صاحب » الاراضي «الشرعي» ٠٠

وهكذا ولد الاتصال الاول احتكاكا معاديا بين العرب واليهود ٠

ولم يكن الاحتكاك ناجما فقط عن تجريد الفلاحين من أراض هم عرفا أصحابها وان لم يكن قانونا ، بل عن توجه المستوطنـــين اليهود نحو الشعب العربي عامـــة ٠٠

ويصف « أحاد هعام » أحد كبار الصهيونيين في مطلع القرن العشرين تصرفات المستوطنين في (مقالته « الحقيقة من فلسطين » فكتب عام ١٨٩١) :

« اننا نفكـــر أن العرب جميعا متوحشون مثل الحيوانـــات ولا يدركون ما يجري من حولهم ٠ هذا خطأ كبير » ٠

وبعد أن ينصح المستوطنين بعدم اثارة التذمر ضدهم مهمـــا كانت الظروف وبمعاملة العرب بروح وديـــه واحترام ، كتـــب : « ولكن كيف يتصرف اخواننا في فلسطين ؟ بالعكس تماما ! كانوا اقنانا في أرض الشتات وفجأة وجدوا أنفسهم في حريـــة لا حدود لها وهذا التغيير أيقظ فيهم ميلا نحو الطغيان ٠ انهم يعاملـــون

العرب بالمعاداة والقسوة ، يجردونهم من حقوقهم ويسيئون اليهم بلا سبب وحتى يفتخرون بأعمالهم ولا يوجد بيننا من يقاوم هذا الميل المزري الخطير » .

ولم يتغير هذا التوجه .. ولعل الوصف الذى أورده آرثر كوستلر في كتابه « الوعد والوفاء » ـ فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٩ يصور النظرة التي أرشدت القيادة الصهيونية في موقفها من المواطنين العرب ..

كتب ارثر كوستلر : ان يوسف بن داوود طعن بحربة شيخ قبيلة (أبو رمان ؟) القوية التي حطت بالقرب من بيتح تكفا وأرداه قتيلا .. وكان ذلك لان قطعان القبيلة رعت في أرضي المستوطنة وسرقت القمح .. وأضاف أن يوسف بن داوود حمل هو وآخرون جثة الشيخ المطعون على ظهر فرس ودخلوا به مخيم البدو وبذلك رفعوا اسم اليهود عاليا وجعل العرب يعترفون بعجزهم عن اجلاء اليهود عن أراضيهم . (الوصف نقله كوستلر عن كتاب الياهو جولومب تاريخ الدفاع الذاتي اليهودى فى فلسطين) .

وحتى في هذا الوقت المبكر كانت القيادة الصهيونية تتعاون مع الحكم العثماني للبطش بالفلاحين العرب الذين أجلوا عن أراضيهم بعد أن باع الاقطاعيون الاراضي التي كانوا يعملون عليها ..

كتب أهرون كوهين في كتابه اسرائيل والعالم العربي وصفا دقيقا لهذه العملية وأبرز أن « مكيفي اسرائيل » والخضيرة والمطلة وغيرها أقيمت بعد اجلاء الفلاحين العرب . (النسخة الانكليزية ٥٦ـ٥٨) .

ومن هنا نرى بداية ما أصبح يعرف فيما بعد باحتلال

الارض في فلسطين .. ومن هنا نرى بداية استخدام العنف ازاء المواطنين العرب لفرض الصهيونية عليهم واجبارهم على الاستسلام ...

ولم تكن ممارسة الصهيونية في نشاطها الاستيطاني الاستعماري تقتصر على العنف حيال العرب ، واحتلال الاراضي فحسب ، بل أضافت لذلك ما عرف فيما بعد باحتلال العمل ..

وقد شرح أيديولوجية احتلال العمل س.ليفنبرغ في كتابه « اليهود في فلسطين » ، فكتب ان الصهيونية توحيد اضداد تجمع بين الشعور الطبقي والوعي القومي فالعامل يرى طبقته كجوهر الامة .. ويرى استعمار البلاد (فلسطين) ونمو الطبقة العاملة أمرا مترابطا ترابطا متبادلا » . (ص ٥٥) .

واذا كان استعمار البلاد ونمو الطبقة العاملة أمرا متداخلا فقد أصبح من الضروري أن يحتل العمال اليهود العمل .. وأن يكونوا أداة الاستعمار صناعيا وزراعيا ..

وأضاف ليفنبرغ في هذا الصدد « على العمال اليهود أن يدافعوا عن أنفسهم حيال استبدالهم بعمال عرب فلسطينيين ومن الاقطار المجاورة يتناولون أجورا رخيصة !! ص (٦٦) » .

في هذا تتجسم الانعزالية الصهيونية وتعصبها القومي الذى لم يحتمل التعاون مع الجماهير العربية .. ولهذا كان الاستيطان الاستعماري منذ البداية معاديا لا للاقطاعيين العرب كما يدعي زعماء الصهيونية زورا وبهتانا ، بل للفلاحين والعمال العرب .

في كتابه « بن غوريون ، سيرة حياة سياسية » وصف موريس أدلمان غضب بن غوريون حين زار بيتح تكفا ووجد أن عدد العمال العرب فيها في عام ١٩٠٩ ، ١٢٠٠ والعمال اليهود ٢٥ .

وكتب أن بن غوريون أكد أنه بدون حركة عمال يهودية تؤكد حقها في العمل فالمستعمرات ستزدحم بالعمال العرب ذوي الاجور الرخيصة (٣٩) . وأضاف أن بن غوريون لم يكن معاديا للفلاحين العرب (كذا) فصراعه معهم كان ناجما عن رغبته في تأكيد حقوق اليهود .. (ص) ٤٦ .

ولانه استرشد بالقومية المتعصبة ، وبالانفصال القومي ، لا بالتعاون مع العمال العرب من أجل أجور متساوية ، فقد توصل الى سياسة احتلال العمل ، وتنظيم فرق ضاربة من العمال اليهود لمطاردتهم وطردهم بالعنف .

وهكذا ظهرت الصهيونية في ممارستها في فلسطين حركة تقوم على العنف واحتلال الارض والعمل ..

ومع هذا لم تكن الحركة الصهيونية ناجحة .. فنسبة اليهود الذين كانوا يتسربون الى فلسطين كانت لا شيء بالنسبة الى الملايين التي صبت في الولايات المتحدة وأقطار أميركا اللاتينية .

والمؤتمرات الصهيونية التي عقدت بين ١٩٠٥ و ١٩١٣ عكست أزمة الفكرة الصهيونية .. لقد كانت فكرة بعيدة عن الطوائف اليهودية وعن اتجاهها نحو الاندماج مع الشعوب التي تعيش بين ظهرانيها ..

ولكن مصير الصهيونية تغير أيام الحرب العالمية الاولى .. وكان وعد بلفور بداية مرحلة جديدة في تاريخها ..



الفصل الخامس

وعد بلفور

« حين انفجرت الحرب على العالم بدا مؤكدا أن البناء الصهيوني الصغير سيتحطم وتذروه الرياح »

هكذا وصف أبراهم ليون ساخر الوضع في الحركة الصهيونية في بداية الحرب العالمية الاولى في كتابه « تاريخ اليهود » (الطبعة الخامسة ، نيويورك ـ ص ٣٦١) ٠

ولم يكن هذا المؤرخ وحيدا في تقويمه الحركة الصهيونية على هذا النحو فازيا برلين بروفسور النظرية الاجتماعية والسياسية في جامعة أوكسفورد كتب في كتاب حايم وايزمن ما يلي :

« ستبقى السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى فصلا جافا فى تاريخ الصهيونية ٠ كثيرون يئسوا ٠ وضايقت الحركة الصهيونية من الجانب الواحد سخرية اليهود الاورثوذكس التي كانت الصهيونية بالنسبة اليهم محاولة كافرة لاستباق المسيح ومن الجانب الثانى معاداة اليهود الاحرار المثقفين والناضجين فى الغرب الذين رأوا في الصهيونية محاولة خطرة لاشغال اليهود بشوفينية تسعر اصطناعيا ويمكن أن تسوء علاقاتهم مع زملائهم المواطنين من العقائد (الدينية) الاخرى »

(حايم وايزمن ـ حياته بأقلام عديدة ـ حرره ماير ويزجال



زفة علم النبي موسى احدى الاحتفالات الشعبية في القدس
كانت تتحول الى تظاهرة ضخمة ضد سياسة بريطانيا الاستعمارية



لجنة التحقيق الدولية في حوادث البراق



وجون كارميخائيل ـ لندن ١٩٦٢ ص ٢٩) ٠٠

لقد افتخر زملاء هرتسل وتلامذته بأن انجاز الزعيم الصهيوني تلخص في أنه « جعل الصهيونية عاملا سياسيا تقر به دول العالم (الكبرى) » (كتاب ماكس نوردو الى شعبه ـ مقدمة بقلم ب٠ نتنياهو ١٩٤١ ص ٥٢) وتبجح ماكس نوردو زميل هرتسل الاقرب في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني السادس (بال ـ ٢٤ آب ١٩٠٣) بأن أربع دول هي أعظمها وتسيطر على الكرة الارضية أعربت عن عطفها ان لم يكن على الشعب اليهودي فعلى الاقل على الحركة الصهيونية ، الامبراطورية الالمانية أعربت عن عطفها ٠٠ بريطانيا قرنت عطفها بالاستعداد العملي لتساعد الصهيونية ٠٠ الحكومة الروسية (القيصرية) أعلنت خططها لمساعدتنا ٠٠ والولايات المتحدة اتخذت خطوات دبلوماسية توحي بالامل بأنها ستكون عطوفة حين يحين الوقت (المصدر ذاته ص ١٤٢) ٠

ولكن في عشية الحرب العالمية الاولى انشغلت هذه الدول الامبريالية التي تفاخر نوردو « بعطفها » على الصهيونية (وأكد أن عطفها لم يكن على اليهود) ، بمصالحها التوسعية ولم تر مكانا للصهيونية في اطار تلك المصالح ٠٠

ولكن أزمة الصهيونية لم تنجم عن انشغال الدول الامبريالية عنها فحسب بل نجمت عن انشغال جماهير الطوائف اليهودية عنها أيضا ٠٠ وفى هذا الشأن يمكن قبول تقويم « بن هلبرن » الذى كتب : في العقد الذى سبق الحرب العالمية الاولى كانت أيديولوجيات يهودية مختلفة بحلولها للقضية اليهودية ، كانت هناك الصهيونية والاقليمية والتحرر المدني والدعوة للفوز

بحقوق الاقليات في التركز الاقليمي واللغة والثقافة · (كتابه فكرة الدولة اليهودية ص ١٥٧) ·

ومع أن هلبرن لا يحدد مكانة الصهيونية في هذه الدوامة من الايديولوجيات الا أن الوقائع تؤكد انها كانت أضعفها ·· وفي هذا الصدد يعترف هوراس ماير كالين في كتابه الصهيونية والسياسة الدولية : أن الصهيونية في الولايات المتحدة خرجت من تفاهتها بهبوب الحرب عام ١٩١٤ فقط وحتى ذلك الوقت كان أنصار المنظمة الصهيونية حفنة · (ص ١٣١) ·

المنظمة الصهيونية تنقسم الى قوميات

أشرنا سابقا الى أن المنظمة الصهيونية كانت مسرحا للتناقضات الامبريالية وخاصة بين الدولتين الامبرياليتين بريطانيا وألمانيا ·· ولاحظنا أن الصهيونيين جوهريا انقسموا بين هذين المعسكرين ·· فالصهيونيون الالمان ناصروا امبراطوريتهم النامية ··· والصهيونيون البريطانيون ناصروا امبراطوريتهم الوطيدة ··

وفي المرحلة التي سبقت صياغة برنامج المنظمة الصهيونية حاول الصهيونيون الالمان ادخال اطروحتهم القومية الاتية الى البرنامج :

« مرتبطين سوية بانحدارهم وتاريخهم المشترك يؤلف يهود كافة الاقطار جماعة قومية · وهذا الاعتقاد لا يناقض بحال من الاحوال مشاعرهم الوطنية النشيطة وقيامهم بواجبات المواطنة وخاصة تلك التي يشعر بها اليهود الالمان حيال وطنهم الام ألمانيا » (فكرة الدولة اليهودية ـ بن هلبرن ص ١٣٩) ·

وحايم وايزمن في العقد الذى سبق الحرب لاحظ أيضا أن « الصهيونية فى انكلترا عكست الوضع المتأزم العام في الحركة

في آسوأ حال . ففي هذا الوقت كانت (الصهيونية في انكلترا) تكتسب نكهة تميل الى أن تتحول الى وطنيـــة بريطانية دنيا ــ وطنيـــة بريطانية قائمة على التصاق وهي لقطر خيالي لم يره أحد ولم يعرفه أحـــد » (ريتشـــارد كروسمـــان في كتابـــه : أمة بعثت ص ٢٧ ــ ٢٨) .

ولذلك ما أن وقعت الحـــرب العالميـــة الاولى في عـــام ١٩١٤ بين كتلتين من الدول الامبريالية : بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية من ناحية وألمانيا والنمسا ــ المجر وتركيا من ناحية أخرى حتى اشتد التقاطب القومي في المنظمة الصهيونية وتعمق الصراع الاجتماعي في الطوائف اليهودية توافقا مع موضع اليهود الطبقي ..

وهكذا فالى جانب الصراع الطبقي في الاقطـار الاوروبيـــة الكبرى خلال الحرب واتخاذ اليهود مواقعهم حسب انتمائهم الطبقي سار الصهيونيون مع أقطارهم .. ولوحوا بأعلامهم القومية حتـــى حين كانت عواطفهـــم الطائفيـــة تتعـــارض مع هذا المطمح أو ذاك من سياسة حكوماتهم ..

وفي هذا الصدد كتب بن هلبرن أن يهود أمريكا (ويقصـــد الطبقة المتمولة) أقنعوا حكومتهم بالغاء اتفاقها التجاري مع روسيا القيصرية بسبب تمييزها ضد اليهود الذين يحملـــون جنسيـــة امريكية ، وأن يهود بريطانيا وفرنسا (ويقصد أولئك الذين ينتمون الى الطبقة الحاكمة) كانوا يرغبون في الوقوف مثل هـــذا الموقف الا أنهم وجدوا أنفسهم يتعاونون في حملـــة استنفار المشاعـــر القومية لحـــرب تقف فيها روسيا القيصريـــة الى جانب بريطانيا وفرنسا .. وأضاف : أن مهمة يهود برلين (ومن جديـــد يقصـــد أبناء الطبقـــة العليا) كانت أسهـــل .. (كتابه فكرة الدولـــة

اليهودية ص ١٥٨ ـ ١٥٩) ٠

ولذلك كان من الطبيعي أن تنقسم المنظمة الصهيونية العالمية على أساس انتماء قادتها القومي ٠

لقد كان مقر المنظمة في وقت انـدلاع الحرب العالميـة الاولى في برلين ٠ وحاول قادتها ، وجلهم من الصهيونيين الموالين لالمانيا ، أن يسخروها خدمة لاغراض الامبريالية الالمانية ، وفـي سبيل ذلك نقلوا المكاتب رسميا من برلين الى عاصمة الدنمـارك كوبنهاغن المحايدة ٠٠ ولكن كما لاحظ بن هلبرن : بقي مقر المنظمة الصهيونية في كوبنهاغن على صلـة مع ألمانيا أكثر مما كان مـع الحلفاء ٠٠ وفسر هذا التوجه فكتب : ثم ان فلسطين حتى قبـل نهاية الحرب بقليل كانت تحت سيطرة تركيا ولم يكـن ثابتا انها لن تبقى كذلك حين تنتهي الحرب ولم يكن الصهيونيون في برلين واستنبول يستطيعون العمل على فرضية أخرى ٠٠ وأضـاف : والصهيونيون في أقطار الدول الحليفة لم يكن في مقدورهم القيام بمفاوضات مع الحلفاء الا على أساس استعدادهم على نسف المنظمـة الدولية ٠٠ وفعلا تحطمت المنظمة ٠٠ وعمل وايزمن والصهيونيـون الامريكيون في عزلة عن الصهيونيين في كوبنهاغن ودول المركـز (ألمانيا والنمسا ـ المجر وتركيا) (كتابـه فكـرة الدولـة اليهودية ص ١٦٣) ٠

وجدير بالملاحظة هنا أن ماكس نوردو الذى أصبح يبالغ بعد الحـرب العالميـة الاولى بالود نحو الامبريالية البريطانية دعا في فترة الحرب العالمية الاولى الى تجميـد عمل الصهيونيين والترقب دون التدخـل في أي شيء والاكتفاء بنشاط بنك الاستعمـار اليهودي ٠ (ثائر وسياسي ـ قصة فلاديمير جابوتنسكي ـ بقلـم

جوزيف ب . شختمان ـ نيويورك ١٩٥٦ ص ٢٠٩)

أما مجلة الصهيونيين الامريكيين : « المكابيين » في السنة الاولى من الحرب فقد اكتشفت ذرائع مقنعة لدخول تركيا الى جانب دول المركز وبررت انتهاج السلطات التركية سياسة ابعاد اليهود من فلسطين بوصفهم رعايا دول أجنبية معادية (المصدر ذاته ص ٢١١ ـ ٢١٢)

والثابت أن جناح الصهيونيين الموالين لدول المركز كان قويا .. ومن مؤيدي التعاون مع تركيا دافيد بنغوريون رئيس وزراء اسرائيل السابق ، وبن زفي ، الرئيس الراحل .. لقد أخطأ ، على حد تعبير ميخائيل بار زوهر في كتابه « النبي المسلح » : تاريخ حياة بن غوريون ـ لندن ١٩٦١ ص ٢٧ حين طالبا بدمج يهود فلسطين في الامبراطورية التركية .. وعارضا سياسة وايزمن وجابوتنسكي القائمة على التحالف مع الحلفاء باعتبار انها تضر بيهود فلسطين . (المصدر ذاته ص ٢٨) .

وهكذا في حين علق حايم وايزمن وزملاؤه المستقبل الصهيوني على انتصار الحلفاء اعتبر الصهيونيون الالمان وبعض النازلين في فلسطين أن الواجب يدعو الى الاندماج بالامبراطورية التركية والتعاون مع جبهة المركز وفي قيادتها الامبراطورية الالمانية . (فكرة الدولة اليهودية ـ بن هلبرن ص ١٦٥)

الصراع الانجلو ـ فرنسي داخل الحلف

لم يكن الصراع جديدا بين الدول الامبريالية على ما كان يطلق عليه آنذاك تركة الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية ـ التركية) .. فالصراع احتدم في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين واستطاعت بعض هذه الدول أن تقضم هذا الجزء

أو ذاك ولكن التركة كما بقيت كانت أصعب مـــن أن تتفـــق على توزيعها الدول الامبريالية قبل الحرب العالمية الاولى ٠٠

بل يكاد يتفق المؤرخون أن بقاء الامبراطورية التركيـــة أو الرجل المريض حتى الحرب العالمية الاولى كان بفضل التـــوازن الدقيق بين الدول الامبرياليـــة واتفاقها على صيانـــة تكامـــل الامبراطوريـــة ٠٠

ولكن نشوب الحـــرب أزال وضع التـــوازن الذى جمـــد الامبراطورية المتداعية وأصبحت تركة الرجل المريض بين الاسباب التي يدور حولها القتال بين الكتلتين الامبرياليتين المتحاربتين ٠

وكان معروفا قبـــل الحـــرب العالمية الاولى أن لكل مـــن الدول الحليفـــة : روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا مطامـــع في هذه التركة تصطـــدم بعضها ببعض ولذلك لم يكن من الممكن ان تؤدي وحدة المصالح فى محاربـــة دول المركز ــ الامبراطوريات في ألمانيا والنمسا ــ المجر وتركيا ــ الى الغاء تصادم المطامـــع ، بـــل الى محاولـــة تسويتها بشكل من الاشكـــال وبطريقـــة لا تمـــزق الحلف بينها ٠

وبعـــد مفاوضات دبلوماسية دارت رحاها ــ اذ انها مـــن نوع الحرب الباطنة ــ في لندن وباريس وبتروغـــراد تم الاتفـــاق بين الدول الامبريالية الثلاث على تقسيم التركه بحيث تستولـــي كل دولة على القسم الاهم مما كانت تتوق اليـــه ٠٠

وعرف الاتفاق الانجلو ــ فرنسي ــ الروسي (الـــذي تـــم الوصول اليه بين نيسان وأيار ١٩١٦) باتفاق سايكس بيكو (١)

---

١ ــ نسبة للدبلوماسيين الاساسيين الذين توصلا اليه جورج بيكو الدبلوماسي الفرنسي وزميله البريطاني مارك سايكس ٠

وكان على صورة تبادل وثائق بين وزارات خارجية الدول الثلاث ٠

وبموجب الاتفاق تحددت حصة روسيا بالقسطنطينية (استنبول) مع عدد من الاميال الى الداخل على ضفتي البوسفور وبقطعة كبيرة من شرق الاناضول تضم تقريبا كامل الولايات الاربع المجاورة للحدود الروسية ـ التركية في حين غنمت فرنسا لنفسها القسم الاكبر من سوريا الطبيعية مع جزء كبير من جنوب الاناضول ومنطقة الموصل في العراق ٠ وتألفت حصة بريطانيا من منطقة امتدت من طرف سوريا الجنوبية حتى العراق حيث تتوسع بشكل مروحة لتضم بغداد والبصرة وجميع البلاد الواقعة بين خليج فارس (الخليج العربى) والمنطقة الفرنسية (٢) ٠٠ وتقرر أن تقع المنطقة التي اقتطعت فيما بعد من جنوب سوريا وعرفت بفلسطين تحت ادارة دولية يتم الاتفاق على ملامحها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية ٠ ولكن الاتفاق نص على منح بريطانيا في هذه المنطقة مينائي حيفا وعكا على أن يكون ميناء حيفا ميناء حرا تستخدمه فرنسا التي منحت بريطانيا بالمقابل استخدام ميناء الاسكندرونه ، الذى كان سيقع في حوزتها ، ميناء حرا ٠٠

ولذلك كان من حق لويد جورج الذى رأس الوزارة البريطانية فى الفترة الاخيرة من الحرب وبعدها أن يكتب في كتابه « الحقيقة حول معاهدات الصلح » (لندن ١٩٣٨ المجلد الثاني ص ١١١٥) : ان نوايا الدول الحليفة بشأن فلسطين حتى عام ١٩١٦ جسدها اتفاق سايكس ـ بيكو بموجبه « كانت البلاد ستتشوه

---

٢ ـ المعلومات عن الاتفاق من النصوص التي اوردها جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب الطبعتين العربيه والانكليزيه ٠

وتمزق الى أقسام بحيث لا تبقى هناك فلسطين » ٠

وجدير بالملاحظة أن الاتفاق تم لا في عزلة عن نشاط الصهيونية فى بريطانيا بل على الرغم منه في هذه الفترة ٠

فما أن وضعت الحرب تركة الامبراطورية التركية على جدول الاعمال حتى تقدم هربرت صموئيل الذى اشترك في الوزراة البريطانية في هذه الفترة وكان أول مندوب سام بريطاني في فلسطين فيما بعد بمشروع يقوم على ضم فلسطين الى الامبراطورية البريطانية وزرع ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي فيها وبذلك يتحقق حلف بين الفريقين يخدم مصالح بريطانيا ٠٠

وفي هذا الوقت بالذات في نهاية عام ١٩١٤ ومطلع عام ١٩١٥ كان حاييم وايزمن يكتب لاحد أساطين الامبرياليين س٠ب٠ سكوت محرر مانشستر غارديان : « في حالة وقوع فلسطين في دائرة النفوذ البريطاني وفي حالة تشجيع بريطانيا استيطان اليهود هناك ٠٠ فستستطيع خلال عشرين أو ثلاثين سنة من نقل مليون يهودي أو أكثر اليها فيطورون حارسا فعال يحمي قناة السويس » (كتابه التجربة والخطأ طبعة نيويورك شوكن ١٩٦٦ ص ١٤٩) ٠

وهكذا فمع أن العامل الصهيوني لم يغب عن أساطين الامبريالية البريطانية فقد اختاروا بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٦ اهماله ٠

واذا كان ادراك أهمية العامل الصهيوني في استراتيجية الامبريالية البريطانية لم يغب ادراك أهمية هذا العامل في المنافسة بين بريطانيا وفرنسا ٠٠

فقد كتب رئيس وزراء بريطانيا هربرت اسكويث في كتابه

« ذكريات وتأملات ١٨٥٢ ـ ١٩٢٨ » تحت التاريخين ٢٨ كانـــون الثاني و ١٣ اذار ١٩١٥ يصف بعض ملامح مشروع هربرتصموئيل ولاحظ أن « الغريب في الامر أن يكون نصير المشروع الوحيــد الاخر (في الوزارة) لويد جورج ولا حاجـــة بي للقـــول أنـــه (لويد جورج) لا يهتم بالمرة باليهود ، لا بماهيتهم ولا بمستقبلهم ولكنه يعتقد أنه من انتهاك الحرمـــة السماح بانتقال الاماكـــن المقدسة (فى فلسطين) الى حوزة أو حمايــــة « فرنسا اللاادريــة الملحدة » » (الجزء ٢ ص ٧١ و ٧٨) . لقد تعلم الامبرياليـــون منذ وقت طويل تغليف مطامعهم بغلافات الحماس الديني والقلـــق على مصيره .. فلويد جورج ، وفي عهد رياسته الوزارة صـــدر وعد بلفور ، كان في هذا الوقت المبكر من الحـــرب يرى فائـــدة العامـــل الصهيوني في ضم فلسطين للامبراطوريـــة البريطانيـــة بشكل من الاشكـــال .. وفي سبيـــل ذلك كان مستعـــدا أن « يمنح الاماكن المقدسة لليهود » حمايـــة لهـــا مـــن « فرنســـا اللاادرية الملحـــدة » !!

دخـول العامل الصهيوني الميـــدان

بحق كتب ابرام ليون ساخر أن الاتفاقات زمن الحرب كانت تتغير بسرعة ، وكانت التعديلات ترافـــق كـــل حدث حربي .. والوعود لم تكن سوى حركات في اللعبة الدبلوماسية .. فكل قطـر كان منهمكا بمناورات معقدة من وراء ظهر القطر الاخر في محاولـــة لضمان مصالحه السياسية والاقتصادية ، ووســـط هذه المؤامرات والمفاوضات أعلنت بريطانيا تأييدها للصهيونية وتحول فجـأة الحلم الصهيوني الى حقيقة .. (كتابه تاريخ اليهود ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦) .

والسؤال ما هي العوامل التي جعلت بريطانيا تعلن تأييدها

للصهيونية في أواخر عام ١٩١٧ ؟؟

في كتابه « مفترق الطرق الى اسرائيل » (لندن ١٩٦٥) استشهد كريستوفر سايكس ـ ابن مارك سايكس ـ بالكاتب الصهيوني ليونارد شتين ، الذى أكب سنوات على دراسة أصول وعد بلفور ، ليؤكد الاستنتاج : أحد لا يعرف بالضبط دوافع الوعد فهناك أسباب عديدة عزيت اليه بحيث لم يعد ممكنا الايمان بأي واحد منهما منفردا ·· (ص ١٦) ·

ان بعض النظريات السخيفة حول دوافع بريطانيا لاعلان الوعد باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ساعدت على تشويه الرؤيا والتشكيك بمحركات الوعد الحقيقية ··

ومن هذه النظريات أن بريطانيا أصدرت الوعد اعترافا منها بخدمات البحاثة حاييم وايزمن في اكتشاف الاسيتون الاصطناعي (الحيوي جدا) في أدق مراحل الحرب ·

وتروي الاسطورة أن لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك سأل وايزمن : بماذا يستطيع أن يكافئه فأجابه وايزمن · اصنع شيئا لشعبي ·· « فتأثر » أساطين الامبراطورية وأصدروا الوعد · ، (حتى البحاثة المعاصر ميخائيل بار زوهر يقبل هذا التعليل في كتابه « النبي المسلح » حياة بن غوريون ص ٣٣) ··

وهناك النظرية الانسانية التي روجها صاحب الوعد نفسه اللورد بلفور الذى زعم أن اليهود تعرضوا في أوروبا للطغيان والتعذيب ولذلك كان الوعد تكفيرا عن الجرائم التي ارتكبتها أوروبا بحقهم · (خطابه في مجلس اللوردات البريطاني في ٢١ حزيران ١٩٢٢ كما أورده كريستوفر سايكس في كتابه « مفترق الطرق الى اسرائيل » ص ١٨ ـ ١٩) ·

ولكن هناك معطيات عديدة توضح الدوافع الجوهرية التي جعلت بريطانيا تصدر الوعد وتتمسك به ..

وبحق لاحظ ابرام ليون ساخر أن بريطانيا كانت تشطب الوعد بسرعة لو استدعت مصالحها اعادة النظر في سياستها .. وأضاف أن المناداة بفيصل ملكا على سوريا عام ١٩٢٠ (وهذا أعرب عن نهوض كبير في حركة التحرر القومي العربية في سوريا الطبيعية) جعلت وعد بلفور حقيقة (كتابه تاريخ اليهود ص ٣٦٩) ..

ولذلك فمن المؤكد أن بريطانيا حين أصدرت الوعد أخذت في عين الاعتبار ممكنات استخدام الصهيونية في مواجهة حركة التحرر القومي العربية التي كانت قد بدأت تتبلور بوضوح وتتحول الى حركة ذات جذور بين الجماهير العربية في سوريا الطبيعية والعراق وغيرها ..

ان مصالح بريطانية امبريالية عميقة جعلت بريطانيا تصدر الوعد وتتمسك به ..

وفي معرض بحثه لدوافع بريطانيا كتب كريستوفر سايكس يكشف بعض الملابسات التي رافقت الوعد ما يلي :

« في وقت ما بين أواخر عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧ ساد الاعتقاد أن وعدا مؤيدا للصهيونية سيحول الرأي العام اليهودي الامريكي الى جانب الحلفاء ويؤثر على الرأي الاميركي العام وكان هذا الاعتقاد حافزا كبيرا للساسة البريطان ، ولكن هذا الاعتقاد لم يبق منه سوى القليل ان بقي منه شيء على الاطلاق عند المرحلة الاخيرة من المفاوضات (لاصدار الوعد أ٠ت) ٠ فيبدو انه نسي ٠ وفي وقت اخر كان هناك خوف كبير من أن يستبق

الالمان الحلف بوعد منهم بشأن وطن قومي لليهود · وفي المرحلة الاخيرة قبل تشرين الثاني ١٩١٧ ساد الاعتقاد أن تأييدا بريطانيا علنيا للصهيونية يبعد اليهود الروس عن الحزب البولشفي ويضمن أن تبقى الثورة لا معتدلة فحسب ، بل حليفا محاربا الى جانب بريطانيا وفرنسا » ·· وأضاف انها كلها اندفاعات عابرة من المؤكد أن تكون أثرت على الحدث الا انها لا تفسره ·· (كتابه « مفترق الطرق الى اسرائيل » ص ٢٧) ·

وأبرز لويد جورج في كتابه « الحقيقة حول معاهدات الصلح » بعض هذه العوامل ·· فأكد مثلا أن بعض ما حفز بريطانيا الى اصدار الوعد المعلومات بأن قيادة أركان الجيش الالمانية في ١٩١٦ ألحت على الاتراك أن يلبوا مطالب الصهيونيين بشأن فلسطين (ص ١١١٦) · وأن الحكومة الالمانية كانت في أيلول ١٩١٧ تبذل مساعي جديدة للاستيلاء على الحركة الصهيونية (ص ١١٢١) · واستطرد أن جمعية يهودية ألمانية تأسست في كانون الثاني ١٩١٨ بعد وعد بلفور وأن الوزير التركي طلعت ، بايعاز من الالمان ، وعدها وعدا واهيا بتحقيق رغبات اليهود العادلة في فلسطين (ص ١١٤١) ·

ويؤكد كثيرون وبينهم حاييم وايزمن نفسه أن كسب يهود أميركا ليبذلوا جهودا في اقناع الولايات المتحدة بالوقوف الى جانب الحلفاء كان عاملا جوهريا في اصدار الوعد ··

وبدون التقليل من وزن هذا الاعتبار فهناك ما يوحي بأن الوضع كان على العكس ·· فقيادة الصهيونية البريطانية استنجدت بالصهيونيين الامريكيين ليقنعوا حكومتهم بالضغط على بريطانيا لتصدر تصريح بلفور ··

ثم ان توزيع ألوف نسخ الوعد بالطائرات على يهود روسيا القيصرية وبولونيا وألمانيا والنمسا ــ المجر (٣) يوحي بأن أصحاب الوعد اعتقدوا أنهم بذلك يكسبون تأييد اليهود ــ في روسيا ضد البلاشفة ·· وفي دول المركز ضد حكوماتهم ··

ولعل مثل هذه الاعتبارات هي التي قصدها لويد جورج حين كتب في « الحقيقة حول معاهدات الصلح » : « ان أسباب دبلوماسية وعسكرية ملحة حققت اجماعا (اجماع الوزراء ــ أ·ت) حول الموضوع (موضوع الوعد أ·ت) · وحتى السيد مونتاجي (وزير الهند اليهودي الذى عارض الوعد وكان من أشد اضداد الصهيونية أ·ت) استسلم وقبل بالتصريح (تصريح بلفور) بوصفه ضرورة عسكرية » ·· (ص ١١٣٤) ·

ولكن العامل المقرر في نهاية المطاف كان مصلحة الامبريالية البريطانية لا الانية فقط ، بل البعيدة المدى ··

وهذا ما أعربت عنه الصحافة البريطانية البرجوازية في الفترة التى سبقت الوعد ·· وأعقبته ·· فتحت عنوان « سياسة بريطانية في فلسطين ــ ضرورة عبرية بريطانية » كتبت « ساندي كرونيكل » :

« ولا يوجد جنس اخر فى العالم كله يستطيع أن يقوم بهذه الخدمات لنا غير اليهود أنفسهم ·· ولدينا في الحركة الصهيونية القوة المحركة التي ستجعل امتداد الامبراطورية البريطانية الى فلسطين ــ في غير هذه الحالة ضرورة غير مسرة ــ مصدر كبرياء وركن قوة ·· »

وقبل هذا الكلام دعت الصحف البريطانية الاخرى حكومتها

---

٣ ــ الحقيقة حول معاهدات الصلح ص ــ ١١٤٠ ·

الى اعادة فلسطين الى اليهود خوفا من أن تقع في أيـــدي مؤذيـــة (للامبراطورية البريطانيـة) ..

وكتبت « ايفننغ ستاندرد » : لقد أوضحت المصالح البريطانية منذ وقت طويـــل ضرورة قيام دولة حاجـــزة بين مصر وحكومـــة تركية معادية ، والصهيونية تزودنا بالحل »

وتجرأت الصحف البريطانية بعد صدور الوعد في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ فكتبت على سبيل المثال جلاسكو هيرالد تؤكـــد انه سيكون للوعد أثر سياسي مباشر في أميركا وروسيا وبولونيا والمجر ثم أضافت « ومن وجهة النظر البريطانية فالدفـــاع عن قناة السويس يتم على أفضـــل وجه باقامـــة شعب في فلسطـــين ملتصـــق بنا ، واعادة اليهود الـــى فلسطين تحت الرعايـــة البريطانية يضمن ذلك » ..

وفي هذا الصدد كتب نورمان بنتويش في كتابه « اسرائيل الناهضة » (لندن ١٩٦٠) : لقد ربط حاييم وايزمن عجلة الصهيونية بنجم انكلترا معتقدا أن بناء فلسطين يجب أن يكون شراكة بريطانية يهودية (ص ٢٩) .

وشرح مدلول ربط عجلة الصهيونية بنجم انكلتـــرا مـــاكس نوردو في خطاب ألقاه في احتفال جرى في ألبرت هول عام ١٩١٩ بحضور كبار الامبرياليين لويد جورج واللورد بلفور .. آنذاك كان ماكس نوردو قد تخلص من ولائه لالمانيا المهزومة وأصبح يهتـــدي بالنجم البريطاني .. قال :

« نعرف (أيها السادة أ.ت) ما تتوقعونه منا . تريدون أن نكون حرس قناة السويس . علينا أن نكون حراس طريقكـــم الى الهند عبر الشرق الادنى . نحن على استعداد لان نقوم بهذه الخدمة

العسكرية ولكن من الضروري تمكيننا من أن نصبح قوة حتى نقدر على القيام بهذه المهمة » ٠٠ (« ماركس نوردو الى شعبه » ص ٥٧) ٠

ولم تغب أهمية العامل الصهيوني فى التنافس الانجلو ـ فرنسي على كريستوفر سايكس فهو يعترف بأن المسؤولين البريطانيين في الحكومة البريطانية رأوا في الصهيونية في فلسطين فرصة رائعة لمواجهة أي توطيد فرنسي في سوريا ٠ (كتابه مفترق الطريق الى اسرائيل ص ٢٠) ٠ وهذا العامل اكتسب أهمية خاصة بعد الحرب حين أصبح الحلفاء في وضع يمكنهم من تحقيق اتفاقات توزيع الاسلاب أو تركة الامبراطورية التركية المنهارة ٠

ولذلك من الممكن أن نلخص دوافع وعد بلفور فنقسمها الى جوهري وثانوي ٠٠ آني وبعيد المدى ٠٠

فالجوهري كان رؤية ممكنات البرنامج الصهيوني في توطيد مواقع الامبريالية في الشرق الادنى ٠٠ وهذا يعني صد الحركة القومية العربية واجهاضها اذا أمكن ٠٠

وهذا الهدف ، وهو هدف بعيد المدى ، قرر أيضا صيغة وعد بلفور ٠٠

أما الثانوي الآني فكان تفويت الفرصة على الامبريالية الالمانية لكسب الصهيونية ٠٠ والاستفادة من تأييد من يمكن جذبهم من اليهود لقضية الحلفاء وخاصة في الولايات المتحدة ٠٠

أما مسألة استخدام الصهيونية في المنافسة بين بريطانيا وفرنسا فقد كان ثانويا حين صدر الوعد ، ولكنه تحول في فترة الصراع بعد الحرب الى عامل جوهري بعيد الاثر ٠٠٠

ولا جدال فى ان استخدام الصهيونية كما ذكر كريستوفر سايكس ، لابعاد اليهود الروس عن البلاشفة كان عاملا ثانويا ‥ ولكن أهميته ازدادت باشتداد الحاجة الى مقاومة الشيوعية والاتحاد السوفياتي عامة ‥

وتتأكد المصلحة العليا البريطانية ـ بوصفها العامل الحاسم في الوعد ـ من صيغته ‥ وبحق لاحظ « أحد هعام » المفكر الصهيوني الكبير أن الوزارة البريطانية صاغت وعدها فى نهاية المطاف بدون اهتمام بمقترحات الصهيونيين أو اضداد الصهيونية ٠

فقد جاء في هذا الوعد الذى أتخذ صورة رسالة من اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الى اللورد روتشيلد : « ان حكومة جلالته لتنظر بعين الارتياح الى انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودى وستبذل أطيب مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ٠ وليكن معلوما انه لن يعمل شيء من شأنه أن يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أي بلد اخر والمركز السياسي الذى حصلوا عليه » ٠

أما الصهيونية البريطانية فقد كانت تطالب بأن يأخذ بيان الحكومة البريطانية شكل اعتراف بحق اليهود التاريخي في فلسطين وبفلسطين وطنا قوميا لليهود (لا وطنا قوميا يهوديا في فلسطين) ‥ كذلك لم تشمل المقترحات الصهيونية اعترافا بحقوق « غير اليهود » أو بحقوق اليهود في أي بلد اخر الامر الذي أصر عليه غير الصهيونيين من اليهود ‥



الدكتور ماغنس في احتفال وضع الحجر الاساس للجامعة العبرية بالقدس



كان التدرب على القتال يجري «بالسر» من قبل الهجانا




ومع أن الوقت كان مبكرا ، فقد ظهرت في صيغة الوعـــد نوايا الامبريالية البريطانية على محاولـــة مجابهة اليهود « بغيـــر اليهود » ! أي العرب ٠٠ واقامة حكم فرق تســـد ٠٠



الفصل السادس

الحركة القومية العربية حيال وعد بلفور

يزعم الايديولوجيون الصهيونيون الان ، أن الحركة الصهيونية باعتبارها « حركة البعث القومي اليهودية » استنفرت الحركة القومية العربية الفلسطينية .. وكتب أحدهم على سبيل المثال أن عملية خلق الامة اليهودية في اسرائيل (فلسطين) أسهمت في خلق « الامة العربية الفلسطينية » (١) ..

أما غير الصهيونيين فيجدون صعوبة في تحديد مسيرة التطور التي أدت الى ظهور حركة قومية عربية في فلسطين .. ولهذا فلا بد من توضيح الامر لادراك طبيعة مقاومة الصهيونية أولا .. وتقويم الموقف العربي من وعد بلفور ثانيا ..

ولسنا في حاجة الى عناء كبير لنقرر أن فلسطين ، في مطلع القرن العشرين حين ظهرت الصهيونية ، لم تكن وحدة جغرافية مستقلة أو كيانا سياسيا منفردا .. بل كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية وألفت مع أقاليم أخرى سوريا الطبيعية (٢) .

ولذلك لم يكن من الضروري أن تكون فيها حركة عربية قومية مستقلة فالطبيعي أن تشملها الحركة العربية الواحدة .

---

١ — اهداف اسرائيلية جديدة لاسرائيل اريه الياف ص ٧

٢ — نقصد ما يعرف الان بسوريا ولبنان والاردن وفيما مضى فلسطين .

وتعود بوادر الحركة القومية العربية في الشرق العربي الى القرن التاسع عشر ، الا أن جذور الحركة القومية العربية المعاصرة نمت فى سوريا الطبيعية مع مطلع القرن العشرين وتجسمت في جمعيات ونواد تألفت في الاستانة عاصمة الامبراطورية العثمانية آنذاك ٠٠

ولعل أجمل تعبير عن الوعي القومي العربي الباكر جاء في أهداف المنتدى الادبى الذى تأسس في عام ١٩١١ وعمل على حد تعبير رئيسه عبد الكريم الخليلي من أجل توثيق عرى الاخاء بين العرب على اختلاف أجناسهم وأديانهم وعناصرهم وطوائفهم حتى لا يذكر الواحد منهم في السياسة والوطنية غير عربيته الشريفة (٣) ٠

وتؤكد الحقائق التاريخية كلها على أن الحركة القومية العربية ، في المشرق العربي ، في عهد الامبراطورية العثمانية ، تجاوزت الاقليمية التي ظهرت فيما بعد ٠

وهكذا ـ على سبيل المثال ـ انتسب قادة جمعية العربية الفتاة، التي تأسست في باريس عام ١٩١١ ، للعمل من أجل النهوض بالامة العربية الى مصاف الامم الحية ، الى مختلف الاقاليم العربية المشرقية ، التي قسمتها الدول الامبريالية فيما بعد الى أقطار منفردة بغية السيطرة عليها (٤) ٠٠

ولا تعرف هذه الفترة حركة عربية ضيقة كانت أم واسعة

---

٣ ـ العرب والترك في عهد الدستور العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ توفيق علي البرو ص ٣١٦ ٠

٤ ـ كان قادة هذه الجمعية وقت تأسيسها محمد رستم حيدر (لبنان) عوني عبد الهادي (فلسطين) جميل مردم (سوريا) محمد المحمصاني (لبنان) رفيق التميمي (فلسطين) توفيق السويدي (العراق) ٠٠

تقيدت بحدود أقليمية .. فالمعركة في الولايات العربية العثمانية كانت من أجل حقوق العرب عامة ـ وكما جاء في نداء بعض القوميين العرب في « الاهرام » في ٨ـ٨ـ١٩١٢ ـ كان هدف الكفاح أن تعترف السلطنة العثمانية بالعرب أمة حية ذات حقوق قومية في لغتها وادارة أقاليمها ..

وانعكس كل هذا قبل الحرب العالميةـ الاولى في المؤتمر العربي الاول الذى عقد في باريس في حزيران عام ١٩١٣ من أجل بحث الحياة الوطنية ، ومناهضة الاحتلال ، وحقوق العرب فى المملكة العثمانية ، وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية .

وأوضح جدول أعمال المؤتمر ثلاث حقائق :

* ان الحركة القومية العربية قد استيقظت على أخطار الامبريالية الاوروبية التي كانت قد تقاسمت عددا من الاقطار العربية : الجزائر وتونس ومصر وطرابلس الغرب « ليبيا » وبدأت تتطلع الى الولايات العربية العثمانية (٥) .

* ولذلك فقد كانت ترى طريقها فى البقاء في اطار الامبراطورية العثمانية ، لا في الخروج منها ، اعتقادا من قادتها أن ذلك يردع الامبرياليين الاوروبيين ويردهم عن الولايات العربية العثمانية .

* ومن أجل تحقيق مطامحها القومية كانت ترى ضرورة الاصلاح على أساس اللامركزية لان ذلك يجمع بين الامرين : البقاء في الامبراطورية العثمانية ، اطار الدفاع ، ازاء الهجوم الامبريالي .. وتحقيق المطامح القومية في التطور والازدهار .

وفعلا انتهى المؤتمر الى قرارات أعلنت ضرورة الاصلاح

---

٥ ـ عالجنا السياسة الامبرياليه في فصل سابق ..

•• وأن من حـــق العرب في أن يتمتعـــوا بحقوقهم السياسيـــة بالاشتراك في الادارة المركزية فعــلا ••

كذلك قـــرر المؤتمر ضرورة انشاء ادارة لا مركزية (حكم محلي) في كل ولايـــة عربية واعتبار اللغة العربيـــة لغة رسمية في مجلس النواب العثماني وفي الولايات العربيـــة •

التحذيـر من الكولونيالية الصهيونيـة

واستيقظت الحركة القومية العربية في الولايـات العربيـــة العثمانية في وقت مبكـــر عـــلى أخطـــار الصهيونية على الرغـم من أن الحركة الصهيونية انذاك اقتصرت نشاطها ، كما أوضحنـــا ، على الاتصال بالدول الاوروبية الامبريالية لتدعـــم مطامعها وحاولت اقناع السلطان العثماني بقبول برنامجها ••

وظهرت هذه اليقظـــة البدائيـــة باثارة النائبين شكـــري العسلي (نائب دمشق) وروحي الخالـــدي (نائـب القـــدس) قضية النشاط الصهيوني في فلسطين في مجلس النواب العثماني (أو مجلس المبعوثان كما كان يسمى في ذلك الوقت) •

وفي احـــدى خطبـــه في المجلس قال شكري العسلـي : « وهم يودون شراء الارض المشرفـــة على سكـــة حديد الحجـــاز ويرمون الى التوســـع في سوريا حتى العراق » ••

واستشهـــد روحي الخالدي بتصريحات أحد زعماء الصهيونية مناحم أوسيتشكين (من أوائل الصهيونيين) ليقـــول ان أمانـــي الصهيونية : نيـــل الميزة والافضلية في فلسطين وانفاق الامـوال لتأليف أمة يهودية في فلسطين واستيطان أرض الميعـــاد • وحذر الخالدي من الهجرة اليهودية قائـــلا : ان عدد اليهود في متصرفية

القدس بلغ مئة ألف وأن أغنياء اليهود ابتاعوا نحو مئة ألف دونم (!!) وهم قد أسسوا بنكا باسم « بنك الاستعمار اليهودي » (٦) لاستيطان البلاد ..

وأضاف الخالدي في معرض تأكيده على هذا الخطر أن نسبة العثمانيين من اليهود المهاجرين ١٠ بالمئة والباقي من أوروبا التي كانت القوى الوطنية تراها معقل الامبريالية والتوسع والعدوان .

وجدير بأن نلاحظ أن النائب اليهودي آنذاك (ويسجل توفيق برو في كتابه العرب والترك في عهد الدستور العثماني ان اسمه نسيم مزلياح) ، استهجن الامر وطالب بالتحقيق دفعا للشكوك وأكد تمسك اليهود العثمانيين بعثمانيتهم ..

ولعل تحذير نواب الولايات العربية ، السلطنة العثمانية من أخطار التسرب الكولونيالي الذى كانت تدعو اليه المنظمة الصهيونية ساعد على تجميد محاولات مؤسس الصهيونية السياسة تيودور هرتسل لكسب تأييد السلطان للمشروع الصهيوني .

وفي هذا الوقت المبكر كان من الممكن أن نرى الموقفين من الصهيونية .. فقادتها كانوا يجدون آذانا صاغية في محافل السلطنة العثمانية في حين كان القوميون العرب يعارضون المخطط الصهيوني بأسره .

وقد استمر هذان الموقفان الى اليوم .. فالصهيونية تحظى بتأييد الامبريالية والرجعية .. وتقاومها قوى الاشتراكية والتحرر .

ولذلك لم يجد قادة الصهيونية لغة مشتركة مع

---

٦ ـ المصدر ذاته ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

الجماهير العربية أبدا ..

وتروي الوثائق الصهيونية أن قوميين عرب اتصلوا بقائدي الصهيونية (قبل الثورة التركية ١٩٠٨) ف.يعقوبسون و ن.سوكولوف بغية الاطلاع على استعداد الصهيونيين لمساعدة الحركة القومية في ثورتها على الطغيان العثماني .. ويضيف أن الزعيمين الصهيونيين قطعا علاقاتهما « بأدب وحسم » مع أولئك القوميين العرب حين عرفا بنواياهم .. فالصهيونيون كانوا يتمسكون بمبدأ الامانة ازاء الحكم العثماني (٧) .

مباحثات وايزمن ـ فيصل

اوالمعاهدة العربية اليهودية

ليس واضحا تماما متى عرف العرب بوعد بلفور وأدركوا أبعاده الحقيقية .. فالحركة القومية العربية أثناء الحرب العالمية الاولى أصيبت بضربتين قاسيتين وكانت تحتاج بعض الوقت لتستجمع قواها .

وكانت الضربة الاولى اجراءات القمع الدموية التي اتخذها حاكم سوريا السفاح جمال باشا وذهب ضحيتها مئات من كبار القوميين العرب .. بعضهم علق على المشانق والبعض الاخر اعتقل أو شرد في الاناضول .

وكانت الضربة الثانية ـ وان لم تظهر حقيقتها مباشرة ـ نجاح العائلة الهاشمية في السيطرة على قيادة الحركة القومية العربية النامية ..

---

٧ ـ نقل هذه الوثائق الدكتور م . سنيه حين كان يتقرب الى الحزب الشيوعي في كتابه حول المسأله القومية ، استنتاجات علىضوء الماركسيه ـ اللينينيه ص ٩٢ .

واتضحت مصيبـــة الحركة القومية العربية في هذه القيادة حين نشر البلاشفة ، بعد ثورة اكتوبـــر الاشتراكية الكبـــرى معاهدة التقسيم الامبريالي المعروفـــة بمعاهدة سايكس بيكـــو ليستنفروا الشعب العربي الى مكافحـــة الامبريالية البريطانيـــة ـ الفرنسية دفاعا عن مصالحـــه ٠

فآنذاك « اقتنـــع » الهاشميون ـ الشريف حسين والاميـــر فيصل ـ وأشقاؤه ـ بصدق نوايا الامبرياليين البريطانيين الذين كانوا قد وعـــدوا الشريف بمساعدتـــه على اقامة دولة عربيـــة واحـــدة تشمـــل شبه الجزيرة العربيـــة والهلال الخصيـــب (العـــراق وسوريـــا الطبيعيـــة) ٠ وقبلـــوا فيمـــا بعـــد بيـــان الحلفـــاء الـــذي صـــدر فـــي ٨ تشرين الثانـــي ١٩١٨ لتبديـــد الشكـــوك المتعاظمـــة في نوايا بريطانيـــا وفرنسا الامبريالية في المنطقة ٠٠ وجاء فيـــه :

« ان السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانكلتـــرا في الشرق هو رغبتهما في تحريـــر شعوبه من ظلـــم الترك واستعبادهم وخلاصهـــم من عســـف الالمان ومطامعهم وميلهما الى تأليـــف حكوما ت وادارات وطنيـــة حـــرة تنتخب حسب رغائب الامـــة وتستمد سلطتها منها ٠٠ ولتأييـــد هذه المقاصد وابرازها عـــلى أن تساعـــدا الاهلين في تأليف هذه الحكومات في سوريا والعراق وفي جميع البلاد التي حررها الحلفاء » ٠٠٠

لم يظهر في هذا البيان ذكر عن وعد بلفور مع انـــه كان من برنامج الحلفاء في الشرق وذلـك امعانا في التضليـــل وخوفـــا من الجماهير العربيـــة ، ولكن الامير فيصل كان يعـــرف بـــه وبمخطط الصهيونية وسكت عنهما ٠٠

ففي أول حزيران ١٩١٨ أي قبل هذا البيان بحوالي نصف سنة زار الدكتور حايم وايزمن زعيم الصهيونية انذاك الامير فيصل في العقبه « وبسط له أغراض الصهيونية ورغبتها في التعاون مع العرب » (٨) ٠

وأكد وايزمن في كتابه الذكريات « التجربة والخطأ » انه أوضح للامير رغبته في تبديد مخاوف العرب وطلب منه تأييده ٠٠ ثم أضاف أنه وجد الامير مطلعا على الحركة الصهيونية وقد اتفق اتفاقا تاما مع وايزمن حول الفوائد التي يجنيها العرب من تنفيذ البرنامج الصهيوني (ص ٢٣٤) ٠

كذلك وقع الامير فيصل والدكتور وايزمن في هذه الفترة على معاهدة تنسق بين الدولة العربية الموعودة وفلسطين اليهودية !!

وحسب المصادر العربية ان الاثنين لاحظا القرابة العنصرية القديمة الكائنة بين العرب واليهود واتفقا فيما اتفقا عليه من أمور أن يسود علاقات الدولة العربية وفلسطين التفاهم القائم على أساس الاخلاص وحسن الادارة ٠٠ وأن تحدد الحدود بين الدولتين بعد مؤتمر الصلح وأن « تؤخذ جميع التدابير وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر في ٢ نوفمبر » ، وأن تتخذ التدابير لتشجيع الهجرة اليهودية والاستيطان على أن تصان حقوق الفلاحين ويتقدموا اقتصاديا (٩) ٠٠

٨ ـ ذكر هذه المباحثات امين سعيد في كتابه الثورة العربية الكبرى الجزء الثالث ص ٤٠ ، كما ذكرها عيسى السفري في كتابه « فلسطين بين الانتداب والصهيونية » ص ١٤ ٠

٩ ـ حسب عيسى السفري تم وضع المعاهدة في ٤ـ٦ـ١٩١٨ كتابه اعلاه ص ١٥ ـ١٦ ٠

ولا ينفي المؤرخــون العرب ، الموضوعيون منهم على الاقل ، حقيقة هذه المعاهدة ، الا انهم في معرض الدفــاع عن فيصـــل يلاحظون انه ذيــل المعاهدة بشرط جاء فيه : « اذا توطـــدت دعائم الحكومة العربية » ·· « أما اذا أجريت تعديــلات فلا أكون مسؤولا عن عدم قيامي بما جاء فيها » ··

كذلك يستشهــدون بتصريحه الى « جويش كونيكــل » (البريطانية) في ١٤ـ١٠ـ١٩١٩ وجاء فيه : « يجب أن تظــل فلسطين جزءا من سوريا فليس بينهما حد طبيعي ولا فاصــل وما يؤثر في الواحــدة يؤثر في الاخرى · فالعــرب يرون فلسطين ولاية عربية ولا يرونها بلادا قائمة بذاتها · ونحن نسعى لننشــيء امبراطورية (دولة) عربيــة تتألف من العراق وسوريا وفلسطين· وقد قيــل لي أن جميع اليهود يعتمــدون على التصريح الذي قال به اللورد بلفورد ويتطلعون الى انشاء وطن قومي لهم في فلسطــين أي أن تصبح فلسطين دولة يهودية · ولا ريـــب أن هذه الامانــي تناقض أفكــار العرب ولا ترضيهم · فأناشــد اليهود وهــم ساميون قبل العرب طالبا معونتهم لنا في انشاء المملكــة العربية ، حتى اذا كثر عدد اليهود في فلسطين تيسر أن تجعل ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة » · وهكــذا أكــد في التصريح مقاومـة العرب وعد بلفور ورفضهم الجازم فصل فلسطين عن سوريا ·

وليس من الصعب رؤية المؤثرات التي حركت فيصــل ·· فقد إنتمي الى عائلة اقطاعيــة وتماثل ، منذ أن تسرب الى قيادة الحركــة القوميــة العربيــة ، مع أسياد الارض (كما اتضــح هذا خلال الفترة القصيرة من حكمه في سوريا) وتهادن مــع الامبرياليــة البريطانية وتســاوق معها في مناوراته المتعاقبــة

بعد الحرب العالمية الاولى ..

ومن المؤكد أن فكرة « التعاون » العربي ـ الصهيوني ولدت في الدوائر البريطانية كما يظهر ذلك من اراء سايكس (الذي صاغ اتفاق سايكس بيكو أولا .. وكان صلة الوصل بين الوزارة البريطانية وقادة الصهيونية ثانيا) .. و ت.أ. لورانس وكيل المخابرات البريطانية الذى التحق بالامير فيصل ورافقه مثل الظل ، وكان يوحي له بكل شيء يتوافق مع المخططات البريطانية (١٠) ..

وفي هذا الصدد يتفق وايزمن في كتابه « التجربة والخطأ» وناحوم سوكولوف في كتابه « تاريخ الصهيونية » ، على أن مارك سايكس كان يتخيل « تحرير » الشعوب الثلاثة المضطهدة : العرب واليهود والارمن ويرتأي تعاونها الوثيق من أجل مصلحتها وفي سبيل تطوير المنطقة (١١) ..

وحسب ما أورده سوكولوف كان سايكس يعتقد أن العرب الذين يقاومون الصهيونية كانوا يتطلعون من وجهة نظر ضيقة قصيرة الافق (!!) ولا يثمنون تثمينا صحيحا فكرة « الحلف العبري ـ العربي » العظيم كما أن بعض العناصر كانت تسفه أهمية المصالح البريطانية في المنطقة وتقلل من قيمتها (١٢) ..

وهكذا يظهر أن التقارب بين فيصل ووايزمن والمعاهدة بينهما انسجما مع المصالح الامبريالية البريطانية التي تصورت استخدام الحركة القومية العربية والصهيونية وحركة الارمن

---

١٠ ـ سجل ت.أ. لورانس نشاطه في هذه الفترة في كتابه المشهور « اعمدة الحكمة السبعه » ..

١١ ـ ص ١٨١ في المجلد الاول والمجلد الثاني ص ٢٥ من المقدمة .

١٢ ـ المصدر نفسه (تاريخ الصهيونية) .

التحررية لتوطيد مواقعها في هذه المنطقة الواسعة من تركة الامبراطورية العثمانية ..

ولعل رسالة فيصل الى الزعيم الصهيوني الاميركي فيلكس فرانكفورتر في ١٣ اذار ١٩١٩ أبرز دليل على هذا التساوق بين الامبريالية البريطانية وفيصل .. ففي هذه الرسالة (١٣) - التي نفى علمه بها في ١٩٢٩ (١٤) - يردد فيصل فكرة سايكس أن العرب واليهود تحملوا الاضطهادات المتشابهة من الدول القوية وأن على الشعبين العربي واليهودي التعاون من أجل بعث الشرق الاوسط واصلاحه ..

وعلى هذا الضوء تؤكد هذه الاتصالات والاتفاقات بين فيصل وقادة الصهيونية ، أن الصهيونية - خلافا لما ادعته فيما بعد في الغرب في محافل عمالية - كانت تجد التأييد بين الاقطاعيين العرب والعناصر المتعاونة مع الامبريالية البريطانية .. أما جماهير الشعب العربي فقد قاومتها منذ أن عرفت بحقيقتها وأدركت أبعاد وعد بلفور ..

الحركة القومية العربية ترفض الصهيونية ووعد بلفور

لقد أعادت الحركة القومية العربية تنظيمها بعد سنوات القمع التركية بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة في ظل الادارة العربية التي قامت في سوريا بعد احتلال القوات البريطانية والعربية لها ..

ولاحظ عدد من الكتاب العرب بحق أن هذه الحركة - التي لم تكن قد تخلصت من الاقليمية - تأثرت بالحقائق

١٣ - نشرها كاملة وايزمن في التجربه والخطا ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

١٤ - فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونيه عيسى السفري ص ١٤ .

التي بدأت الدول الامبريالية تخلقها فانقسمت الى شطرين شطر سوري وشطر عراقي ..

وفي هذا الصدد يكتب أمين سعيد :

« فلما تم فتح سورية وظهرت نيات الحلفاء وأغراضهم اجتمع مؤسسو هذا الحزب (حزب العهد) وأعضاؤه القدماء من الضباط العرب الذين اشتركوا في الثورة (المقصود نشاط القوات المسلحة التى نظمها الامير فيصل أثناء الحرب العالمية الاولى) عراقيين وسوريين وقرروا أن ينقسم العهد الى حزبين سوري وعراقي فيعمل كل منهما لخدمة قضية بلده مستقلا عن الاخر (١٥)

وفعلا تنادت القوى الوطنية في سوريا الطبيعية وعقدت المؤتمر السورى الاول في دمشق في ٨ حزيران ١٩١٩ وأبرزت في قرارها الموقف الواضح الذى اتخذته الحركة القومية العربية من الصهيونية .. وجاء في القرار :

« نحن أعضاء هذا المؤتمر رأينا بصفتنا الممثلين للامة السورية في جميع أنحاء القطر السوري تمثيلا صحيحا .. واستنادا على حقنا الطبيعي والشرعي في الحياة الحرة .. وعلى الوعود والعهود والمبادىء السامية ، وعلى ما شاهدناه ونشاهده كل يوم من عزم الامة الثابت على المطالبة بحقها والوصول الى ذلك بكل الوسائل .. نعلن باجماع الرأي وحدة بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود أو محل هجرة لهم » (١٦) .

وفي تلك الفترة وصلت لجنة كرين الامريكية الى الشرق

---

١٥ ـ الثورة العربية الكبرى المجلد الثاني ص ٣٥ .

١٦ ـ عيسى السفري فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونيه ص ٣٣ .

العربي للتحقيق في رغبات الاهالي فاجتمع المؤتمر السوري في ٢ تموز ١٩١٩ وقرر تقديم مذكرة ضافية الى اللجنة يعرب فيها عن مواقف الشعب العربي من مختلف القضايا ويجسم مطامحه القومية ٠٠

وفعلا قدم ٢١ عضوا اختارهم المؤتمر هذه المذكرة التي جاء في مطلعها نحن أعضاء المؤتمر السوري « الحائزين على اعتمادات مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين (هكذا يظهر اسم اليهود في وثائق تلك الفترة ـ أ٠ت) ٠٠ « نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية التي تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا رفح فالخط المار من جنوب الجوف الى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات والخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال الى شرقي الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية » ٠٠٠

كذلك رفضوا في مذكرتهم بالتحديد مطامع الصهيونية في اقامة دولة يهودية في جزء من جنوب سوريا المعروفة بفلسطين وعارضوا فى الهجرة اليهودية الى أي جزء من البلاد ٠

ثم رفضوا الاعتراف بحق الصهيونيين في البلاد وأعلنوا أنهم يعتبرون مزاعم الصهيونية خطرا جسيما يهدد حياة الشعب القومية والسياسية والاقتصادية ٠ وأنهوا هذه الفقرة بالقول ان المواطنين الموسويين سيتمتعون بكافة الحقوق ويقومون بكافة الواجبات مثلهم في ذلك مثل سائر المواطنين (١٧) ٠

واعترفت لجنة كرين التي نشرت تقريرها في ١٩٢٤ فقط

---

١٧ ـ اثبت جورج انطونيوس في كتابه نهضة العرب بالانكليزيه النص الكامل لهذه المذكرة ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢ ٠

ـ بسبب ضغوط الدول الامبريالية بريطانيا وفرنسا على الولايات المتحدة ـ بأن المؤتمر السورى أعرب عمليا عن أماني الشعب العربي في المنطقة ٠٠ وأوصت « بصيانة وحدة سوريا تلبية لرغبة الاكثرية العظمى من الشعب السوري » ، واعتبرت أن من الانصاف للعرب الاعتراف بالامة العربية ورغباتها الوطنية كما أن من مصلحة العالم أن تتألف حكومة عربية على القواعد السياسية الحديثة ٠٠ وحذرت من تنفيذ البرنامج الصهيوني الذى يعني احتلال فلسطين واقترحت تقليص هذا البرنامج بحيث تتخلى الصهيونية عن فكرة الدولة اليهودية وعندئذ لا يكون هناك سبب يمنع بقاء فلسطين في الدولة السورية الموحدة (١٨) ٠

والشعور بخطر الصهيونية كان من عوامل انقسام الحركة القومية العربية ، كما كانت الوقائع التي تفرضها الامبريالية واطماع بريطانيا وفرنسا بالتحديد سببا في انقسام العهد الى شطرين سوري وعراقي ٠٠

وصور ساطع الحصري في كتابه « يوم ميسلون » هذه الحقيقة عند وصفه الاتجاهات الاقليمية في الحركة القومية العربية الواحدة فكتب :

« فهذا فلسطيني يعتبر الصهيونية أول ما يجب ان يهتم به من المشاكل ، وذاك سوري يرى في أطماع فرنسا أكبر الاخطار التي تهدد القضية العربية وذلك عراقي يقول بوجوب الثورة ضد الانكليز قبل كل شيء (ص ٩٢) » ٠

وتبلور هذا التطور حين عقد المندوبون الفلسطينيون

---

١٨ ـ المصدر نفسه بين صفحات ٤٤٣ و ٤٥٨ ٠٠ والقسم عن الموقف من الصهيونية ص ٤٥٠ ٠

في المؤتمر السوري العام مؤتمرا لهم في دمشق في ٢٧ شباط ١٩٢٠ وقرروا : « ان أهالي سوريا الشمالية والساحلية (لبنان أ٠ت٠) ما خطر لهم في وقت من الاوقات ان يعتبروا سوريا الجنوبية ، أي فلسطين ، قطعيا ، غير سوريا وكما أثبتوا ذلك في مقررات مؤتمرهم السوري فهم الان يثبتون هذا القرار مرة ثانية » ٠

كذلك رفضوا الوطن القومي اليهودى واعتبروا الصهيونية خطرا على البلاد ، ورفضوا قيام أي حكومة في فلسطين قبل أن تعترف تلك الحكومة بعدم فصل البلاد عن سوريا ٠

وظهرت بداية عملية تطور الحركة القومية الفلسطينية الاقليمية فى هذا الوقت حين أعلن المؤتمرون ، دفعا للالتباس ولان الاوساط الاوروبية تستخدم كلمة فلسطين منفصلة عن سوريا ، تاليف « لجنة الدفاع الوطني العربي عن سوريا وفلسطين » تهدف الى اخراج المحتلين من الساحل (لبنان ـ أ٠ت) وكانوا فرنسيين ، ومن فلسطين وكانوا بريطانيين ٠

وفى تموز ١٩٢٠ حسم احتلال فرنسا سوريا الشمالية وتصفية ادارة فيصل العربية ، وتوطيد التقسيم الامبريالي بين بريطانيا ـ التي احتلت العراق وفلسطين ، وفرنسا التي احتلت لبنان وسوريا ـ حسم كل هذا في وجهة الحركة القومية العربية ودفعها الى وجهة اقليمية ٠٠

وهكذا كانت بداية الحركة القومية العربية الفلسطينية ٠٠

وفي ١٤ كانون الاول ١٩٢٠ عقد القوميون من فلسطين مؤتمرا وطنيا في حيفا اعتبروه المؤتمر الثالث (المؤتمر السوري



من المناظر المألوفة آنذاك « تفتيش » من السلاح وارهاب



البوليس البريطاني يتصدى لاحدى المظاهرات في القدس



العام كان الاول ٠٠ ومؤتمر المندوبـين الفلسطينيـين كان الثاني) ، وقرروا رفض وعـد بلفور ووقف الهجرة اليهوديـة وانشـاء حكومة وطنية في فلسطين تتحـد مع سوريا ولبنـان (١٩) ٠

وبـدأ الصـراع التحـرري واضحا في فلسطين ٠٠

---

١٩ ـ الثورة الكبرى امين سعيد الجزء ٣ ص ٥٢ ـ ٥٣

الفصل السابع

المجابهة الاولى

في ٢٨ حزيران عام ١٩١٩ وقعت الدول الاوروبية المستقلة ، باستثناء الاتحاد السوفييتي ميثاق عصبة الامم الذى نص بنده الثاني والعشرون على نظام الانتداب الذي حدد بدوره حالة فلسطين ..

وكان الانتداب غطاء الامبريالية في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، التي شهدت قبل نهايتها ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى في روسيا القيصرية ، وانتهت تبعا لذلك وبتأثير هذه الثورة بنقاط الرئيس الامريكي ويلسون التي عرفت بالنقاط الاربع عشر وأوحت بحق الشعوب في تقرير مصيرها ..

واعترف الانتداب ـ وكان على درجات ـ مبدئيا بحق الشعوب بحكم نفسها بنفسها ، ولكنه اعتبر تلك الشعوب قاصرة على ذلك ، انذاك وأوكل أمرها لدولة كبرى « تأخذ بيدها في مدارج الرقي » ! حتى تقف على أقدامها وتستقل بأمورها .. وعندئذ ينتهي نظام الانتداب .

وأوكل مجلس مؤتمر السلام الاعلى أمر الانتداب على فلسطين ببريطانيا أثناء اجتماعه في سان ريمو في ٢٥ نيسان عام ١٩٢٠ . كما وزع الانتدابات الاخرى على الدولتين

الامبرياليتين بريطانيا وفرنسا ٠

وخلال هذه الفترة أشتد الصراع بين بريطانيا وفرنسا حول حدود فلسطين ٠٠ وكما يقول فورس آدم أحد الاخصائيين البريطانيين فى مؤتمر السلام استخدمت بريطانيا الحدود التي كان يزعم الصهيونيون انها حدود فلسطين في مجابهتها فرنسا (فكرة الدولة الصهيونية بن هلبرن ص ٢٩٦) ٠٠ وبذلك وصلت الى ذروة الاستفادة من وعد بلفور للفوز بحصة الاسد فى سوريا ٠٠ وفعلا استطاعت بريطانيا أن تقتطع لنفسها فلسطين وشرق الاردن ٠٠

وأقر مجلس عصبة الامم نظام الانتداب على فلسطين في ٢٤ تموز عام ١٩٢٢ ، وكان ذلك الاجراء اعتراف بواقع الاحتلال البريطاني الذى بدأ في نهاية الحرب العالمية الاولى٠٠

أما المعركة في فلسطين فلم تنتظر اقرار الانتداب رسميا ، بل بدأت قبله بكثير ٠٠

المعركة مع الامبريالية واصطدامات بين العرب واليهود

ويقع بعض المؤرخين وبينهم مؤرخون عرب فى « خطأ » تاريخي ، مغرض في أكثر الاحيان ، حين يبدأون بتدوين كفاح الشعب العربي في فلسطين بالاصطدامات بين العرب واليهود في نيسان عام ١٩٢٠ ٠

فالحقيقة أن بداية المعركة كانت في رفض الحركة القومية العربية الموحدة في سوريا الطبيعية الاحتلال ووعد بلفور ومطامع الصهيونية ٠٠

وتطورت المعركة مع الامبريالية البريطانية حتى من

قبل أن ينفصل « القطاع الفلسطيني » عن الحركة القومية العربية في سوريا الطبيعية ويتلاءم مع ظروف التجزئة الامبريالية في العالم العربي المشرقي ..

ولعل بداية موجة عام ١٩٢٠ كانت في تلك المظاهرة الضخمة التي اشترك فيها ٤٠ ألف مواطن وطافت في القدس في ٢٧ شباط ١٩٢٠ ..

لقد أعقبت هذه المظاهرة ، وكانت الاولى من نوعها في القدس ، اجتماع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد بدعوة من حاكم البلاد البريطاني الجنرال بولز ..

ففي هذ الاجتماع صرح الجنرال بأن مجلس الحلفاء قرر أن يدمج وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين في معاهدة الصلح مع تركيا .. وأن بريطانيا قبلت الانتداب على البلاد ، وانها ستحافظ على الحريات الدينية وتسمح للمهاجرين بدخول البلاد قدر حاجتها الى النمو ..

وأضاف : « وتسيطر حكومة بريطانيا على المهاجرة ولا يخرج أصحاب الاملاك الحاليون عن أملاكهم ولا تنزع منهم ولا تمنح امتيازات اقتصادية لافراد أو جماعات اذا كان منحها ضررا لغيرهم .. فالحكم سيكون للحكومة البريطانية ولا يسمح بحال من الاحوال لاقلية أن تسيطر على الاكثرية من السكان ».

وقبل المظاهرة تألفت جمعيات اسلامية ـ مسيحية في مدن فلسطين واتفقت على مذكرة أعلنت فيها : « اننا لا نتخلى عن مطالبنا المنحصرة في استقلال سوريا المتحدة من طوروس الى رفح ونرفض الهجرة الصهيونية رفضا باتا ونرفض فصل فلسطين عن سوريا .. لان فصل فلسطين

عن سوريا يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية ٠٠ وبمصالح الوطنيين القومية والمحلية » ٠٠

وأضافت : ان الاراضي تكفي لاهلها الذين هم في ازدياد مستمر وستسبب الهجرة الشغب والثورة الدائمين ٠٠

وهكذا كانت المظاهرة احتجاجا على التجزئة الامبريالية أولا ، والاحتلال الذي جرد الشعب من استقلاله ثانيا ، وعلى وعد بلفور ثالثا ٠٠

وقد طاف المتظاهرون على قناصل الدول الاجنبية وسلموهم احتجاجات بهذه الروح ٠ (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ٣٧ ـ ٣٨) ٠٠

وهنا لا بد من دحض تزييف الرجعيين من بريطانيين امبرياليين وصهيونيين حاقدين ، حقيقة الحركة القومية العربية في فلسطين وتصويرها ، تصويرا عنصريا ، (!) ، بتضخيم الاصطدامات بين العرب واليهود ٠

فالحركة القومية العربية في فلسطين لا يمكن فصلها عن الحركات القومية العربية في العالم العربي التي امتازت بتشديد الكفاح ضد الامبريالية ٠٠ ومعروف تماما أن براكين الثورات المعادية للامبريالية تفجرت في هذه الفترة بعنف شديد زعزع مواقع الامبريالية ٠٠ وتوالت الثورات فوقعت ثورة ١٩١٩ في مصر ٠٠ وثورة العراق الشاملة في عام ١٩٢٠ والنضال المسلح الذى بدأ في سوريا من قبل أن تحتل القوات الفرنسية دمشق في تموز ١٩٢٠ ، واستمر بعد احتلالها فترة من الزمن ٠٠

وهكذا فالموجة الثورية في العالم العربي كانت عامة

ومنها مظاهرة القدس الكبرى ·· ولذلك فالاصطدام بين العرب واليهود الذي وقع في القدس كان لاسباب عديدة لا تمت الى العنصرية بصلة ·· ولا تشوه جوهر هذه الحركة بشيء ··

وعلى هذا الضوء يمكن أن ننتقل الى اصطدامات العرب واليهود فى القدس يوم الاحد فى ٤ نيسان عام ١٩٢٠ ··

يكتب المؤرخون الصهيونيون ·· وقد تلقوا « العلم » على يدي معلم الرجعية الواحد ان المحرضين العرب أعدوا مجزرة اليهود في موسم النبي موسى بوحي من السلطات البريطانية أو بعض المحافل فيها ويستشهدون على ذلك بأن الذين هاجموا اليهود في القدس القديمة كانوا يصرخون « الحكومة معنا » !!

ويؤيدهم في هذا الكتاب البريطانيون الذين يدافعون عن وعد بلفور والسياسة البريطانية التي انتهجها الانتداب البريطاني في فلسطين ··

ولكن المعطيات ترسم صورة أخرى ··

ففي ظروف الموجة القومية الثورية في العالم العربي المشرقي ، وخاصة في سوريا حيث كان الحكم العربي (الفيصلي) لا يزال قائما ، وتصارع القوى القومية الزحف الفرنسي ، تحول موسم النبي موسى الى مظاهرة قومية من الدرجة الاولى ·· فالوفود الكبيرة التي توافدت الى المقام من مدينة القدس وقراها والخليل ونابلس وغيرها كانت « تنادي بالوحدة العربية والاستقلال وترفض الهجرة الصهيونية » ·· واشتد حماسها الوطني وهي تصغي الى خطابات القوميين امثال عارف العارف وخليل بيدس وموسى كاظم الحسيني رئيس بلدية القدس آنذاك ·

وكانت اللجنة الصهيونية التي وصلت الى البلاد حتى قبل اتمام احتلال البريطانيين البلاد تعرب عن مطامعها في السيطرة على البلاد وتتجاهل حقوق الجماهير العربية تجاهلا تاما مما زاد في مخاوف هذه الجماهير من مدلولات وعد بلفور ..

كذلك ظهرت الممارسة الصهيونية المعادية للجماهير العربية فى مظاهر عدة أبرزها الاعدادات العسكرية .. بذريعة اقامة فرقة دفاع عن النفس ..

ويعترف جوزيف شختمان في كتابه « متمرد وسياسي » « قصة فلاديمير جابوتنسكي بهذا الامر وبالتساوق بين القيادة الصهيونية والامبريالية البريطانية مما يدحض اسطورة هتاف الجماهير العربية : « الحكومة معنا .. »

كتب ان أمر تدريب الجنود اليهود كان علنيا تعرفه السلطات ، وأضاف :

« وقبل أيام من العيد الاسلامي النبي موسى قامت فرقة الدفاع عن النفس بمناورات عسكرية منظمة على سفح جبل الزيتون وعند أقدامه أمام مركز الحكومة (البريطانية) « واستعرض » الضباط البريطانيون حركتنا بمناظرهم .. ولم يكن الموقف الرسمي تجاه منظمة الدفاع الذاتي غير سلبي فحسب ، بل كان يبدو أبويا الى حد » .. (ص ٣٢٥) .

وهكذا فبعض قادة الصهيونية من أمثال الزعيم المتطرف جابوتنسكي كانوا يعدون قوة عسكرية ويقومون بمناورات عسكرية منظمة عشية موسم النبي موسى مما ينفي صورة الحمل الوديع « اليهود » والذئب الكاسر « العرب » .

ولا جدال في ان اساطين الامبرياليـــة البريطانيـة العريقيـن بسياسة « فــرق تسد » بذلــوا كل جهد لتأجيج الاحتـــراب العنصري بين العرب واليهود لحرف النضـــال عن مساربه الصحيحة ليصبحوا قضاة بين متحاربين بـــدلا من أن يكونوا هدف المحاربين من أجـــل الاستقـــلال بوصفهم أعداء الشعوب الالـــداء وعقبـة التحـــرر القومي الكأداء ..

وحتى في هذا الوقت المبكـــر وجدت الامبريالية البريطانية عناصر الرجعيـــة العربيـــة تسير في ركابها بعد أن حظيـــت بتأييـــد الصهيونية التام .

وساعـــد على ذلك بناء الحركـــة القوميـــة العربيـــة في فلسطين ، في هذا الوقت ، عـــلى أسس طائفيـــة كانت تعـــرب عن الاوضاع الاقتصاديـــة المتخلفة التي تميزت بعلاقات اقتصادية شبـــه اقطاعيـــة وبغياب البرجوازية الصناعية والطبقة العاملة ..

كما أن المجتمع العثماني كان يقوم على التنظيم الطائفـــي (الملي) ولم يكن قد تغير بعد في عهد الاحتلال البريطاني الاول .

وفي هـــذا الجو المتوتـــر كان من السهل أن يشتعـــل الاحتراب العنصري وأن يؤدي ـ كما كتب عيسى السفري ـ مـــرور بعض اليهود بين الشعب العربي الصاخـــب الى اهتيـــاج الافكار « واحتـــدام نار الفتنـــة بين الطرفين فقتـــل منهما عدد ليس بالقليل وظلت الحالة مضطربـــة حتى المساء » ..

لقد كان حصيلـــة هذا الاصطـــدام بين العرب من ناحيـــة ، والقـــوات البريطانية واليهود من ناحية ، مقتـــل ٥ من اليهـــود و ٤ من العرب وجـــرح عشرات من الطرفين .. ولكن الاخطـــر من وقوع الضحايا ، اتساع الهوة بين العـــرب والصهيونيين ..

ونحدد الهوة بين العرب والصهيونيين لان نسبة واسعة من اليهود في البلاد كانت ترفض المشروع الصهيوني في ذلك الوقت المبكر ..

وعلى أثر هذا الاحتراب ، وضعت لجنة تحقيق عسكرية ، كانت الاولى من سلسلة لجان تحقيق مختلفة ، تقريرا عن ملابسات الاصطدام أكدت فيه ما يلي :

* « خيبة أمل العرب بسبب عدم تنفيذ الوعود بالاستقلال التي يدعون انها أعطيت لهم أيام الحرب .

* اعتقاد العرب بأن وعد بلفور ينفي حقهم في تقرير المصير وتخوفهم من أن يؤدي قيام الوطن القومي الى زيادة الهجرة اليهودية ، مما سيقود الى اخضاعهم لسيطرة اليهود الاقتصادية والسياسية .

* تعميق هذه المشاعر بالدعاية من خارج البلاد المرتبطة باعلان الملك فيصل ملكا على سوريا الموحدة ونمو أفكار الجامعة العربية والجامعة الاسلامية من ناحية ونشاط اللجنة الصهيونية تدعمها مقدرات اليهود ونفوذهم في شتى أنحاء العالم من الناحية الثانية » .

(استعراض أوضاع فلسطين (تقرير أعدته الحكومة البريطانية) للجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية بين ١٩٤٥ـ١٩٤٦ ص ١٧) ..

لم تكن لجنة التحقيق نزيهة في كل ما ذهبت اليه .. فالامبراطورية البريطانية كانت تقصد بلجانها الموجهة تخدير الجماهير أولا وكسب الوقت ثانيا والدس المغرض ثالثا .. ومع هذا فقد أضطرت الى الاعتراف بحقيقة كبرى : هي أن الجماهير العربية كانت تتوق الى الاستقلال وترغب في حق

تقريـــر المصير في سوريا الطبيعيـــة وتتخوف ، أشد الخوف ، من الوطن القومي اليهودي ٠

مؤتمر القاهرة والاصطدام الثاني

ويعتبـــر الكتاب مطلع أول تموز ١٩٢٠ نهايـــة الادارة العسكرية في فلسطين وبدايـــة الحكم المدني الذى دشنـــه تسلم المندوب السامي الاول السير هربرت صموئيل مهام منصبه في البلاد٠

وكان هربرت صموئيل على الرغـــم من انتسابه الى الطائـــفة اليهودية وعطفـــه على الصهيونية ، بريطانيا ، مـــن المحافـــل الامبريالية ، يضع مصلحة الامبراطورية فى المكانة الاولى ٠٠

ولهـــذا كانت سياسته تجمـــع بين الولاء لوعـــد بلفور وسياســـة اقامة الوطن القومي من ناحيـــة ، ومهاوده قيـــادة الحركة القومية الاقطاعية لكسب تأييدها من ناحية ثانيـــة ٠٠

بعـــد شهر من تسلمه ادارة البلاد ، في ٢١ آب عام ١٩٢٠ أصـــدر تشريعا يسمـــح بدخـــول ١٦٫٥٠٠ مهاجر يهـــودي فى السنـــة الاولى ٠

وخـــلال الاشهر الاولى من حكمـــه عفا عن الحاج أمـــين الحسيني ، الذى اتهم بالتورط في الاصطدامـــات الداميـــة في نيسان ١٩٢٠ ، وعينه مفتيا على القـــدس ٠

وجســـد موقفه في تصريح كان نموذجا من التصريحـــات الامبريالية المطاطـــة التي توافـــق المرحلة والممارسة الصهيونية التي امتازت بالواقعيـــة والمرونـــة ٠٠ فالاهـــداف البعيدة المدى كانت تتراجـــع وتختفي من على سطح المياه السياسيـــة لعـــدم وجود ظروف لتحقيقهـــا ، وتبرز في الوقت ذاتـــه الاهـــداف

العينية التي يمكن تحقيقها ·

وجاء في تصريح هربرت صموئيل :

« وقفت أثناء وجودي في فلسطين على الاحتجاجات التي قدمها الاهلون على الصهيونيين وعندي انها احتجاجات لا خطر منها لانها مبنية على قضايا فاسدة وجهل بالمسألة الصهيونية » ·

وجاء أن الذين ينسبون الى الصهيونيين أطماع السيطرة ينسبون لهم أمورا لم تخطر لهم على بال ·· وان الهجرة ستكون تدريجية بقدر طاقة البلاد ·· وان المهاجرين سيكونون الاغنياء (!) وان المنافع ستفيض على العرب ·· (كتاب فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ٥٤) ·

وفي هذا الوقت أثر سقوط الحكم العربي في دمشق في تموز عام ١٩٢٠ ·· وتراجع الثورة العراقية في الفترة ذاتها ·· أثر على الحركة القومية العربية في فلسطين وفرض عليها أن تتراجع قليلا لتجمع قواها من جديد ·

واتخذت السلطات البريطانية خطوات عينية في سبيل التهدئة فقررت عقد ما عرف بمؤتمر القاهرة الذي عقد في الاسبوع الثاني من اذار ١٩٢١ بحضور وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل وكبار الجنرالات والمندوب السامي في فلسطين وشخصيات موالية لبريطانيا أمثال جعفر العسكري وساسون أفندي من العراق ·

وقرر مؤتمر القاهرة ما يلي :

* تنصيب الامير فيصل ، الذى فقد عرشه في سوريا ، ملكا على العراق وبذلك يصبح من الممكن تهدئة الثورة

العراقية باقامة حكم « قومي » يتزعمه ابن الشريف حسين فيصل .

* تنصيب الامير عبد الله شقيق فيصل أميرا على شرق الاردن ، فبذلك يتخلص البريطانيون من وضع مشحون بالاخطار .

* محاولة اقامة مجلس تشريعي في فلسطين يحل محل المجلس الاستشارى المعين الذى أقامه المندوب السامي ..

ولكن في حين كان تنصيب الملك فيصل ملكا على العراق عاملا من عوامل التضليل والتهدئة في العراق .. كانت محاولة اقامة المجلس التشريعي فاشلة زادت في تعميق وعي العناصر العربية الواعية على خطورة سياسة الامبريالية البريطانية والصهيونية ..

وهكذا انفجرت اضطرابات يافا التي عرفت باضطرابات أول أيار عام ١٩٢١ لوقوعها في يوم عيد العمال العالمي .

ومثل كل احتدام عنصري أو قومي كانت هناك شرارة وكانت هناك أسباب موضوعية عميقة ..

أما الشرارة فكانت اصطداما وقع بين متظاهرين يهود فى أول أيار عام ١٩٢١ ، فالعمال الهستدروتيون الصهيونيون اصطدموا بالعمال الذين ساروا تحت شعار حزب العمال الاشتراكي (موبس) الخارج على الصهيونية ودعوا العمال جميعا الى الاضراب في يوم عيد العمال العالمي .

ويبدو أن المواطنين فى يافا اعتقدوا ان المتظاهرين الذين اصطدموا في تل أبيب بالقرب من منشية يافا يريدون لهم الشر فتصدوا لهم ووقعت الواقعة وامتدت مثل النار في الهشيم الى منطقة يافا كلها ..

ومـــرة أخـــرى تدخلت القوات البريطانية لتبطش بالعرب ٠٠ وكالمعتاد وقعت الضحايـــا من الطرفين وكان حصاد المصادمات « الثلاثية الجوانب » مزيـــدا من الضحايـــا ٠٠ فسقط من القتلى ٤٧ يهوديا و ٤٨ عربيا وأصيب بجراح العشرات من الجانبين ٠٠

وفي هذه المرة أيضـــا اتهمت القيادة الصهيونية سلطـــات الامن الانتدابية بالاهمـــال ٠٠ وروجت اسطورة «الافندية العرب» الذين يحرضـــون المعدمين العرب على اليهود بسبب فقدانهـــم امتيازاتهم !! وتظاهـــرت بان القضية لا تعدو قضية « الحمـــل الصهيوني » الذى يريد أن يبني البـــلاد و « الذئـــب الكاســـر العربي » الذى يصر على بقاء البلاد « مستنقعات » !!

وألفت الحكومـــة البريطانية في فلسطين لجنة تحقيـــق جديـــدة ترأسها قاضي القضاة توماس هيكرافت لتبحـــث فـــي أسباب الانفجار الجديـــد ٠٠

واستوحت اللجنة استنتاجاتها من ماهيتها الامبريالية ووجهة نظر رجالها الطبقيـــة ٠٠ ولهذا اعتبرت « مظاهرة البولشفيك » ـ وقصـــدت مظاهرة حزب العمال الاشتراكـــي (موبس) ـ الشـــرارة التي أشعلـــت موجة الاصطدامـــات ٠٠

ومـــع هذا اضطرت اللجنة الى أن تنفي التأكيد الصهيوني القائـــل بأن « الافندية » هـــم الذين يحرضـــون « الجماهيـــر غير المتعلمة » لانهم يأسفون كثيرا لـــزوال الحكم التركـــي ولان الادارة البريطانية الحاليـــة قد قضت على منافعهم الشخصية !!!

وتوصلـــت اللجنة الى أن اتساع الاضطرابات وامتدادهـــا من يافا الى منطقتها يؤكـــد أن الجماهير العربيـــة قلقـــة من سياســـة الوطن القومي اليهودي وتعتبـــر المهاجريـــن خطرا

أقتصاديا عليها ..

ولاحظت اللجنـــة أن الصهيونيين يقاطعون العـــرب .. والتاجر اليهودى لا يشتري من العربى . ومضت تؤكـــد ان الهجرة اليهودية لاقت اعتراضات اقتصاديـــة من العمال وأصحـــاب الصنائع .. وأضافت : لو كان المهاجرون يوزعـــون حين وصولهم على المستعمرات اليهودية الزراعية لما أثر مجيئهم على طبقـــة العمال في يافا وسائر مدن فلسطين .. فقدوم المهاجرين بكثرة ومزاحمتهم السكان الاصليين يثيران قلـــق العمال .. وذكـــرت اللجنـــة - ما أصبح ممارسة يوميـــة - أن الصهيونيين ضغطـــوا عـــلى صاحب أراضي في ريشون لتسيون وأكرهـــوه على استبـــدال العمال العـــرب بيهود ..

وبـــدون الاعتماد على استنتاجات اللجنـــة كان من الممكن رؤيـــة ممارسة الصهيونية سياسة احتـــلال الارض والعمـــل مما جعـــل أمر التعـــاون بين العرب واليهـــود على الصعيـــد الشعبي غير ممكن ، فلم يكن ممكنا أن يتم التعاون بين العمال العرب واليهود ما دام خط المنظمة النقابية اليهودية والصهيونية احتـــلال العمل وطـــرد العمال العـــرب ، الذين يعملون في المزارع أو الاشغال التي يمتلكها اليهود .

ومممـــا زاد الازمـــة حدة ، تواتر تصريحات الصهيونيـــين حـــول أهدافهـــم النهائية .

حتى « جويش كرونيكل » البريطانية كتبت في ٢٥ أيار ١٩٢١:
« ان الحل الوحيـــد لمسألة فلسطين هـــو اعطاء اليهود كيهود تلك الحقوق والامتيازات في فلسطين التي تمكنهم من جعلها يهودية كما ان انكلترا انجليزية وكندا كنديـــة » ..

أما فلاديمير جابوتنسكي فقد كان يدعو الى اقامة الدولة اليهودية ويعتبر الجيش اليهودي الذى كان يحاول بناءه من الفرقة اليهودية التي اشتركت في الحرب العالمية الاولى أمرا ضروريا لتحقيق ذلك ٠

وكان الدكتور وايزمن حين ظهر في مؤتمر الصلح أو مجلس العشرة في فرسايل في عام ١٩١٩ قد قال ردا على سؤال وزير خارجية الولايات المتحدة روبرت لانسنغ عما يقصده من تعبير « الوطن القومي اليهودى » :

« اقامة ادارة تنشأ من ظروف البلاد الطبيعية ٠٠ بأمل أن تصبح فلسطين نهائيا عن طريق الهجرة يهودية مثلما بريطانيا بريطانية » ٠

وقرر المؤتمر الصهيوني في كرلسباد في أيلول عام ١٩٢١ توصية لجنة العمل باتخاذ كافة الاجراءات مع سائر الهيئات « لتنظيم الشعب اليهودي لبناء فلسطين وطنا قوميا لليهود » ٠

ومن الناحية الاخرى رافق الاضطراب الناجم عن معاداة العرب الامبريالية والصهيونية نشاط سياسي اتخذ شكل وفد قومي تألف من أسياد أرض وبرجوازيين تجاريين (موسى كاظم الحسيني وتوفيق حماد وأمين التميمي وابراهيم الشماس ومعين الماضي وشبلي الجمل) وزار بريطانيا ليعرض قضية البلاد على المسؤولين البريطانيين ٠٠

وطالب هذا الوفد بتحقيق الوعود البريطانية باستقلال فلسطين والغاء وعد بلفور ٠٠ وبذلك عكس مطالب الجماهير على الرغم من طابعه الطبقي ٠٠

وفي هذا الوقت بالذات كتب الزعيم الصهيوني الدكتور وايزمن رسالة الى وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل جسد بحدة قاسية طبيعة الصهيونية ·

كتب في تموز عام ١٩٢١ :

« لم أندم أبدا على ثقتي بكلمة بريطانيا العظمى ولكن وضعي المزدوج بوصفي زعيما لحركة عالمية (الصهيونية) وبوصفي مواطنا بريطانيا يخضع آمال الصهيونية لبلاده (بريطانيا) هو وضع فيه حرج ·· هناك حلف طبيعي بل تماثل في المصالح تام تقريبا بين الصهيونية وبريطانيا ·· »

ثم كتب في هذه الرسالة :

« لو لم تكن هناك فلسطين لكان من الضروري حسب اعتقادي خلقها في مصلحة الامبريالية فهي قلعة مصر ·· » واضاف أن بريطانيا تصون مصالحها عن طريق الاستيطان الكولونيالي اليهودي بأرخص ما يمكن ·· (كتاب أمة تبعث بقلم ريتشارد كروسمان ـ ص ١٢٥ ـ ١٣١)

وهكذا وجدت بريطانيا نفسها أمام وضع لا ندري اذا كانت قد توقعته بحذافيره منذ البداية ·· لقد وجدت نفسها أمام :

* حركة قومية عربية تنمو بازدياد (١) وتتضامن معها الحركات القومية في العالم العربي وتناضل من أجل

---

١ ـ اتصل الوفد الفلسطيني المذكور اثناء وجوده في اوروبا بوفد الاتحاد السورى في جنيف وعقدا مؤتمرا قررا فيه مطالبة عصبه الامم بالاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريه والبنان وفلسطين والاعتراف بحق فلسطين في الاتحاد مع باقي الدول العربية والغاء الانتداب ووعد بلفور وجلاء الجيوش عن سوريا والبنان وفلسطين ·

الاستقلال والغاء وعد بلفور ، والاتحاد مع الاقطار العربية .

* ومنظمة صهيونية ترتبط بالامبريالية البريطانية باوثق رباط وتخدم الاستراتيجية الامبريالية في المنطقة والقارة الاسيوية عامة أجل خدمة .

وتحت ضغط الحركة القومية العربية وفي سبيل تحقيق الموازنة بينها وبين الصهيونية وتأكيد سياسة فرق تسد أصدرت الحكومة البريطانيا كتابا أبيض في ٢٢ حزيران عام ١٩٢٢ أذاعه وزير المستعمرات ونستون تشرشل .

والكتاب الابيض مثل كلاسي على هذه الموازنة التي برعت فيها بريطانيا ..

فقد جاء فيه : يعود التوتر في فلسطين الى مخاوف جالت في خواطر اليهود والعرب .. أما مخاوف العرب فتعود الى التفاسير المبالغ فيها لمعنى وعد بلفور سنة ١٩١٧ ... اذ ظهرت تصاريح غير رسمية بأن الغاية من ذلك جعل فلسطين يهودية بجملتها غير أن حكومة جلالة الملك تنظر الى هذه الامال على انها غير قابلة التطبيق وانها لا تفكر في وقت من الاوقات باخضاع أو محو السكان العرب أو قتل لغتهم وآدابهم في فلسطين .

أما فيما يتعلق بالسكان اليهود فالظاهر أن بعضهم خامره الشك في أن حكومة جلالة الملك قد تتخلى عن سياستها التي تضمنها تصريح بلفور .. ومن الضروري التأكيد أن لا أساس لهذه المخاوف .

ومضى الكتاب الابيض ففسر معنى الوطن القومي اليهودي

.. ونفى أنه يفرض الجنسية اليهودية على العرب أو يحرم سكان البلاد عملهم . فالقصد أن « يصبح لليهود في فلسطين مركزا يكون موضع اهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينية والقومية » .

وأعلنت الحكومة البريطانية في هذا الكتاب الابيض ، الاول من سلسلة ، نيتها اقامة حكومة ذاتية واسعة وذلك بتأسيس مجلس تشريعي يتألف من المندوب السامي رئيسا وعشرة أعضاء منتخبين وعشرة أعضاء رسميين (معينين) .

وفي هذا الوقت بالذات تأكد عامل قام بدور كبير فيما بعد ـ تأييد الولايات المتحدة الامريكية الوطن القومي .

ففي ٣٠ حزيران عام ١٩٢٢ أقر الكونغرس قرارا ينسب فيه اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على أن لا يصاب بالضرر السكان الاصليين ..

ومع هذا اعتبرت الحركة القومية العربية الكتاب الابيض تراجعا الى حد ما .

وهذا هو تقدير ريتشارد كروسمان (من زعماء حزب العمال الان وعضو اللجنة الانجلو ـ أمريكية في عام ١٩٤٦) .

وقد سأل في كتابه « أمة تبعث » : ماذا حدث بين عام ١٩١٧ (وقت الوعد) وعام ١٩٢٢ (موعد الكتاب الابيض) وأجاب :

« في السنوات الخمس الحاسمة بين وعد بلفور والانتداب وقع حادثان بشرا بنهاية سيادة أوروبا على العالم وبداية عهد تصبح فيه بريطانيا منطقة في السياسة الدولية

بين غيرها » ·· والحادثـــان : ثـــورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى وشيوع فكـــرة حـــق تقرير المصيـــر ··

الا أن التغييـــر لم يكـــن حاسمـــا بحيث يلغي الامبريالية البريطانيـــة ·· وهكـــذا فبعد شهر تقريبـــا على الكتاب الابيض صادق مجلس عصبة الامم على نظام الانتداب على فلسطـــين ·

الفصل الثامن

نظام الانتداب والممارسة الصهيونية

في ٢٤ تموز ١٩٢٢ صادق مجلس عصبة الامم على نظام الانتداب على فلسطين وفي ٢٩ أيلول ١٩٢٣ سرى مفعول هذا النظام رسميا على البلاد

وبذلك انتهت المماحكات بين الدول الكبرى حول تقسيمات التركة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى ·· واكتسبت بريطانيا التي كانت تسيطر على فلسطين فعلا منذ أن احتلتها قواتها عام ١٩١٧ « حقا شرعيا دوليا » ! في البلاد ··

وأصبح في وسعها أن تمارس « وعد بلفور » باعتباره جزءا لا يتجزأ من نظام الانتداب ··

وفي هذا الاطار لا يمكن اعتبار نظام الانتداب مجرد وثيقة شكلية منحت بريطانيا « الوجود الشرعي الدولي » في فلسطين ، فقد وضع هذا النظام الاسس لاقامة ما وصفته لجنة بيل الملكية البريطانية ـ التي حققت في فلسطين عام ١٩٣٧ ـ « حكومة داخل حكومة » ·· حين استوحت نصوصه مفهوم وعد بلفور ·

وهكذا أكد البند «ج» من المقدمة مسؤولية بريطانيا ، الدولة المنتدبة ، على وضع تصريحها في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ موضع العمل « تنفيذا لانشاء وطن قومي في فلسطين للشعب

اليهودي » • فبذلك يتم « الاعتراف بما للشعب اليهودي من الصلة التاريخية بفلسطين وبموجبات اقامتهم من جديد لوطنهم القومي في تلك البلاد » (البند د من المقدمة) •

ولم يكتف نظام الانتداب بهذه المقدمة ، بل دعا في الفقرة (٤) الى الاعتراف بوكالة يهودية تنصح ادارة فلسطين وتتعاون معها فيما قد يؤثر فى انشاء الوطن القومي اليهودى ومصالح السكان اليهود •• كما أكد في الفقرة ٦ أن على ادارة فلسطين أن تسهل الهجرة اليهودية في أحوال مناسبة « وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار اليها في الفقرة (٤) استقرار اليهود المتراص على الارض ومنها ما لا يحتاج اليه للمقاصد العامة من أراضي الحكومة والاراضي البور » •• (١)

كذلك نصت بنود الانتداب هنا وهناك على ضرورة تجنب ما من شأنه أن يجحف بالمجتمعات « غير اليهودية » القائمة في فلسطين وعلى صيانة حقوقها المدنية والدينية •• ولكن مجرد الاصطلاح « غير اليهودية » عمق الوعي بتجاهل الامبريالية البريطانية والصهيونية حقوق الشعب العربي القومية بل بمجرد وجود ذلك الشعب أصلا ـ من ناحية ، وأكد خضوع حقوق « غير اليهود » المدنية والدينية لعملية بناء الوطن القومي اليهودي ••

فالفقرة (٢) وضعت على بريطانيا مسؤولية « وضع البلاد في ما يضمن انشاء الوطن القومي اليهودى » •• كما وضعت عليها مسؤولية « تطوير منشآت الحكم الذاتي » •

---

(١) اخذنا نصوص الانتداب مترجمة الى العربيه من كتاب وديع البستاني الانتداب الفلسطيني باطل ومحال بعد أن دققنا فيصحتها•

ولكـــن الامر المقرر لم يكن تطوير منشآت الحكـــم الذاتي بـــل انشاء الوطن القومي،ولذلك فشلت المحاولة الاولى لاقامـــة المجلس التشريعي عام ١٩٢٢ ، وفشلت بعدها المحاولات التـــي جرت لاقامة حكم وطني في البـــلاد ، رسمية كما كانت في عـــام ١٩٢٦ ، وغير رسمية كما في عام ١٩٢٩ ٠٠

ويذكـــر محمد دروزة في كتابه « حول الحركة العربيـــة الحديثـــة » في هذا الصدد أن مساعد السكرتير العام ملز اتصل في عام ١٩٢٦ ببعض القوميين العـــرب وبينهم (الكاتب ورفيـــق التميمي وعمر الصالح البرغوثي ورشيد الحاج ابراهيم ومعـــين الماضي ٠٠) وباحثهم بشأن تعديلات دستورية تخلق الظروف لاقامة حكم وطنـــي ، واقترح عليهم اقامة هيئة تمثيلية عربيـــة لهـــذا الغرض ٠٠ وفعلا عقدوا المؤتمر القومي العربي السابـــع في حزيران ١٩٢٨تحقيقا لذلك ولكن تعارض الحكم الوطنـــي مـــع مصالـــح الامبريالية والصهيونية جمـــده وانتهى أمره ٠٠

هـــذا على الرغـــم من أن القوميين العـــرب الذين باحثهم ملز قبلوا بمبدأ تعيين نصف اعضاء مجلس الاعيان وانتخاب مجلس النواب ٠٠ وأقروا تعهدات بريطانيا الدولية ، واكتفوا بأن ينص الدستور على تحفظ جاء فيه « ان أهالي فلسطين لم يستشـــاروا فيما اتخذته حكومة بريطانيا من تعهدات دولية بشأن بلادهم » ٠٠

واقتـــرح العـــرب ـ وهذا الذي على ما يبدو دعا المندوب السامي الى القـــول أن بعض المقترحات متعذر العمـــل بها ـ أن يكون أمر الهجـــرة اليهودية بقرار يوافـــق عليه البرلمان تراعي فيه مصالح الاهالي العـــرب والبلاد الاجتماعيـــة والصحيـــة والاقتصادية والاخلاقية والسياسية والدينيـــة (الجـــزء الثالـــث

ص ٥٤ و ٢٧٣ ـ ٢٧٥)

أما المحاولة غير الرسمية فقد أجراها الوكيل البريطاني المعروف ، الذى قام بدور كبير في العربية السعودية جون (عبد الله حين أسلم) فيلبي ٠

ففي تشرين الاول ١٩٢٩ وصل الى البلاد ، بعد أن اجتمع مع بعض قادة الحركة القومية العربية في سوريا ، يحمل مشروعا لتسوية القضية الفلسطينية عرضه على القوميين العرب في فلسطين وباحثهم بشأنه وتوصل معهم الى اتفاق يمكن تلخيصه على الوجه الاتي :

* تدار فلسطين على أساس جمهوري دستوري ديمقراطي٠٠

* الهجرة حرة وخصوصا للعرب واليهود مع اعتبار مصالح البلاد وطاقتها ٠

* تكمن السلطة التشريعية بكاملها في مجلس ينتخبه المسلمون والمسيحيون واليهود ٠

* تكون السلطة التنفيذية في مجلس وزراء فلسطيني يتألف من عرب ويهود بموجب نسبتهما ويجري التوظيف في المناصب العالية على الاساس النسبي

* يتحمل المندوب السامى البريطاني مسؤولية الامن حتى تغدو حكومة فلسطين قادرة على القيام بهذا العبء حسب رأى عصبة الامم ٠

* يحق للمندوب السامي نقض « فيتو » أي قانون يتعارض مع التزامات بريطانيا الدولية أو يجحف بحقوق الاقليات أو الاجانب أو يتنافى مع مصالح البلاد (!) ٠٠ وعندئذ يحق للحكومة أن ترفع الامر الى عصبة الامم ٠٠ (المصدر ذاته ص ٥٩ ـ ٦١)

وهكـــذا ، فعلى الرغم من أن الحكم الوطني كان حكما وطنيـا كاريكاتوريا الى حد كبير من حيث خضوعه لبريطانيا ٠٠ فقـــد « مات » مسودة على الورق قبل أن يصـــل الى درجـــة المباحثـات الرسمية ، لتعارضه مع المصالح الامبراطورية ، كمـــا فرضتهـــا ظروف ذلك العصر ومـــع المشروع الصهيونى كما صاغـــه نظام الانتـــداب

وبهذا الشكـــل اصطـــدم الانتداب البريطاني والمشـــروع الصهيونى اصطداما مباشرا مستمـــرا مع أماني الشعب العربـــي في فلسطين في التحرر والاستقـــلال ، ولم يكن من الممكـــن حتى الخطو خطوات اولى في هذا السبيـــل واقامة حكومة محلية كمـــا كان الحـــال في الاقطار العربيـــة المجاورة امتدادا من العـــراق حتـــى مصر ٠

لقد كان كـــل مشروع تعديلات دستورية يصطـــدم كذلك بعالمية الصهيونية ٠٠ أو بأيديولوجيتها حـــول تعريف الشعـب اليهودي بوصفه « شعبا عالميا » ٠٠ فالصهيونيون كانوا يعتبـــرون فلسطين وطنا « قوميا » للشعب اليهودي بأسره ولذلك أقامـــوا الوكالة اليهودية على هـــذا الاعتبار ، ولم يكـــن من الممكـــن أن يقبلوا تمثيلا يقوم على أساس القائم في فلسطيـــن بـــل عـــلى أساس ما سيكـــون ٠

وهذا ما أكـــده بن غوريون حين عالج مقترحات المجلس التشريعي التي جاءت في كتاب أبيض جديد صدر عام ١٩٣٠ قال :

« نصـــادق على تغييرات دستورية تهدف الى اعطـــاء السكان قسطا من الادارة ولكننا نرفض بـــلا هـــوادة المجلس التشريعي الذى اقترحـــه الكتاب الابيض ٠ ونعد اليهودية (العالمية أ٠ت)

والعمال والامـــة العربيـــة أن لا نقبل أبدا بأن يسيطـــر فريق قومي واحد في فلسطين على الاخر الان أو الى الابـــد . واذا كنـــا لا نقبل فكـــرة دولة يهودية حيث يحكم اليهود العرب ، كذلـــك لا نقبل ازدواجية القومية في سويسرا أو كندا .. فالحقـــوق في فلسطين لا تعود كما هو الحـــال في ذاكين القطرين الـــى المواطنين الحاليين يهود كانوا أم عربا ، فالجوهـــر حـــق عـــودة اليهود المشتتين ، حق اعادة البناء والتطويـــر والحرية والسيـــادة بدون الاجحاف بحقوق الاخرين أو السيطرة عليهم » (ولادة اسرائيل مجددا ومصيرها دافيد بن غوريون مجموعـــة خطابات ومقـــالات ١٩٥٤ ص ٣٨) .

وفي الوقت ذاته منح الانتداب في فقرته الخامسة والعشرين بريطانيا سلطـــة استثناء « الاراضي الواقعة شرقي الاردن » مـــن سريان وعد بلفور وبقيامها بذلك لاغراض استراتيجيتها في المنطقة استنفرت احتجاج المنظمة الصهيونية التي اعتبـــرت ذلك تقليصـــا اقليميـــا لبرنامجها ..

الصهيونية في الممارســـة

ولكـــن لا يمكن القول أن القادة الصهيونيين الواقعيين توقفوا كثيرا عند استثناء شرقي الاردن من سريان مفعول وعد بلفور الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من الانتداب .. ولعلهم وافقـــوا الكاتـــب ج.س هورفيتس في كتابه « النضـــال من أجـــل فلسطين » حين كتب أن حدود الوطن القومي لم يتحـــدد أبدا .

« فالحدود النهائية ، بداهة كان سيقررها في الدرجـــة الاولى (١) الاسلوب الذي ستستخدم فيـــه بريطانيا صلاحياتهـــا الواسعة (٢) ومـــدى تجاوب الصهيونيين مع فرصهم (٣) ودرجـــة

مقاومة العرب » (ص ١٩) ٠

ولا جدال في أن الاسطورة الامبريالية ـ الصهيونية القائلة بتلاشي مقاومة العرب لنظام الانتداب والمشروع الصهيوني الكولونيالي ، مع الايام ، هدفت في الاساس الى تضليل الرأي العام الذى لم يكن يقبل بسهولة اقامة وطن قومي على حطام شعب اخر وحقيقة كون المشروع الصهيوني مشروعا يقيم وطنا قوميا على حطام شعب اخر ظهرت في السنوات الاولى من الانتداب ٠٠ فالفترة الاولى حسمت وجهة التطور ٠٠ وجسمت الممارسة الصهيونية ٠٠ وقررت لذلك العلاقات اليهودية العربية ٠٠

ولمقاصد هذا البحث من الممكن اعتبار الفترة الاولى ، امتدادا بين المصادقة على نظام الانتداب والاصطدامات الدامية في عام ١٩٢٩ وما أعقبها من كتاب أبيض صدر في ١٩٣٠ ٠

فما هي أبرز أحداث هذه الفترة وملامحها

أولا : نمو السكان ففي حين توزع السكان بموجب احصاء ١٩٢٢ على الوجه التالي : ٦٦٠ ألف عربي و ٨٣ الف يهودي أصبح توزيعهم في ١٩٢٩ ، ٧٥٧ الف عربي و ١٦٤ ألف يهودي ٠

ثانيا : برزت حقيقة « مثالية » الدعوة الصهيونية ٠٠ من حيث انها دعوة « تحرك » الجماهير اليهودية في مختلف أقطارها ٠٠ فلم تكن المثالية القومية هي الدافع المقرر للهجرة اليهودية الى فلسطين بل الحاجة الى اللجوء الى مكان أمين أو الى قطر يفور بالممكنات الاقتصادية هي المحرك ٠٠ ولهذا تأرجحت الهجرة حيال الصعوبات الاقتصادية ٠٠ وفي حين كان المهاجرون منها حوالي الالفين زاد في عام ١٩٢٧ عدد المهاجرين من فلسطين الذين دخلوا فلسطين في عام ١٩٢٥ حوالي ٣٤ ألفا ، والمهاجرون

على الذين دخلوا اليها بنسبة الضعف (٢،٧١٣ دخلوا البلاد و ٥،٠٧١ خرجوا منها) ٠

ثالثا : وخلال هذه السنوات تحولت الهستدروت التي قامت فى عام ١٩٢٠ لتكون أداة العمال اليهود في النضال الطبقي الى أداة لتنفيذ سياسة العمل العبري أو احتلال العمل من العمال العرب الذين يعملون في المزارع والمنشآت اليهودية ومن هنا أصبحت أداة ممارسة المخطط الصهيوني الاساسية ٠٠

وفسر ولتر بريوس في كتابه « حركة العمال في اسرائيل » هذا الامر بقوله « ان الجماهير الواسعة من العمال غير المنظمين (وأكثرهم من العرب) ألفوا هيئة منافسة ومارسوا ضغوطا على شروط العمل التي فاز بها العمال المنظمون مما جعل « الاعتراف القانوني » بمبدأ الاحتلال محتوما وضروريا » (ص ٩٠) ٠

وكان س٠ليفنبرغ في كتابه « اليهود وفلسطين » أكثر صراحة فكتب « ان على العمال اليهود أن يدافعوا عن أنفسهم ضد استبدالهم بعامل عربي رخيص وغير منظم ٠٠ ويعتقد زعماء العمال اليهود ان على العمال العرب في الوقت الحاضر أن يستخدموا لا في الاقتصاد اليهودى ، بل فى القطاع العربي والحكومي » (ص ٦٦) ٠

وأكمل أ٠س والدشتين الصورة في كتابه « فلسطين العصرية » فكتب يفسر احتلال العمل باعتباره عملية المحافظة على النفس :

« فاليهود لا يزالون أقلية في فلسطين ٠ ومستقبلنا أن نصبح أكثرية فيها ٠٠ وحتى نحقق ذلك الهدف لا نستطيع أن نسمح للعامل العربي أن يهيمن فى الزراعة والصناعة على

حساب العامل اليهودي وبذلك نهدد مستقبلنا بذاته في فلسطين » . (ص ١٤٠) .

وبدون الاستشهاد بعدد اخر من الكتاب نستطيع القول أن هدف احتلال العمل كان خلق ممكنات أوسع لاستيعاب المهاجرين الجدد وتعميق الانعزالية اليهودية عن الشعب العربي في البلاد .

ويكتب تيفنبرغ أن العمال اليهود كانوا ينفذون سياسة قومية متكاملة لم يجدوا فيها ادنى تناقض مع البرجوازية اليهودية (الصهيونية) الا بقدر استخدامها العمال العرب الارخص !

والامر المقرر فى نهاية المطاف أن قادة العمال الصهيونيين وضعوا أسس الفرقة بين العمال العرب واليهود وعمقوها مع الايام ، وكانت مزاعمهم حول التعاون العمالي في المؤتمرات الدولية (النقابية والسياسية العمالية) مجرد ذر رماد في العيون ..

رابعا : كذلك كان الاستيطان الزراعي الصهيوني انعزاليا عن الفلاحين العرب وعلى حسابهم في حالات كثيرة ..

ودلت احصاءات الحكومة على أن عدد المستوطنات الصهيونية بلغ في عام ١٩٢٢ ، ٧١ مستوطنة كما بلغت مساحة الملكيات اليهودية ٥٩٠٠٠٠ دونم ..

ونما عدد المستوطنات فأصبح في عام ١٩٢٧ ٩٦ مستوطنة واتسعت مساحة الملكيات فأصبحت في السنة ذاتها ٩٠٣٠٠٠ دونم . (تقرير حكومة فلسطين ص ٣٧٣) .

ومع هذا فاتساع الملكيات الصهيونية تم بشراء أراضي أسياد الارض (وفي حالات عينية أسياد أرض غائبين) وبتشريد

المزارعين العرب الذين كانوا يقتاتون من كدحهم فيها ٠٠

ويعترف وايزمن في كتابه « التجربـــة والخطأ » بأن المنظمات الصهيونية اقتنت ٨٠ ألف دونم من سهل مرج بن عامر من عائلـــة أسياد الارض الغائبين في لبنان عائلة سرسق وقد كانت عليهـــا بضعة قرى عربيـــة ٠٠ ولكنه يزعم أن هذه القرى العربيـــة كانت « نصف مهجورة » ! بسبب الملاريا (ص ٢٥٣) ٠

وبتأييد جهاز الادارة البريطانية حولت الصهيونية هـــذه القرى « نصف المهجورة » الى قرى مهجورة تماما ومسحتها عـــن الوجود ٠٠ أما أهلها فكانوا المشردين الاوائل من الشعب العربـــي الفلسطيني وان لم يتركوا البلاد انـــذاك ٠

لقد زعـــم الصهيونيون اليساريـــون أنهم كانوا يقيمـــوا استيطانا زراعيا اشتراكيا في فلسطين ولهذا كانوا يقيموا مجتمعـــا أرقـــى !

فما هي حقيقة « اشتراكية الاستيطان الزراعي » ؟

في دراسته « القـــوى الاجتماعيـــة في فلسطين » تعرض أبراهام ريفوسكي الى هذه القضيـــة وكتب :

« مع أن المؤتمرات الصهيونية الاولى سيطرت عليها الطبقات الوسطى اليهودية و « المثقفون » فقد صادقت على مبدأ تأميم الارض باعتبارها أهم أساس للدولة اليهودية في المستقبل ٠٠ وبمصادقتها على مبدأ تأميم الارض وبموافقتها على التجربة الاجتماعية الجريئـة في التعاون الزراعي لم تتأثر المؤتمرات الصهيونية بالنظريـــات الاشتراكيـــة ، بل بالضرورة القوميـــة » ٠

ومضى الى القول أن هذا الشكـــل كان ضروريـــا لان الملكية الفردية في الارض أصبحت عقبـــة أمام اتساع الهجـــرة ، ولان

استخدام الايدي العاملة العربية الرخيصة في المزارع اليهودية كان يهدد المشروع الصهيوني بأسره (باعتباره مشروعا قوميا انعزاليا متعصبا أ٠ت) ـ ص ٥ ـ ٧ ٠

ثم هناك الحاجة الى المثالية ٠٠

فالدعوة الصهيونية واجهت الدعوة الشيوعية الثورية ، وخاصة في روسيا القيصرية ، وأرادت التغلب عليها من أجل جذب العمال اليهود الذين انخرطوا فيها ٠٠ ولهذا كان لا بد للصهيونية من أن تخضع توق العمال اليهود الى المجتمع الاشتراكي لاغراضها ووجدت أن الدعوة الى التعاون الزراعي تؤدي هذا الدور ٠٠ فيتحقق الاستيطان اليهودى رغم المقاومة العربية ٠٠ ويمد المستوطنين بالمثالية ٠٠ ولا يضر المشروع الصهيوني الرأسمالي في قاعدته وأيديولوجيته القومية المغالية في الانعزالية الرجعية ٠

وهذا يفسر لماذا « عطف » وايزمن ممثل البرجوازية في الصهيونية وقائدها لاكثر من ثلث قرن على التعاون الزراعي ٠٠

ويكتب ريتشارد كروسمان في « أمة بعثت » ان وايزمن لم يكن يأبه بتنديد المتمولين اليهود بالكيبوتسات اعتقادا منه انها حل مؤقت ٠٠ (ص ٣٥) ٠

وهذا ما لاحظه موريس أيدلمان في كتابه « بن غوريون سيرة حياة سياسية » حين كتب : ان بن غوريون بعد قيام الدولة أراد ان يجذب الى البلاد رؤوس أموال غربية ، وهذا خلق تعقيدات للحركة العمالية التي قاومت الرأسمال المالي وأرادت اقامة نظام مساواة تعاوني ٠٠ وأضاف ٠٠ ولكن حاجات التطوير «اضطرت» بن غوريون الى أن يمنح المستثمرين فرصا لتوظيف أموالهم

وهكـــذا « انتهـــى الحلم الريفي » ٠٠ (حلـم المساواة التعاونية) (ص ١٦٥) ٠

خامسا : وينتسب الى هذه الفترة التي كما قلنا حـــددت مسيرة التطور تأسيس قوة الصهيونية العسكريـــة الضاربـــه التى عرفت بالهجانا (الدفاع) ٠

أما موريس بيرلموتر في كتابه الحديث « العسكرية والسياسة في اسرائيل » فيعـــود الى الطوائف اليهودية المشتتة ليرسم تطـور القوة العسكرية الصهيونية التي أقيمت في فلسطـــين (ص ٤) ٠

كذلك يعتقد يغئال ألون أحد القادة العسكريين في القـــوة العسكرية الصهيونية في كتابه « بناء الجيش الاسرائيلى » ان البداية كانت في عـــام ١٨٩٠ ٠

ولكـــن بن غوريون الذى يمكن الاعتماد عليه يضع البدايـة في تعاونيـــة « شجرة » في العقد الاول من القرن العشريـن ٠٠ ويصف باسهاب كيف نجح في اقنـــاع المسؤولين في التخلص من الحارس الشركسي واختيار حارس يهودي ٠٠

ومـــع هذا فالاتفاق كامـــل على أن قوة « الدفاع » الهجانا تأسست (أو نمت من حركة الحراس) في ١٩٢٠ ٠ وكانـــت في البدايـــة تحت اشراف الهستدروت ٠

ويقـــول بن غوريون في محادثاته مع موشي بيرلمان في كتاب « بن غوريون ينظر الى وراء » ان اسم المنظمـــة في البدايـــة كان « فرق الدفاع والعمل » (جدود هاجناه فهعبودا) ٠ وكانـــت الاشارة اليها في البدايـــة فرق العمل ـ بحـــذف الدفاع ٠٠٠ ولكن باتساع فرق الـــدفاع وازدياد قوتها أصبحت تعرف بالهجانا ولصـــق بها الاسم ٠٠ ويضيف ان هذه القـــوة الدفاعيـــة

الضاربة انتقلت من اشراف الهستدروت الى اشراف المجلس القومي اليهودي في عام ١٩٣٠ (ص ٥٥ ـ ٥٦) ٠

وفسر بن غوريون في هذا الكتاب الاسباب التي دعت الى اقامة الهاجانا فقال : للدفاع عن المستوطنات ٠٠ واضاف ولم يكن من الممكن الاعتماد على الانتداب للدفاع عن هذه المستوطنات التي انتشرت في البلاد ٠٠ اذ ان ذلك كان يعني أن تصبح المقرر في عددها ومواقعها ٠٠ (ص ٥٧ ـ ٥٨) ٠
وهكذا فقوة « الدفاع » الضاربة لم تكن قوة دفاع بالمعنى الحقيقي بل قوة هجوم ترافق الاستيطان الصهيوني الذى كان يجري حسب خطة مرسومة تأخذ بعين الاعتبار طاقة الصهيونية المالية والبشرية ٠

ويتضح من هذه الملامح أن الاصطدام مع الشعب العربي لم يكن محتوما فحسب ، بل ان الصهيونية خططت له منذ البداية ٠٠ امتدادا من جلب المهاجرين الى اقامة قوة ضاربة تزرع قلاعا زراعية لا مجرد مستوطنات يعيش أفرادها على الزراعة ٠٠

سادسا : ومما جعل الهجوم يشمل جميع الجبهات قيام الصهيونيين بالتصنيع ٠٠ لقد كان فى بدايته في هذه الفترة ، الا أنه كان يوحي بالمستقبل خصوصا بعد ما منحت سلطة الانتداب امتياز الكهرباء لشركة تأسست في لندن برأسمال مشترك وعرفت بشركة روتمبرج ٠٠

الفصل التاسع

الحركة القومية العربية

اعتبرت الحركة القومية العربية في فلسطين المؤتمر العربي السوري العام الذى عقد في دمشق في ٨ حزيران ١٩١٩ ـ واشترك فيها رجالات العرب من فلسطين أو سوريا الجنوبية كما كانت تعرف آنذاك ـ مؤتمرها الاول ..

وحين عقد الوطنيون العرب من فلسطين مؤتمرهم الثاني في دمشق في ٢٧ شباط ١٩٢٠ ، صدروا عن الاقتناع بوحدتهم مع الحركة القومية العربية في سوريا الطبيعية وترابط مصيرهم مع مصيرها .. ولهذا تلخصت قراراتهم في :

* ان أهالي سوريا الشمالية والساحلية يعتبرون سوريا الجنوبية « فلسطين » قطعة متممة لسوريا .

* وهم يرفضون الهجرة الصهيونية لخطرها على كيانهم السياسي ويرفضون جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود .

* ويعدون حركتهم الوطنية القائمة في البلاد للمطالبة باستقلال سوريا بحدودها الطبيعية وكما انها موجهة لاخراج المحتلين من الساحل (لبنان) ، كذلك هي موجهة لاخراج المحتلين من فلسطين .. (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ٣٤) .

وهنـــا يظهر ما لاحظناه من قبـــل بشأن تأثير تقسيـــم الامبريالية الولايات العربيـــة العثمانية ، في أعقـــاب الحـــرب العالمية الاولى ، الى أجـزاء على الحركة القوميـــة العربيـــة ٠٠

فالوقائـــع حتى في هذا الوقت المبكـــر فرضت نفسها على هذه الحركة ، فاجتمـــع رجالات فلسطين على حـــدة وعالجـــوا قضية ولايتهم العينيـــة ٠٠ وانطلاقهم من وجهة نظـــر عربيـــة سورية عامة وشعورهم بالخطـــر على اقليم فلسطـــين عمـــق التناقض الواضح بين الاقايميـــة والعروبـــة ٠٠ وكان بمثابـة محطة انتقـــال فصلت بين الوطنيين ودفعتهـــم الى اقامة حركـات قوميـــة مستقلـــة في ولايتهم ، التي تحولـــت الى أقطار تسيطر عليها الدول الامبريالية ٠

واذا كان من الممكـــن اعتبار المؤتمر الثاني محطـــة انتقال ٠٠ فمن الممكـــن اعتبار المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث الـــذي عقد فى حيفا في ١٤ كانـــون الاول ١٩٢٠ بدايـــة التنظيـــم القومي الفلسطيني ٠٠

لقد عقـــد المؤتمر بعد نكبـــة ميسلون وانهيار الحكومـــة العربيـــة فى دمشق تحت ضغط الاحتـــلال الفرنسي ٠٠ ولهـذا كان عليه أن يأخـــذ بعين الاعتبار الواقـــع الناشيء بحذافيـــره ويكيف النضال القومي حسب الاوضاع الجديدة ٠٠

وهكذا قرر المؤتمر العربي الفلسطينى الثالث رفض وعد بلفور والمطالبة بمنع الهجرة اليهودية وبانشاء حكومة قومية في فلسطين ٠ وفي الوقت ذاتـــه انتخب المؤتمر لجنة تنفيذيـــة برئاســة موسى كاظم الحسيني ، كانت بمثابـــة قيادة الحركة القوميـــة في تلك الفترة ٠٠

ثم عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابـــع في القدس في ٢٥ حزيران ١٩٢١ بعد المجابهـــة الاولى التي وصفناها وقرر ارســال الوفد العربي الفلسطيني الاول الى لندن وتألف من موسى كاظـــم الحسيني وتوفيق حماد وأمين التميمي ومعين الماضي وابراهيـــم شماس وشبلي الجمل ٠٠ وعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس في ٢٢ آب ١٩٢٢ للاستمـــاع الى بيان الوفــد ومقترحـــات الحكومة البريطانيـــة حول المجلس التشريعي المقترح ٠٠

وقرر هذا المؤتمـــر :

١ ـ مقاطعة الاشتراك في انتخابات المجلس التشريعي ٢ ـورفض القرض الذى تنوي الحكومة عقده لمقاصد القيام بمنشآت وتطويـر البلاد ! ٣ ـ ومقاطعة اليهود مقاطعة تامة ٤ ـ وضع ضريبة عـــلى جميع أبناء العرب في فلسطين للقيام بالدفاع عن قضية البــلاد و ٥ ـ ارسال بعثة الى جزيرة العرب و ٦ ـ تأسيس مكتب دعايــة في لنـــدن ٠٠

ووضـــع المؤتمر ميثاقا بقي دستور الحركـــة القوميـــة العربيـــة الفلسطينية في مسيرتها ، وجاء فيـــه :

« نحن ممثلي فلسطين أعضاء المؤتمر العربي الخامس نقســـم أمام الله والامـــة والتاريخ بأن نواصـــل المساعي المشروعة لتحقيق الاستقـــلال والاتحـــاد العربي ورفض الوطن اليهودي والهجـــرة الصهيونية » ٠٠ (المصدر ذاتـــه ص ٩٥) ٠

ويظهر التطور واضحـــا في الحركة القوميـــة العربيـــة الفلسطينية ٠٠

فمن الناحيـــة الواحـــدة أصبحت تصـــدر عن تربتهـــا الاقليمية وتعالج قضاياها العينية مثل المجلس التشريعي ٠٠ والقرض

الحكومي ‥ ومن الناحية الثانية بدأت تواجه مشكلة الصهيونية وتحاول مجابهتها لا بشعار عام مثل رفض وعد بلفور ‥ بل بالمقاطعة ومقاومة الهجرة ‥ ثم جسمت ، من الناحية الثالثة ، تماثلها مع فكرة الوحدة العربية بوضعها الاتحاد العربي بعد الاستقلال في ميثاقها وبارسالها وفدا الى الجزيرة العربية لاقامة العلاقة مع المسؤولين فيها وتوطيدها ‥

لقد تألفت الحركة القومية العربية في هذه الفترة الاولى من قيادة في القمة ثابتة الى حد ما وتنبثق عن مؤتمرات دورية بلغ عددها سبعة فى سنوات العشرين ‥ وجماهير فلاحية وشعبية تتجاوب مع هذه القيادة تجاوبا معينا ولكن لا ترتبط بها برابطة تنظيمية ‥

وازاء هذا تظهر بالمقارنة الفروق الجوهرية بين الحركة القومية العربية في فلسطين الفضفاضة تنظيميا وأيديولوجيا والحركة الصهيونية بتنظيماتها المتطورة وأجهزة الاستيطان القوية التي أقامتها وأيديولوجيتها القومية المتعصبة العدوانية ‥

وقد تضخمت هذه الفروق لتزيد من ترجيح كفة المنظمة الصهيونية على الحركة القومية العربية في فلسطين في ظروف تأييد الامبريالية البريطانية الصهيونية وقمعها بعنف تارة وبالتآمر تارة أخرى نشاط الحركة القومية العربية ‥

وزاد من هذا التفاوت لان القيادة القومية العربية تألفت جوهريا من أسياد الارض الكبار أو أبناء العائلات الاقطاعية أمثال عائلات الحسيني والنشاشيبي وعبد الهادي في حين كانت القيادة الصهيونية برجوازية عصرية تستند الى امبريالية قوية ‥

ومع هذا جمعت القوى الوطنية العاملة في الميدان

السياسي بين أسياد الارض المتخلفين فكريا (الرجعيين) والمتنورين من ناحية ، ومن الناحيـــة الاخـــرى التجار وأصحاب المهن الحرة (أمثال الاطباء والمهندسين والمحامين) الذين كانوا يجتمعـــون في هذه المؤتمرات الدوريـــة ••

ولكـــن الاوضاع الموضوعيـــة كما تجلت في سياســـة الصهيونية : احتـــلال الارض واحتلال العمـــل والاقتصار عـــلى البضائع العبرية ، دفعت هذه القيادة الى اتخاذ قرارات مضـــادة دفاعا عن التجار والماليين العرب (قـــرار مقاطعـــة اليهود) وعن الفلاحين والعمـــال العرب ••

وهكذا أخذ المؤتمر السابـــع الذى عقد في القدس فـــي ٢٠ حزيران سنة ١٩٢٨ الظروف الاقتصاديـــة ـ الاجتماعيـــة (الطبقيـــة) الناشئة عن سياسة الامبريالية البريطانية والاستيطان الصهيوني بعين الاعتبار فقرر المطالبة بحكومة قوميـــة برلمانيـــة ، والاحتجاج على كثـــرة الموظفين الانجليز في الحكومة «الفلسطينية» (الانتدابيـــة) كما قرر الاحتجاج على اعطاء امتيـــاز البحر الميت لشركة أجنبية وعلى تفضيـــل العمال اليهود على العمـــال العـــرب في الاشغال الحكومية والمطالبـــة بوقف سن القوانين ريثما تؤلف الحكومة البرلمانيـــة ••

ولا بـــد من رؤيـــة التناقض هنا بين هـــذه المطالـــب الاقتصادية ـ الاجتماعية التي تعـــرب عن مصالـــح طبقات وفئات معينة (الاحتجاج على الامتيازات صدر عن الماليين •• وعلى الموظفين الانجليز صـــدر عن الفئات المتعلمـــة •• وعلى سياسة التشغيل

عن العمال المهاجرين من الريف والمتذمرين من البطالة (١)) ، وقيادة الحركة القومية العربية في فلسطين •• فقد ظلت هذه القيادة جوهريا من أسياد الارض (رجال العائلات الاقطاعية الحسيني والنشاشيبي والهادي والتميمي والماضي) ولم تعكس القوى الاجتماعية المتضررة من سياسة الامبريالية البريطانية والصهيونية •

وهذا يعود الى ضعف هذه الطبقات والفئات الاجتماعية على الصعيد السياسي •• ولا يغير من هذا الواقع أن العمال العرب كانوا قد أقاموا منظمتهم النقابية الاولى في عام ١٩٢٥ •• فجمعية العمال العربية الفلسطينية كانت ضيقة الاطار واقتصر نشاطها بين العمال في حيفا في البداية •

ولعبت سلطات الانتداب الامبريالية دورا هاما في توطيد مواقع أسياد الارض الكبار (رجال العائلات الاقطاعية) في قيادة الحركة القومية العربية ••

فهذه السلطات هي التي عينت الحاج امين الحسيني مفتيا للقدس على الرغم من أنه لم يأت في المرتبة الاولى عند التصويت •• بل لقد عينه المندوب السامي هربرت صموئيل في هذا المنصب بعد أن عفا عنه وألغى حكما غيابيا بالسجن ١٥ سنة صدر بحقه باعتباره أحد قادة الحوادث الدامية عام ١٩٢٠ بين العرب من ناحية واليهود وسلطات الانتداب من ناحية ثانية ••

---

١ ـ في السنوات الاولى من الانتداب لم تبرز قضية الفلاحين العرب بحدتها •• ولذلك غابت المطالبه بالدفاع عن مصالحهم في هذه المؤتمرات •• ولكن هذه القضية احتدمت بعد اجلاء الفلاحين عن اراضيهم فانعكست في الحركه القوميه العربيه كما سنرى •

وهو الذى عينــه أيضا رئيسا للمجلس الاسلامي عام ١٩٢٢ وبذلك وضعه في موقع قيادة الحركة القومية العربيــة ٠٠

ويعتبر محمد عزة دروزة في كتابه حول الحركــة العربيـة الحديثــة (٢) السلطات البريطانية مهندس الصراع بين الكتلتين العائليتين السياسيتين اللتين نشأتا بعد تعيين راغب النشاشبي رئيسا لبلدية القدس ٠٠

واتخــذ هذا الصــراع في هذا الوقت المبكر شكل صراع ، بن المجلسيين (عائلة الحسينى الاقطاعيــة وأنصارها) والمعارضين (الذين تكتلوا حول عائلة النشاشيبي وأنصارهــا) وقــد أضر بالحركــة القومية العربيــة في فلسطين ضررا بالغــا بتجزئة قواها وارباك الرؤيا بين الجماهيــر ٠٠

ومن السذاجــة رؤية هذا الصراع اختلافا اقطاعيا على مواقع النفوذ فحسب ٠٠ لقد كان الخلاف والتنافس عــلى هذه المواقــع عاملا فعلا ٠٠ ولكنه نجم عن خــلاف في التوجه نحو سلطــات الانتداب والصهيونية ، وكان بين عناصر أقل مهادنة (الحسينيين) وأكثر مهادنــة (النشاشيبيين) ٠٠

ثم ان الموقعين اللذين انطلق منهما الصراع قــررا التقاطب الاجتماعي الذى تم فيما بعــد حول كل منهما ٠٠

فالمجلس الاسلامي الاعــلى الذى أشرف على الاوقاف والمساجد والمعاهد وبعض المدارس اتصل مع الفلاحين على نطاق واســع مما عكس ذلك على توجهــه ٠٠

في حين كانت رئاسة بلدية القــدس ـ مركــز التفــاف

---

٢ ـ الجزء الثالث ص ٤٦ انظر ص ١٢٦ ٠

لاعضاء بلديات أخـــرى ـ متصلـــة بأهالي المدن ووثيقة الاتصال بالتجار وأصحاب المهن الحـــرة ٠

واذا تذكرنا أن الفلاحين فى فلسطين مثلهم في ذلـك مثـــل الفلاحين في كافة المستعمرات ، هم قـــوى الثـــورة الجوهرية ٠٠ وان التجار فى المستعمرات يميلـــون الى مهادنة الامبريالية أمكننا فهم الظروف التي جعلت المجلسيين ، لاتصالهم بالفلاحين ، يظهرون أكثر عـــداء للامبريالية البريطانية ٠٠ ودفعت المعارضين الـــى مهادنة الامبريالية البريطانية حتى حين كانت الموجـة الثوريـــة توحدهم مع كافة القوى وراء المطالب القوميـــة الحقة ٠٠

ولم يؤد الصراع كما قلنا الى تجزئة القوى القومية واربـــاك رؤيا الجماهير واشاعـــة العصبية العائلية التي هي من تقاليـــد الاقطاعية فحسب ، بل أدى الى اقحام الديـــن في المعركـــة ٠٠ فالمجلسيون ، كما يقول محمد عزة دروزة ، (في المصدر ذاتـــه ص ٤٨) أقاموا حكومـــة اسلامية واستخدموا الدين لاضعـــاف مواقع أعدائهم ٠٠ وهذا أدخـــل الدين الاسلامي عنصرا في الحركة القوميـــة العربيـــة امتاز بالسلبية في أكثر الاحيان خصوصـــا ازاء المـــد الثـــوري في الحركة القوميـــة العربية العامة ٠٠

ومما قـــوى هذا الاتجاه الديني اعتماد الصهيونية عـــلى الدين اليهودي لبناء أيديولوجيتها وممارستها اليومية حتـــى أن الاصطـــدام الخطير العربي من ناحية ، واليهودي ـ البريطاني من ناحية ثانية ، الذى وقع في عام ١٩٢٩ اندلـــع بشرارة تطايـــرت من خلاف بشأن حائـــط المبكى الذى كان يعتبره المسلمون جـــزءا من باحة مسجد الصخرة ويعتبره اليهود الاثر الباقي من هيكـــل الملك سليمان وتبعا لذلك يقدســـوه ٠

من افراد الهجانا في زي البوليس الاضافي



كانت الصهيونية تخطط للاصطدام والحتوم مع العرب، والصورة تظهر احدى عمليات تهريب السلاح .



وكان بديهيا ، وقد تسلمت قيادة المجلس الاسلامي الاعلى ، بأيديولوجيتها الاقطاعية ـ الدينية الضيقة ، مركز القيادة في الحركة القومية العربية أن يسهل على الامبريالية البريطانية تشديد التناحر اليهودي العربي لحرف النضال القومي المعادي للامبريالية على طريقه الصحيح ..

وهكذا ظهرت الحركة القومية العربية وكأنها ضد اليهود لا الامبريالية البريطانية ، على الرغم من أن كل تصادم كان يؤدي الى تصادم مع قوات الانتداب البريطاني ..

وفي هذا الصدد لاحظ محمد غزة دروزة الظاهرة الغريبة في فلسطين فكتب : في كل البلاد تقاس الوطنية بموقف القومي من الامبريالية ، أما في فلسطين فأصبح يستساغ أن يكون لمن يعقد أواصر الصداقة مع الانجليز ويخدم أغراضهم ويروج مطالبهم .. أن يكون له شأن في الحركة القومية العربية اذا كان مناوئا لليهود والحركة الصهيونية ... وأضاف ان ذلك يعود الى نجاح الانجليز في التظاهر نفاقا بالحدب على المطالب القومية العربية مع أن هدفهم كان : « استغلال كل من اليهود والعرب وتخويفهم كل منهم الاخر » (المصدر ذاته ص ٥٢) .

لم تبق المعركة القومية العربية في فلسطين في مكان واحد .. فقد تطورت بالتغييرات التي طرأت على البلاد وعلى المجتمع العربي ..

ولعل من المفيد أن نلاحظ هنا أن البرجوازية العربية في فلسطين ـ ونقصد هنا البرجوازية الصناعية ـ التي كانت جنينية عند بداية الانتداب تطورت ببطء هائل ولذلك لم تصل الى مركز القيادة في الحركة القومية العربية .. أو

على الاصح لم تصل الى مركز الحسم في القيادة القومية ...

وهذا يعود أولا الى السبب التقليدي الساري المفعول في كافة المستعمرات ، الى اغراق الدولة الامبريالية الاسواق بالبضائع الجاهزة الرخيصة التي لا تستطيع الصناعة القومية منافستها ، وثانيا الى ممكنات الصهيونية الاوسع لاقامة صناعات محلية حيث أمكن ذلك بالتعاون مع الاحتكارات الاجنبية البريطانية مثلا .. مما زاد من صعوبات البرجوازية العربية ازاء المنافسة المزدوجة ..

وفي الوقت ذاته لم يغير نشاط الصهيونية في شراء الاراضي العربية من التركيب الاجتماعي في الريف العربي الفلسطيني .. فأغلب الاراضي الشاسعة التي اشترتها الصهيونية باعها الاقطاعيون الغائبون . وأما الاراضي التي باعها الاقطاعيون القائمون فى البلاد فلم تكن من الاتساع بحيث تفيد البناء الاجتماعي .. ومع هذا فقد تشردت جمهرة من الفلاحين العرب ، الذين كانوا يزرعون هذه الاراضي ، وبذلك شددوا أزمة الريف وعقدوا مشكلة البطالة بانضمامهم الى سوق العمل في المدن .. وفي هذا الميدان حصلت تغييرات جذرية ، فالطبقة العاملة العربية التي كانت ضئيلة العدد ضعيفة التنظيم في هذه الفترة ، ازدادت مع الايام عددا باتساع النشاط الاقتصادي (وفي أيام الحرب العالمية الثانية نتيجة المشاغل الحربية) ، ووطدت تنظيمها وأصبحت تمارس نفوذها على الحركة القومية العربية .

ثم كان هناك اشتراك المرأة العربية في الحركة القومية .. لقد قذف بها زخم الحركة الثورية المعادية للامبريالية

والصهيونية الى ميـــدان المعركـــة ٠٠ وسجل المؤرخون اقتحامها الميدان في ١٩٢٩ ، حين عقدت النساء أول مؤتمر لهن في ٢٦ تشرين الاول في القدس وأيـــدن مقررات المؤتمرات العربية الفلسطينيـــة ودعون الى تنشيط الصناعـــة والتجارة الوطنيـــة وتعزيـــز الروابط الاقتصادية مع سوريا وغيرها من الاقطار العربيـــة ٠

سياسة الحركـة القومية ومواقفهـــا

في هـــذه الفترة التى امتـــدت حتى عام ١٩٢٩ ـ وهـــي فترة تميز عالميا بتراجـــع الموجة الثوريـــة التي اجتاحت العالم عامة بعـــد ثـــورة اكتوبر الاشتراكية الكبـــرى ـ واصلـــت الحركة القومية العربية نشاطها السياسي على شكـــل مؤتمرات ووفود تحـــج الى لندن وتحـــاول « اقناع » المسؤولـــين فيهـــا بعدالـــة القضية العربية ٠٠

وقد ذكرنا عن نشاط الوفـــد الاول في بريطانيا واخفاقه ٠٠ ونستطيـــع أن نضيف أن الوفدين الثاني والثالث في ١٩٢٢ و ١٩٢٣ لم يحققا نجاحات ما وتركا اثارا دعائية طفيفة جدا فـــي المحافـــل البريطانية أو الغربية ٠٠ فالوفـــود الفلسطينية هذه والتي تلتها هدفـــت في الدرجة الاولى الى الاتصـــال بممثلـــي الامبريالية البريطانية في السلطـــة أو مـــع محافـــل حاكمـــة تظاهرت بتأييـــد العرب ضد الصهيونية ولم تقم بأي اتصـــال ـ وما كان تركيبها الطبقي يسمح لها بأي اتصال ـ مـــع القـــوى الثورية المعاديـــة للامبريالية في بريطانيا ٠

ولكن جديـــر بالملاحظـــة ان الوفـــد العربي الفلسطيني الاول اتصـــل أثناء وجوده في أوروبا بوفـــد الاتحاد السوري وعقـــدا

سوية في جنيف في ٢٥ آب ١٩٢٢ مؤتمرا. فلسطينيا ـ سوريا صاغ مطالب الحركتين وقدمها الى رئيس جامعة الامم وتتلخص في :

* الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وبسلطانها القومي .

* الاعتراف بحق هذه البلاد في أن تتحد معا في حكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وأن تتحد مع سائر الاقطار العربية المستقلة في شكل ولايات اتحادية .

* الغاء الانتداب حالا .

* جلاء الجنود الفرنسيين والانجليز عن سوريا ولبنان وفلسطين .

* الغاء تصريح بلفور ..

وتكمن أهمية هذه الظاهرة من التضامن العربي في أن تحرك الجماهير في الفترة الممتدة بين ١٩٢٢ و ١٩٢٩ ارتبط بهذا التفاعل العربي في المنطقة التى عرفت قبل تجزئتها الى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن بسوريا ..

وهكذا اشتركت جماهير فلسطين في عام ١٩٢٥ ثم في عام ١٩٢٦ باضرابين عامين رافقتهما المظاهرات الشعبية تأييدا لكفاح الشعب العربي في سوريا ضد الانتداب الفرنسي .. وكان الاضراب الاول تضامنا مع الثورة التي كان يخوضها الشعب العربي في سوريا في عام ١٩٢٥ .. وكان الاضراب الثاني احتجاجا على زيارة المندوب السامي الفرنسي في سوريا ولبنان م.دي جوفنيل للقدس زيارة رسمية .. وتضاما أيضا مع تلك الثورة السورية .. (تقرير لجنة فلسطين الملكية ١٩٣٧ الوثيقة ٥٤٧٩ ص ٥٩) .

وفي الوقت ذاته استقبلت المظاهرات الصاخبة اللورد بلفور صاحب الوعد الصهيوني حين وصل الى دمشق قادما من القدس حيث وضع الحجر الاساسي في بناء الجامعة العبرية فيها . (المصدر ذاته) .

وظهرت سياسة الحركة القومية العربية في فلسطين ازاء الانتداب البريطاني والوضع الدستوري من موقفها من الاقتراح البريطاني الداعي الى اقامة مجلس تشريعي ..

لقد اقترح ونستون تشرشل وزير المستعمرات المشروع على الوفد العربي الفلسطيني الاول عام ١٩٢٢ .. ولكن الوفد ، وأيدته المؤتمرات العربية الفلسطينية التي عقدت بعد ذلك ، رفض الاقتراح .

وكان الاقتراح قد نص على تأليف مجلس تشريعي من ١١ عضوا من موظفي الحكومة و ١٢ عضوا منتخبا منهم ١٠ عرب ويهوديان برئاسة المندوب السامي الذى يتمتع بصوتين .

أما صلاحيات المجلس فكانت صفر تقريبا ..

فليس من حقه النظر في أية نقطة تخالف سياسة حكومة الانتداب الاساسية أو نص الانتداب الذي قام ليمهد السبيل لانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ..

كذلك كان يتوقف تنفيذ قرارات المجلس على ادارة المندوب السامي الذى عهد اليه بتطبيق تصريح بلفور ..

وأوضح الاقتراح بأن المجلس التشريعي لا يتمتع بأية سلطة تنفيذية .

وأما المظاهرة بالتنازل أمام المطالب العربية فكانت باقتراح تشكيل لجنة من أعضاء المجلس المنتخبين لكي تنظر

مع الحكومة في أمر مراقبة الهجرة اليهودية •• ولكن تلاشى هذا التنازل حين اشترطت الحكومة أن تكون اللجنة مقيدة بأنظمة لا تتخطاها وأن يعود تنفيذ قراراتها الى رأي المندوب السامي ••

وحين أصرت حكومة الانتداب على المضي في المشروع أصدرت اللجنة التنفيذية التي انبثقت عن المؤتمر الخامس بيانا في ٢ أيلول جاء فيه :

« أجمعت الامة العربية الفلسطينية على رفض الانتداب ومشروع انشاء وطن قومي لليهود فى فلسطين وذلك بعد أن تجلت لها نتائج هذه السياسة الرهيبة على حياتها القومية والاقتصادية • وان من مقتضيات رفض الاصل أن نرفض الفرع لذلك الاصل • ولهذا قرر المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس المنعقد في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ رفض الدستور الجديد لفلسطين بمقاطعة الانتخابات المقبلة للمجلس التشريعي ، لانه وجد بعد البحث الدقيق أن الاشتراك في تلك الانتخابات انما هو قبول محسوس بالانتداب وبتصريح بلفور » • (كتاب عيسى السفري فلسطين بين الانتداب والصهيونية ص ٨٦) •

ولبى أصحاب حق الاقتراع العرب دعوة اللجنة التنفيذية فقاطعوا الانتخابات التي جرت في مطلع عام ١٩٢٣ مما اضطر حكومة الانتداب الى تجميد فكرة المجلس التشريعي وتعديل الدستور بحيث يتمكن المندوب السامي من انشاء مجلس استشاري من العرب واليهود ••

وقام المندوب السامي بذلك وعين مجلسا استشاريا اختار له عشرة من العرب واثنين من اليهود ولكن العرب بضغط الحركة

القومية العربية انسحبوا أثناء الجلسة الاولى التي عقدت في ١٣ حزيران ١٩٢٣ ·· (المصدر ذاته) ·

وقد صدرت الحركة القومية في موقفها عن اعتبارات مبدئية صحيحة تقوم على حق الشعب في الاستقلال والحكم القومي ··

وهذا ما أكدته اللجنة التنفيذية في مذكرة قدمتها الى وزير المستعمرات البريطاني ج·ايمري في نيسان ١٩٢٥ وجاء فيها :

« ان العرب وهم في فلسطين يطلبون حقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط أن يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم ولكنهم يريدون أن يتمتعوا بحقهم باعتبار انهم أكثرية ساحقة في العدد والمصلحة وباعتبار انهم وعدوا بوعود صريحة وباعتبار أن عهد جامعة الامم يخولهم ذلك مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك في الادارة والتشريع بحسب نسبتهم (المصدر ذاته ١١٥)

وقد كان هذا الموقف فيما بعد موضع نقاش في محافل الحركة القومية العربية ·· فقد حاولت بعض العناصر التشكيك في صدق هذه السياسة السلبية على اعتبار أن السياسة المثلى هي « خذ وطالب » ·· ولكن الواقع أكد أن طبيعة المعركة لم تكن تسمح بمثل هذه السياسة ·· ثم لم يكن هناك ما يأخذه الشعب العربي ، فالمناورة كانت مفضوحة والاقتراح كان تضليلا لا تنازلا ··

صحيح ان الفترة كانت تراجع ثوري في المستعمرات وفي العالم العربي ··

صحيح كذلك أن الحركة القومية العربية في مصر

قبلت بتصريح فبراير في عام ١٩٢٣ واعتبرته تراجعا امبرياليا لاعلانه انهاء الحماية البريطانية واعترافه باستقلال مصر ..

ولكن المعركة في فلسطين كانت من أجل فرض التراجع على الامبريالية البريطانية وصد تقدم الصهيونية ، والاشتراك في مجلس تشريعي لا يختلف عن الدمية بشيء كان سيوطد مواقع الامبريالية وسيغطي على هذا التقدم أو يعطيه شيئا من الشرعية أو الموافقة العربية .

وفي هذه الفترة حاولت السلطات البريطانية اشراك الحركة القومية العربية في الانتداب البريطاني عن طريق اقامة وكالة عربية تكون على غرار الوكالة اليهودية التي ارتأى قيامها نظام انتداب فلسطين في المادة ٤ ، والتى قامت فعلا في عام ١٩٢٩ ..

وقد أعلن الاقتراح وزير المستعمرات الدوق ديفونشاير في ٤ تشرين الاول ١٩٢٣ وشرحه المندوب السامي في اجتماع ضم ٤٠ « وجيها عربيا » ..

ورفض العرب الاقتراح .. فالمندوب السامي هو الذي كان عليه أن يعين الوكالة العربية بالتشاور مع الزعماء العرب المحليين ، الامر الذي اعتبره القوميون انه لا يتوافق مع أماني العرب القومية ..

لقد زعمت المخافل البريطانية أن الاقتراح ، الذي كان سيجمع مندوبين عن الاقطار العربية المجاورة في تلك الوكالة العربية ، تجاوب مع المشاعر العربية العامة واعتراف بالقربى بين الشعوب العربية ، ولكنها تجاهلت أن وكالة يعينها المندوب السامي من المتعاونين مع الامبريالية البريطانية كان هدفها

كما أعلن ذلك الدوق ديفونشاير ، مثل هدف المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري توثيق مشاركة العرب بحكومة فلسطين (٣) التي أعلنت أن سياستها قائمة على تنفيذ المشروع الصهيوني .

ومن نتائج هذه المواقف أن الامبريالية البريطانية اعترفت ـ وهذا يعني أن انطباع الرأي العام أو بعضه كان هكذا ـ « ان أعتراض العرب لم يكن حيال أسلوب عمل الانتداب ، بل ضد مجموع سياسة الانتداب ولم يكن أي تنازل يستطيع ـ مهما كان ليبراليا ـ أن يجعل العرب يتوافقون مع نظام يعترف بمدلولات وعد بلفور » .. (تقرير عن فلسطين أعدته الادارة البريطانية للجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية بين كانون الاول ٩٤٥ وكانون الثاني ١٩٤٦ المجلد الاول ص ٢٢) .

---

٣ ـ تقرير لجنة فلسطين الملكيه وثيقه ٥٤٧٩ ص ٥٧ .

الفصل العاشر

حوادث ١٩٢٩ الدامية

يلاحظ أكثر الكتاب أن الفترة التي امتدت بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ امتازت « بالهدوء » في فلسطين ..

ويماثل هذا الوضع الاوضاع في الاقطار العربية المجاورة باستثناء سوريا حيث اشتعلت الثورة المسلحة في عام ١٩٢٥ واستطاعت أن تحقق انتصارات كبرى قبل أن يغرقها الامبرياليون الفرنسيون في بحر من الدماء ..

ومن أسباب هذا الهدوء هبوط حدة الخوف العربي من الوطن القومي اليهودي بسبب الازمة التي انتابته .. ففي هذه الفترة بالذات كما كتب هاري ساخر اجتاحت أوروبا الشرقية أزمة اقتصادية وانعكست في نمو الوطن القومي اليهودي « فالهجرة الى البلاد تضاءلت والبطالة تضخمت وفي عام ١٩٢٧ كانت الهجرة من البلاد ضعف الهجرة اليها » (كتابه اسرائيل : اقامة دولة ص ١٠) .

ومع هذا فالحركة القومية لم تتوقف عن النضال السياسي وعقدت مؤتمرها السابع في حزيران ١٩٢٨ في القدس بحضور ٢٥٠ مندوبا يمثلون جميع المناطق والاحزاب وقررت : المطالبة بحكومة برلمانية والاحتجاج على كثرة الموظفين الانكليز في الحكومة

الفلسطينية والاحتجاج على تفضيل العمال اليهود على العمال العرب في الاشغال الحكومية والمطالبة بوقف سن القوانين ريثما تؤلف الحكومة البرلمانية ..

بداية التغيير

وطرأ تغيير في منتصف عام ١٩٢٨ حين وقفت حركة الانحدار في الهجرة اليهودية الى فلسطين وتجاوز عدد المهاجرين الى البلاد عدد المهاجرين منها وأصبح عدد اليهود ثلاثة أضعاف عددهم في نهاية الحرب العالمية الاولى أي ١٥٠ الفا .

ولم يكن التغيير في الكمية والنوعية مقتصرا على عدد السكان اليهود .. ففى هذه الفترة تضاعفت مساحة الملكيات اليهودية في الاراضي وارتفعت من ٤٢٠ ألف دونم (في عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨) الى حوالي المليون دونم في ١٩٢٨ (ورد في تقرير حكومة فلسطين المقدم الى لجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية فى كانون الاول ١٩٤٥ أن ملكيات اليهود في ١٩٢٧ بلغت ٩٠٣ الاف دونم) .

ثم ان القيادة الصهيونية في سبيل توطيد مواقفها فى فلسطين تشددت في ممارسة سياستها القومية الانعزالية من ناحية والعدوانية من الناحية الاخرى : سياسة احتلال العمل واحتلال الارض ..

وكتب ولتربريوس كما ذكرنافي كتابه حركةالعمال في فلسطين يصف نهج قيادة الهستدروت في هذه الفترة : « ومارس وجود جماهير واسعة من العمال غير المنظمين (وجلهم من العرب) الذين ألفوا هيئة منافسة ، ضغطا مستمرا على شروط العمل التي فاز بها العمال المنظمون مما جعل الاعتراف القانونى

بأساس الاحتلال أمرا ضروريا محتما » (ص ٩٠) ٠

وأضاف في فصله الفرعي « العلاقات بين طائفتي العمال اليهود والعرب ، اضطرابات ١٩٢٩ وأثرها على الحركة العمالية » :

« لقد وجد العامل اليهودي كيانه مهددا من منافسة العمل الرخيص ٠ وبما أن الاكثرية الساحقة من طائفة العمال اليهود التزمت طبيعيا الفكرة القائلة أن أساس تحقيق الصهيونية خلق جمهور واسع من العمال اليهود في البلاد فقد تعهدوا تعهدا لا رجوع عنه بمبدأ العمل اليهودي في الاقتصاد اليهودي » (وهو اصطلاح اخر لاحتلال العمل) (ص ٩٢ ـ ٩٣) ٠٠

والتزام احتلال العمل أصبح مبدأ من مبادىء الكيبوتسات كما أقرها مجلس توحيدها الذى عقد فى بيتح تكفا فى ٥ آب ١٩٢٧ وجاء فيه « السعي لاحتلال الاعمال للعمال اليهود وتحسين أوضاعهم الاقتصادية أي احتلال العمل في المنشآت اليهودية والحكومية وتطوير فروع عمل جديدة » ٠٠ (المصدر ذاته ص ١٠٤) ٠

وأكد هذا الاتجاه بيرتس مرحاب في كتابه « تاريخ الحركة العمالية في فلسطين » ٠ ففي تعريفه برنامج هبوعيل هتسعير (أو العامل الشاب ٠٠ منظمة العمال القيادية في هذه الفترة ـ أ٠ت) كتب : في تحقيق الصهيونية يقوم بدور حاسم احتلال المواقع الاقتصادية والثقافية في « أرض اسرائيل » ٠ ان الشرط الضروري للاحتلال الاقتصادي هو تركيز الممتلكات والعمل في أيدي يهود ٠٠ وأضاف أن دور هبوعيل هتسعير في أرض اسرائيل هو العمل على تحقيق الصهيونية عامة والاهتمام باحتلال العمل (ص ٣٧) ٠

- وكان أبـــرز حـــدث في الحركة الصهيونية في عام ١٩٢٩ قيام الوكالة اليهودية ..

لقد نصت الفقرة الرابعـــة من نظام الانتـــداب الذى اعتمدته حكومة الانتداب على أن الحكومة البريطانية في فلسطين ستعترف بالوكالة اليهودية هيئة عامة تقوم بـــدور النصح وتتعاون مـــع الادارة الفلسطينية في الميادين الاقتصاديـــة والاجتماعية وغيرهـــا مما يؤثر عـــلى بناء الوطن القومي اليهـــودي ومصالـــح السكان اليهود في فلسطـــين ..

وفي المرحلـــة الاولى اعترفـــت الادارة الفلسطينية بالمنظمـــة الصهيونية وكالة يهودية .

ولكـــن المؤتمر الصهيوني العالمي الثالث عشر الـــذى عقد في كارلسباد بين ٦ و ١٨ آب ١٩٢٣ دعـــا لجنته التنفيذيـــة الـــى العمـــل على اقامة مؤتمر يهودى عالمى يقوم مقام الوكالة اليهودية .. وأيـــد هذه الدعوة المؤتمر الصهيوني العالمي التالي الـــذي عقد في فينا في آب ١٩٢٥ اعترافا منـــه ـ كما جاء في القـــرار برغبـــة اليهود في العالم فى المساهمـــة في بناء الوطن القومـــي بروح تصريح (وعـــد) بلفور .

وكان أساس التعـــاون اليهودى العالمى أو هـــدف هـــذا التعاون : زيادة الهجرة الى فلسطين .. واستخـــلاص الاراضـــي وجعلها ملكية الشعب اليهودى .. والاستيطان الزراعي الكولونيالي القائـــم على العمـــل العبري .. وبعث اللغة والثقافة اليهوديـــة .. (فكرة الدولة اليهودية بن هلبرن ص ١٧٩) ..

وكان القصـــد من وراء اقامة الوكالة اليهودية استنفـــار يهود العالم ـ وخاصة الاغنياء الذين لا يتماثلون مع أيديولوجيـــة

الصهيونية الجوهرية (القائمة على جمع الشتات واستحالة العيش في المهجر ·· واقامة الدولة اليهودية) استنفارهم لمد يد المعونة لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين واستقرار اليهود فيها ··

واستفز تأليف الوكالة اليهودية على قاعدة عالمية أوسع مخاوف محافل مقررة في الشعب العربي الفلسطيني خصوصا ازاء ازدياد عدوانية القيادة الصهيونية التي استمدت مزيدا من الثقة من هذه الخطوة ·· وليس من قبيل الصدفة أن تعتبر المصادر البريطانية والصهيونيه حوادث عام ١٩٢٩ ردا على قيام الوكالة اليهودية · (كتب هذا بالضبط حايم وايزمن في كتابه « التجربة والخطأ » ص ٣٣١) ·

وقد جرت هذه التغييرات في ظروف عينية أسهمت الممارسة الصهيونية في خلقها ·· ومن أبرزها ازدياد عدد الفلاحين المعدمين الذين آلفوا في هذه الفترة ـ حسب بيان الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٠ ـ ٢٩ر٤ بالمئة من الفلاحين أو ٨٦ر٩٨٠ عائلة ريفية (تقرير اللجنة الفلسطينية الملكية لعام ١٩٣٧ ص ٣٢٩) ·

والقول أن الصهيونية أسهمت في زيادة عدد الفلاحين المعدمين يعود الى أن استملاك المنظمات الصهيونية الاراضي الزراعية ادى الى اجلاء المزارعين العرب منها ·· فمعروف أن الاقطاعيين العرب وفي بعض الحالات الاقطاعيين الغائبين (في لبنان) هم الذين باعوا مساحات واسعة من الاراضي الزراعية التي كان فلحها المزارعون العرب خلال أجيال وبذلك جردوا أولئك المزارعين من حقوقهم وساعدوا الصهيونية ، والسلطات البريطانية التي أيدتها ، على اقتلاع المزارعين من تربتهم وتشريدهم ··

وهكـــذا فاذا تذكرنا مساوىء حمـــلات احتـــلال العمل ، التي كان العمال العرب ضحيتها ٠٠ وسياسة الادارة البريطانيـــة في « تفضيـــل العمال اليهود على العمـــال العرب » كما أشار الى ذلك المؤتمر السابع عام ١٩٢٨ ٠٠ فعندئذ نستطيـــع أن نتصور شعور النقمـــة على الادارة البريطانية والصهيونية في هذه الفترة بين الجماهيـــر الشعبيـــة ٠٠

وزاد في هذه النقمـــة أن البرجوازية العربيـــة الضعيفـة جدا كانت تشعر بالخطـــر على مصالحها مـــن جـــراء النشـــاط المتزايد الذى تقوم به البرجوازية اليهودية بالتعـــاون مع مؤسسات احتكارية أجنبية ٠ (في هـــذه الفترة بريطانية وجنوب افريقيـــة في الاســـاس) ٠

ولعـــل قرار المؤتمر السابـــع الاحتجاج على اعطاء امتيـــاز البحر الميت لشركة أجنبيـــة ٠٠ والاحتجاج السابـــق على منـــح « روتمبرغ » امتياز توليـــد الطاقـــة الكهربائيـــة كان تعبيـــرا عن هذه النقمة الناجمة عن تلك المخاوف ٠٠

كل هذا في وقت كانت الحركة القوميـــة تواصـــل فيـــه المطالبة بحكم وطني وبدستور يمنح البلاد استقلالها ٠٠

حـــوادث عـــام ١٩٢٩

يتفـــق المؤرخون جميعا على أن حـــوادث عام ١٩٢٩ أدت الى سقوط قتـــلى وجرحى من العرب واليهود ٠٠

ولكنهم يختلفـــون على كل شيء اخر ٠٠ حتى عـــلى عـــدد الضحايا من الجانبين التي بلغت حسب الاحصاءات الرسميـــة انذاك ١٣٣ قتيـــلا و ٣٣٩ جريحا من اليهود ٠٠ و ١١٦ قتيـــلا

و ٢٣٢ جريحا من العرب ..

ومن الممكن ايجاد قطاع واسع من المؤرخين يتفقون على أن الامبرياليين البريطانيين قاموا بدورهم الخبيث بتأجيج الاحتراب العنصري بين اليهود والعرب استرشادا بمبدأ « فرق تسد » .

ولكن هنا ينشب الخلاف بعد الاتفاق العام .. فالصهيونيون يتهمون الادارة البريطانية في فلسطين في تحريض العرب وتشجيعهم على الاضرار باليهود وبوطنهم القومي .. في حين تقوم اطروحة المؤرخين العرب على أن الامبريالية البريطانية ساندت الصهيونية مساندة كاملة .. وتعاونت مع قيادتها في فلسطين باستمرار .. ولا يغير من هذه الحقيقة وجود خلافات بين الجانبين ..

والان ماذا جرى في عام ١٩٢٩ ؟ ..

تبدأ الرواية العربية بالتأكيد على أن حائط المبكى ، ويسمونه البراق أيضا ليس جزء من الحائط الخارجي للهيكل القديم فحسب بل هو جزء من الحرم الشريف أيضا.. ولهذا فاليهود يقدسونه والمسلمون يحترمونه احتراما عظيما .

كذلك تؤكد الرواية العربية أن البراق ملك للمسلمين منذ الفتح الاسلامي وهم يحتفظون بصكوك بهذا المعنى تخولهم حق ادارة المكان .. وخلال السنين والاتفاق غير المكتوب قائم بين ادارة الوقف الاسلامي واليهود المتدينين من حيث الزيارة والصلاة بالقرب منه .. وينص الاتفاق على أن لا يقيم اليهود أي بناء بالقرب من الحائط أو يضعوا أي شيء في باحته .

وتلاحظ الرواية العربية أن الادارة البريطانية حظرت

يطلب من الوقف الاسلامي - على المسؤولين اليهود وضع مقاعد في باحة البراق لان ذلك يغير الوضع القائم ويعتبره المسلمون تجاوزا على حقوقهم .. كما أنها أمرت البوليس في أيلول ١٩٢٨ رفع الستار الذى وضعه اليهود في عشية عيد الغفران على الرصيف المحاذي للبراق بعد أن شكا ذلك المسلمون ..

وبعد ذلك تعرض الرواية العربية الحقائق على الوجه التالي :

* في يوم ١٤ آب ١٩٢٩ (عشية ٩ آب يوم الصوم استذكارا بخراب الهيكل تظاهر اليهود في تل أبيب وهتفوا : الحائط حائطنا ..) العار من نصيب كيث روش (حاكم القدس الذى أمر برفع الستار في العام الماضي) ..

* وفي اليوم التالي جاء وفد من شباب تل أبيب الى القدس وسويا مع يهودها تظاهروا في مظاهرة صاخبة اخترقت الشوارع في اتجاه حائط المبكى (البراق) وترددت فيها الهتافات نفسها الحائط حائطنا ..

* وفي اليوم التالي قام المسلمون بدورهم في مظاهرة صاخبة وصلت الى باحة البراق (حائط المبكى) وخلال ذلك قلبوا طاولة الشماس وأخرجوا الاسترحامات التي يضعها عادة المصلون اليهود في شقوق الحائط .. ومزقوا ثياب الشماس وتفرقوا الى بيوتهم ..

* لقد مرت المظاهرات الثلاث في سلام ولكنها شحنت الجو بالتوتر وأشاعت مزيدا من الشكوك والريبة بين العرب واليهود ولذلك ما أن وقعت حادثة محلة البخارلية في القدس (طعن فيها أحد العرب أحد الشباب اليهود الذي دخل بستانه لاسترجاع كرته في أعقاب مشاجرة بينهما توفي بعدها)،

حتى اشتعل الجو وبدأت سلسلة المصادمات بين العرب واليهود فى مختلف انحاء البلاد .. وفعلا في يوم حادثة البخارلية ، ١٧ ـ آب ١٩٢٩ ، وقعت مشاجرة عامة بين العرب واليهود جرح فيها أحد عشر يهوديا وخمسة عشر عربيا ..

* وفي ٢٣ آب سرت اشاعة مفادها أن اليهود قتلوا عربيين « فهاجت خواطر العرب وما لبث أن سرى الهياج الى القرى المجاورة ثم اتسع وشمل القرى والمدن وفي مقدمتها يافا وحيفا وصفد والخليل ، وقامت مظاهرة هائجة في نابلس للاعراب عن سخطها واستيائها وتحولت الاضطرابات في الخليل الى مذبحة يهودية عمومية قتل فيها ٦٠ يهوديا وجرح أكثر من خمسين » .

* استمرت الاضطرابات وخلال هذا هجم اليهود على العرب في أكثر من موقع وقتلوا بدورهم بعض العرب ومن بينهم امام مسجد سكنة أبي كبير وستة من أفراد عائلته ..

* وانتهت الاضطرابات في ٢٩ آب ١٩٢٩ بحوادث صفد .هي قتل وجرح فيها ٤٥ يهوديا وعدد غير محدد من العرب ..

* وفى حالات عديدة كانت الضحايا بين العرب نتيجة الاصطدام بالبوليس والجيش الذي استنفر امدادات وصلت اليه من مصر خلال أيام الاضطرابات الاولى .. (اعتمدت في هذه الرواية على كتاب عيسى السفري « فلسطين بين الانتداب والصهيونية » باعتبارها نموذجا لما كتبه العرب حول هذه الحوادث ص ١٢٤ ـ ١٢٧) .

وقوم القوميون العرب هذه الحوادث انتفاضة قومية ضد الصهيونية والانتداب البريطاني ..

أما الرواية الصهيونية فتعرض الحقائق على الوجه التالي :

* تؤكـــد أن الحاكم البريطاني كيث روش بضعفه وتراجعه أمام العـــرب شجعهـــم على التمادي في تجاوزهم حقـــوق اليهود في حائط المبكـــى ..

* المظاهـــرة التى جرت في القدس كانت احتجاجا على أعمـــال العـــرب الاستفزازيـــة بقذفهم المصلين اليهـــود بالحجارة فـــي اليوم السابـــق ..

* وتتفـــق الروايتان حول حادثـــة البخارلية وانتشـــار الشائعات الا أن الرواية الصهيونية تقول أن العرب روجوا ، متعمدين اهاجـــة الخواطر ، ان اليهود يعـــدون هجوما على مسجد الصخرة وقد حرضوا الاف الفلاحين العـــرب ، الذين تقاطروا على المسجـــد في القدس من الخليل والقـــرى المجـــاورة للصلاة كعادتهم يـــوم الجمعة من كل أسبوع ، فاقترف هؤلاء المذبحـــة ..

* وهناك نسختان للرواية الصهيونية .. فرواية تكتفـــي بالقول ان العرب قتلـــوا اليهود العزل ولا تذكـــر عدد القتـــلى من العـــرب في هذه الحوادث التي استمرت اسبوعين .. ورواية أخرى تلاحظ أن قتـــل اليهود جـــرى في المواقـــع التي لـــم يكـــن فيها تنظيم يهودي دفاعي في حين صـــد العرب في المواقع اليهودية المحصنـــة .

* ويلقي المسؤولون الصهيونيون مسؤولية خاصـــة عـــلى السلطة البريطانية في الخليل التي لم تتخـــذ احتياطات دفاعـــا عن المواطنين اليهود هناك ، على الرغـــم من تحذيرهـــم مندوبي السلطـــة هناك ..

وهنا أيضـــا تتباين ماهيـــة التهم .. فمن الكتـــاب

الصهيونيين من يضع اللوم على الادارة البريطانية المحلية في فلسطين ٠٠ وهناك من يضعها على الحكومة البريطانية في لندن ٠٠ (اعتمدنا في عرض الرواية الصهيونية في الاساس على كتاب وليم ل٠هل « سقوط اسرائيل ونهوضها » ص ١٥٨ ــ ١٥٩) ٠

أما تقويم الصهيونية لهذه الحوادث فيجمل بوصفهم اياها « المذبحة » (البوجروم) التى لا تختلف عن المذابح التي تعرضت لها الطوائف اليهودية في أوروبا واتسمت باللاسامية ٠٠ وفي أغلب المصادر الصهيونية يصف الكتاب الصهيونيون حوادث ١٩٢٩ « بالاجرام » ٠٠٠ والعرب الذين اشتركوا فيها « بالقتلة والمجرمين » ٠

والان ماذا كان الموقف البريطاني الذى تماثل في نظرته الى الامور مع الرواية الصهيونية ؟

لقد جسمه المندوب السامي البريطاني جون تشانسلور الذى كان وقت الحوادث في بريطانيا فعاد على أثرها وأصدر بيانا جاء فيه :

« عدت من المملكة المتحدة فوجدت بمزيد الاسى أن البلاد في حالة اضطراب فأصبحت فريسة لاعمال العنف غير المشروعة ٠٠ وقد راعني ما علمته من الاعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الاشرار سفاكي الدماء عديمي الرأفة وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت في أفراد من الشعب اليهودي خلوا من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم وعما اذا كانوا ذكورا أو اناثا والتي صحبتها ــ كما وقع في الخليل ــ أعمال همجية لا توصف وحرق المزارع والمنازل في المدن والقرى ونهب وتدمير الاملاك ٠٠ فواجبي أن أعيد النظام الى نصابه في

البلاد وأن اوقع القصاص الصارم بأولئك الذين يثبت انهم ارتكبوا أعمال عنف » (١) ٠٠

وهكذا آدانت الادارة البريطانية الغرب « بالجريمة » ولكنها كشفت في الوقت ذاته عن استخدامها هذه « الجريمة » لضرب مطالب الشعب العربي في فلسطين ٠٠

ففي بيانه المذكور أعلن المندوب السامي كذلك انه سيؤجل المباحثات التي كان ينوي اجراءها مع وزير المستعمرات لاحداث تغييرات دستورية وفقا لتعهد أعطاه للجنة التنفيذية العربية التي طالبت في مؤتمرها السابع بحكومة وطنية وعادت وطالبت المندوب السامي بذلك في حزيران من ذلك العام كما يظهر ذلك من بيانه ٠ (نص البيان في كتاب عيسى السفري المذكور ص ١٢٩) ٠

وعند هذا الحد يصح السؤال : كيف يمكن تقويم هذه الحوادث التي وقعت في عام ١٩٢٩ ؟

وهنا لا بد من رؤية وجهيها ٠٠ فهي لم تكن مجرد اصطدامات بين عرب ويهود ، بل كانت جوهريا هبة جماهيرية في وجه الادارة البريطانية الامبريالية ٠٠ وهذا ما جسمته المظاهرات الشعبية لا في المدن المختلطة فحسب ، بل في المدن العربية الخالصة مثل نابلس ٠٠ وهكذا لم تكن هذه المظاهرات عنصرية بالمعنى المعاصر بل كانت معادية للامبريالية البريطانية ٠٠

وهذا ما لاحظته اللجنة التنفيذية في ردها على بيان المندوب السامي فأعلنت « ان اضطرابات فلسطين السابقة والحالية

((١) وفعلا حكم على ٢٢ عربيا بالاعدام ونفذ الحكم بثلاثة اعتبرتهم الحركه القوميه شهداء ابرار ٠٠)

انما ناشئة مباشـــرة عن السياســـة البريطانية الصهيونية التي ترمي الى اخفاء القوميـــة العربيـــة في وطنها الطبيعي لكي تحل محلها قومية يهودية لا وجـــود لها » ٠٠

وهذا ما جعـــل الشيوعيين اليهود والعرب يقومون الحوادث بغض النظـــر عن سلبيـــة بعض مظاهرها والمآسي التي سببتهـا انتفاضـــة قومية معاديـــة للامبريالية والصهيونية في جوهرهـــا ٠٠ وهذا التقويـــم انزل عليهم غضب القيادة الصهيونية وحقدهـا فاتهمتهم « بالعمالـــة » للاممية الثالثة وموسكـــو ٠٠

ولا ينفي تقويم هذه الحـــوادث بوصفها انتفاضـــة قومية رؤية وجهها السلبي الناجم عن الانحـــراف في التوجـــه النضالي بسبب قيـــادة الحركة القوميـــة العربية انذاك ٠٠

ولكـــن هذا الوجه السلبي الـــذي شجعـــه الامبرياليون البريطانيون ساعـــده القـــادة الصهيونيون في توجههم الانعزالي القومي وسياستهم المعاديـــة للجماهير العربيـــة كما تجلت في احتـــلال العمـــل والارض ٠٠

ولا يستطيـــع الباحث الموضوعي اخفاء مساهمـــة القيادة الصهيونية في حـــوادث ١٩٢٩ ٠٠ واللجنـــة التنفيذية العربيـــة اعتمـــدت على الوقائـــع حين أعلنـــت في بيانها ردا على المندوب السامي أن أكثر اليهود كانوا مسلحـــين وأن الحكومة سلحتهـــم ٠٠ وقد قتلـــوا مع الجنود النظاميين النساء والاطفـــال والرجال العرب وكانـــوا البادئين في بعض الحـــالات ٠٠ (كتاب عيسى السفرى ص ١٣٠) ٠٠

ولا بـــد من القول أن القيادة الصهيونية اعتبرت الاصطدام بين العرب واليهود محتومـــا وكانت تعد لـــه على كافة المستويات

وفى جميـــع الميادين ٠٠

وقـــد أورد ميخائيل بار زوهر في كتابه « النبـي المسلح » تاريخ حيـــاة بن غوريون قول بن غوريون بعد مقتـــل أحدالحراس اليهود في عـــام ١٩٠٩ :

« ذلك اليوم (يوم مقتـــل الحـارس) فتحت عيني وأدركت أن عاجـــلا وان آجـــلا ستجري تجربة قـــوة بيننا وبين العرب ٠٠ ومنـــذ ذلك اليوم في شجرة (حيث قتـــل الحارس) شعرت أن الصـــراع محتم » ٠

وأضاف الكاتب أن الصـــراع اليهودى العربى لم يبـــدأ في شجرة ولكـــن في ذلك اليوم من أيام نيســان عـــام ١٩٠٩ أدرك أولئك الذين أصبحـــوا زعماء اليهود فيما بعد انه ان عاجـلا وان آجـــلا سيصطـــدم الجنسان وستســـود القـــوة ٠٠ وحتى قبل حادثة الشجرة كان شعـــار منظمة (الحـــارس) التـــي أقامها بن زفي (رئيس الجمهورية الثانى) وأصحابـــه « لقـــد سقطت (مملكة) يهودا بالنـــار والدمـــاء وستنهض من جديـــد بالنـــار والدمـــاء » ٠ (ص ٢٤) ٠٠

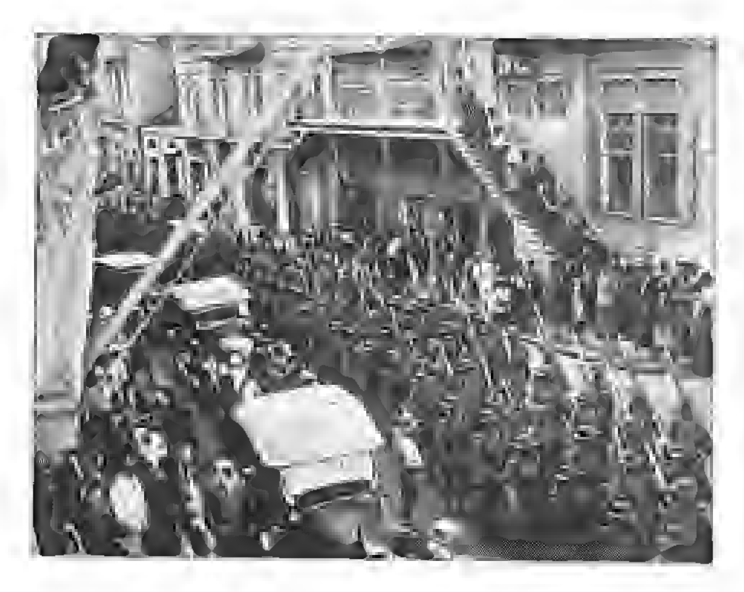
لقـــد اتهم عدد من الكتاب الصهيونيين القيادة العربيـــة بأنها أقحمت الدين في عام ١٩٢٩ بالصـــراع السياسي ٠٠ وبغض النظر عن صحـــة هذه الحقيقة التي كما قلنـــا اتخذت شكـــلا تنظيميا بوصـــول المفتي الحاج أمين الحسينى الى القيـــادة ٠٠ فالحقيقـــة التي لا بد من تأكيدهـــا هي أن الصهيونية اعتمـــدت في بنائها عناصر الدين اليهودي وبذلـــك سهلت أن تتحـــول ، مشكلة دينية ، مثل صلاة اليهود فى باحة البـــراق (أو حائـــط المبكى) ، الى قضية سياسية تحرك جماهير تل ابيب والقدس ٠٠

ومع هذا فمهما يكن من أهمية لهذا العامل فهو عامل ثانوي لم يبدد العامل القومي ..

وهذا ما اعترفت به لجنة التحقيق التي أرسلتها بريطانيا الى البلاد لتحقق في أسباب الحوادث برئاسة سير ولتر شو .. فقد أعلنت أن الصراع ناجم عن التناقض بين الوطن القومي اليهودي ومطالب الحركة العربية القومية بالاستقلال .. فتحقيق المطالب القومية العربية يلغي الوطن القومي اليهودي .. وعزت اللجنة أسباب التوتر في علاقات الشعبين والحوادث الدامية الناشئة عنه الى مخاوف العرب من المهاجرين واعتقادهم انهم لن يكتفوا بمشاركتهم فى البلاد .. وأضافت : « واشتدت هذه المخاوف بالتصريحات الصهيونية السياسية الاكثر غلواء مما جعل العرب يرون في المهاجر اليهودى ليس خطرا على مصدر معيشتهم بل سيدا قد يسيطر عليهم فى المستقبل » .. (تقرير اللجنة الملكية الفلسطينية لعام ١٩٣٧ ص ٦٨ ـ ٦٩) .



نزلت المرأة العربية من خدرها الى الشارع لتسهم في الكفاح الوطني



الجيش البريطاني يستعرض « عضلاته » في شوارع القدس
في محاولة ارهاب سكانها عن تأييـد الثورة سنة ١٩٣٦



الفصل الحادي عشر

الكتاب الابيض

والحركة القومية العربية

وصرت لجنة شو ما قصدته بقولها « مخاوف العرب على مصدر معيشتهم » ، فكتبت في تقريرها ٠٠

« ان بيع اراضي سرسق (١) وشراء اليهود الاراضي في مناطق كانت تربتها على غاية من الانتاجية اعتبر تأكيدا على ان المهاجرين لن يرتضوا باحتلال المناطق المتخلفة ، وأن الضغط الاقتصادى على السكان العرب سيزداد » ٠٠ (المصدر ذاته ص ٦٩)

وذكرت اللجنة كذلك أن بيوعا كبيرة وقعت بين ١٩٢١ و ١٩٢٩ كان من جرائها ان اخرج عدد كبير من العرب من أراضيهم دون أن تعد لهم اراضى أخرى يزرعونها ٠٠ وأضافت : ان الحالة الان معقدة ، فلا توجد أراض أخرى يمكن أن ينتقل اليها الاشخاص الذين يخرجون من الاراضي التي يزرعونها ولذلك تنشأ في البلاد الان طبقة من الاهالي بلا الارض ومستاءة

---

١ ـ العائله الاقطاعيه اللبنانية الغائبه التي باعت مرج بن عامر للكيرن كاييمت (مؤسسة شراء الاراضي الصهيونيه)

... وهـذه الطبقـة خطر على البـلاد (!) وستبقى قضيـة الاراضى مصدرا دائمـا للاستياء الحالي .. (فلسطين العربيـة بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ١٤٤) .

وأوصت لجنـة شو بما يأتي :

* أن توضـح حكومة بريطانيا سياستهـا في فلسطين بأقـل ما يمكـن من التأجيل وتحـدد معنى الفقرات التـي وردت في نصـوص الانتـداب بشأن حمايـة « الطوائف غيـر اليهوديـة » .

* أن تعيد النظـر فى أمر تنظيم الهجرة بحيث لا يتكـرر تدفـق الهجرة الزائـدة على البلاد كما حـدث في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وأن تتشاور فى هذا الشأن مع ممثلى « غير اليهود » .

* التحقيـق العلمى الفنى تمهيـدا لادخـال أساليـب زراعية حديثة وانتهـاج سياسة زراعيـة وفقا لذلك تؤدى الى زيادة الاراضى المنزرعة .. ،

* تأكيـد بيان ١٩٢٢ من أن مكانـة المنظمة الصهيونيـة الخاصـةلا تمنحها حق المشاركـة أبدا في حكومـة فلسطين (تقرير لجنة فلسطين الملكيـة لعام ١٩٣٧ ص ٧١)

ولكـن اذا كان هذا التقريـر قد اعترف بمخاوف الجماهير العربيـة الحقيقيـة وكشف عن أضرار الاستيطان الصهيونـي بانعزاليتـه القومية ، فقد عكس طبيعة السياسة الامبرياليـة القائمة على أساس فرق تسد ..

حتـى حايم وايزمن لاحظ ذلك فكتب أن تقرير لجنة شـو لم يقـل شيئا بشأن بيانات الحكومة البريطانية في فلسطين التى وصفت الاضطرابـات وكأنها اصطدامـات بين العرب واليهود ..

فهذه البيانات أظهرت أن شعبين يتحاربان في فلسطين وان الادارة البريطانية تقف حارسا محايـــدا على النظـــام والقانون • (التجربة والخطأ ص ٣٣٢) •

طبعا كان غضـــب وايزمن على هذه الادارة البريطانية فـــي فلسطين ناجما عن الرغبـــة فى أن تكـــف هذه الادارة عـــن التظاهـــر بالحياد وأن تنفـــذ وعد بلفور كما تجسم في نصوص الانتـــداب ••

وجدير بالملاحظـــة هنا أن حايم وايزمن الـــذى ربط مصير الوطن القومي اليهودى بمصير الامبريالية البريطانيـــة كان ينتقـد فى هـــذه الفترة الادارة البريطانية فى فلسطين وكأنها هيئـــة قائمة بذاتها في عزلة عن مخططات الامبريالية البريطانيـــة الموضوعة فى لندن ، وذلك ليقنن الغضب على الارتبـــاط مع بريطانيا بيـــن بعض العناصر الصهيونية التي انطلاقـــا من ممكنات الارتبـــاط بقوى رجعيـــة دولية أخرى تأففت من هذه السياســـة لوتيرتها البطيئة ولمنعها الصهيونية عن « اجتياح فلسطين » •

ثم ان هذا التقريـــر كشف أيضـــا عن أسلوب الامبريالية البريطانية التقليدى : أسلوب التهدئـــة باللجان ••

وهكـــذا ما أن انتهـــت لجنة شو من عملها حتى ألفـــت الحكومة البريطانية في لندن لجنة جون هوب سمبسون تنفيـــذا لتوصيـــة لجنة شو بشأن التحقيـــق العلمي الفني تمهيـــدا لادخال أساليب زراعية حديثة الى الريف ••

وأصـــدر جون هوب سمبسون تقريـــره في تشرين الاول ١٩٣٠ •• فجاء تأكيـــدا على وجود أزمة زراعيـــة في البلاد •• فقد أعلـــن أولا ان الاراضى الزراعية تتألف من ٦ر٥٤٤٠٠٠

دونم لا ۱٦ر۰۰۰ر۰۰۰ كما كان يزعم الصهيونيون أو ۱۰ر۰۹۲ر۰۰۰ دونم كما كان يقدر مفوض الاراضي البريطاني ..

واستنتج ثانيا أن الاراضي الزراعية ، حتى لو وزعت بين الاهلين العرب توزيعا تاما ، فلا يمكن أن تؤمن للعائلات الريفية حياة مقبولة .

ولذلك فما لم يجر تطوير الاراضي اليهودية ، ويتم تنظيم الرى ، ويستخدم العرب اساليب زراعية افضل فلن يكون هناك مكان لمستوطن اخر ، هذا اذا كانت هناك رغبة في الاحتفاظ بمستوى معيشة الفلاحين العرب على المستوى القائم .. ولا مكان للاستيطان على الاراضى الاميرية ما لم يجر تطويرها..

وهكذا ربط سمبسون الهجرة والاستيطان الصهيوني بتطوير الاراضى واعتقد ان هذا التطوير سيمكن البلاد من استيعاب ۲۰ الف عائلة .. ـ المصدر ذاته ص ۷۱ ـ ۷۲ ـ .

ولاحظ سمبسون امرا طالما ابرزته طليعة الحركة الوطنية في فلسطين انذاك ، وهو ان استملاك الهيئات الصهيونية الاراضي العربية لا يعني ـ خسارة في الملكية فحسب ـ بل خسارة في ميدان العمل أيضا ـ .

فمنظمات استملاك الاراضى الصهيونية نصت فى دساتيرها ما جاء فى دستورالوكالة اليهودية فىالمادة الثالثة : تستملك الاراضي كملك لليهود وتسجل باسم صندوق رأس المال القومي اليهودي وتبقى مسجلة باسمه الى الابد كما تظل هذه الاملاك ملكا للامة اليهودية غير قابل للانتقال . وتنشط الوكالة الاستعمار الزراعى عن طريق العامل اليهودى ، والمبدأ العام الذى يتبع فى جميع الاشغال والمشاريع التي تقوم بها الوكالة وتنشطها هو

استخدام اليهود ـ .

والدعوة الى قصر العمل على العمال اليهود نصت عليه عقود ايجار ـ الكيرن كاييمت ـ و الكيرن هايسود ـ منظمتا شراء الاراضى العربية وتطويرها ـ بالاستيطان الصهيونى ـ وهكذا فى حالة الكيرن كايمت نص العقد على ان المستأجر يتعهد باجراء جميع اشغال الفلاحة باستخدام عمال يهود .. وفى حالةالكيرن هايسود كان علىالمستأجر ان يتعهد بان يستأجر عمالا من اليهود فقط اذا اضطر لذلك ..

طبعا لم ير المبعوث البريطانى سمبسون حقيقة الازمة الزراعية بتمامها بل رأى جانبا منها فالازمة الزراعيةفى فلسطين نجمت عن الملكية الكبيرة من ناحية وتخلف وسائل الانتاج من ناحية ثانية وعلاقات أسياد الارض والمستأجرين من ناحية ثالثة ..

أما الجانب الذى كشفه فلم يكن سوى عامل تعميق الازمة الزراعية .. فبيوع الاراضي شرد مزيدا من الفلاحين العرب عن الارض وخلق ضغوطا جديدة فى الريف ..

وهنا تبدو سخافة مزاعم الصهيونية حول دورها في « ضرب الاقطاعية » !! و « القيام باصلاح زراعي » ..

فالواقع أن الاقطاعية كانت حليفة الصهيونية لانها توافقت مصالحها مع مصالح الصهيونيين .. فالاقطاعيون أردوا بيع أراضيهم والتخلص من المزارعين وحقوقهم المعروفة والصهيونيون اشتروا هذه الاراضي وشردوا الفلاحين .. والاصلاح الزراعي الذى يأخذ شكل مصادرة أراضي الاقطاعيين وتوزيعها على الفلاحين أصبح فى ظروف ممارسة الصهيونية تعويضا على الاقطاعيين الذين نهبوا أراضي الفلاحين أصلا ، وتجريد

الفلاحين من أراضيهم ••

وقد لاحظ سمبسون وجود البطالـــة في الميـــدان العربـي ووصفها بأنها خطيرة وكتب فى تقريـــره أن من الخطأ أن يأتـــي يهودى من بولونيا أو ليتوانيا أو اليمن ليملأ مكانا شاغـــرا فـي فلسطين فى حين أن هنـــاك عامـــلا محليا يستطيـــع أن يملأه •• (المصـــدر ذاته ٧٢) •

ولكنـــه فى الوقت ذاتـــه تفهم الموقف الصهيوني حـــين استطرد أن رأس المال اليهودى لن يأتى الى فلسطين من أجـــل تشغيل العمال العـــرب ولكنـــه يأتي بالتحديـــد لتشغيـــل العمال اليهود ••

وباختصار أكـد سمبسون مبدئي الصهيونية أو القوميـــة المتعصبـــة الانعزاليـــة : احتـــلال الارض •• واحتلال العمـــل •• هذين المبدئين اللذين حفرا خنـــادق التباعـــد والفرقة بـين العرب واليهود منـــذ البدايـــة •

وقـــد أدرك خطر السياســـة الصهيونية الشيوعيـــون اليهود •• وحتى فى عام ١٩١٩ قال أحدهم مخاطبا العمال :

« ابحثـــوا عن طريق جديدة مأمونـــة ، جـدوا طريـــق السلام مع جماهيـــر العاملين من الشعـــب المقيم هنا •• تذكروا انه مع كل مواطـــن أو صديـــق صهيوني يأتي الـــى هنا لكي يخلص المزيـــد من الارض ويستغـل سكانها ، انما يضيـــف مزيدا من المواد المتفجرة تحت اسس بناتنا • »

الكتـــاب الابيض لعام ١٩٣٠

وفى الفترة الواقعـــة بين تقرير لجنـــة شو وتقرير جون

هوب سمبسون سافر وفد عربي فلسطيني رابع الى لندن ليباحث الحكومة البريطانية بشأن مطالب الشعب العربي التي بدأت تتبلور بشعارات ثلاثة : منع البيوع ·· ووقف الهجرة ومنح الدستور ··

ولكن هذا الوفد الذي ضم العناصر التقليدية في الحركة القومية العربية في فلسطين وجمع بين الجناحين (الحسينى والنشاشيبي كما درجت الناس على أن تصفهما) ، أخفق فى مهمته ·· وفى ١٣ نيسان ١٩٣٠ أصدرت الحكومة البريطانية بيانا أعلنت فيه انها أخذت علما بمطالب الوفد و « ان التغييرات الدستورية الشاملة التي يطلبها لا يمكن قبولها كلها لانها تعرقل عمل الحكومة في القيام بالتزاماتها بمقتضى الانتداب » وأضاف البيان أن الحكومة البريطانية أفهمت الوفد بأن لا سبيل للنظر في أي اقتراح لا ينطبق على مقتضيات الانتداب · (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ١٤٩) ·

وفي أعقاب هذا البيان ·· أصدرت الحكومة البريطانية بيانا اخر في ٢٠ أيار ١٩٣٠ عادت فيه على ما جاء في بيانها السابق بشأن الالتزامات والعهود المترتبة عليها بموجب صك الانتداب ·· وذكرت مهمة سمبسون ·· وتعهدت باتخاذ اجراءات سريعة لحماية مصالح الطبقة الزراعية وأكدت أن لا مسوغ لمخاوف أولئك الذين يقلقون على كيان الشعب العربي فى فلسطين ·· وستنزل الحكومة (وهذه كانت لازمة عامة في تصريحات ممثلى الامبريالية البريطانية) أشد العقاب بالذين يخلون بالنظام !!!

وعلى هذا الضوء يمكن رؤية السياسة البريطانية

في أشكالها التقليديــة : تهدئة باللجــان ، تأكيد على حمايــة مصالـــح الجميع ، التمســك بالتعهدات حتى لو كانت متضاربة، تنميــة التناحـــر المحلي وفقا لسياسة فرق تسد ..

وتجسمـــت هذه السياســـة في كتـاب أبيض جديـــد صدر في ٢٤ تشرين الاول عام ١٩٣٠ قيل أن واضعيـه استرشدوا بتقرير لجنة شو واستنتاجات جون هوب سمبسون ..

وفي هذا الكتاب أكــدت الحكومة البريطانية عــلى بعض الملامـــح السياسية التى بدأت تستخدمها لتوطيـــد مواقعها .. فهي لم تعـــد تكتفي بالقول انها حكم يفصـــل بين الشعبين بــل أصبحت تضـــع على الشعبين ضرورة الوصـــول الى تفاهم بينهما في وقت كانت تخلــق الظروف لتباعدهما وتناحرهمـــا .

وهكـــذا جاء فى الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ : أن توطيـــد السلام والرفاهيـــة فى البلاد فى المستقبـــل يتوقف على تحسين العلاقات بين العرب واليهود وان الحكومـــة البريطانية تشعر أن فى الامكـــان الوصـــول الى ذلك ان تعاون كلا الفريقين معهـــا ومع ادارتها في فلسطين .

لقد كان الكتاب الابيض رفضا للمطالب العربية الاستقلاليــة .. وجاء فيـــه أن المطالب العربيـــة بشأن ايجاد شكل دستوري نيابى تتنافى مـــع التزامات الحكومـــة البريطانيـــة .. ولكنـه كان أيضا محاولـة لاقناع الجماهير العربيـــر برغبـــة الحكومة البريطانية في « تسويـة » القضية الدستوريـــة ... ولهـــــذا أضاف الكتاب الابيض الى هذا الرفض وعـــدا جاء فيه : ان الوقت قد حـــان للسير في مسألـــة منح فلسطـين درجة من الحكـــم الذاتي لمصلحـــة جميع السكان الى أمام بـــدون تأخير ..

وكثفت الحكومة البريطانية محاولتها كسب عطف الجماهير العربية فأعلنت في الكتاب الابيض : انه لا يوجد ، نظرا لطرق الزراعة القائمة ، أية أراضي ميسورة لاستيطان المزارعين من المهاجرين (اليهود) الجدد ·· وأن البيانات تحمل على الاعتقاد بأن درجة البطالة بين الاهلين العرب وصلت حدا خطيرا ولذلك يجب تخفيض الهجرة أو وقفها ما دامت هذه الهجرة تسبب حرمان السكان العرب من الحصول على الاشغال الضرورية لمعيشتهم ·· (المصدر ذاته ١٦٠ ـ ١٦٤) ·

كان يكفي أن يبدو الكتاب الابيض أقرب الى المواقف العربية الرسمية حتى تهب المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية الى مقاومته لانه كما لخص ذلك حايم وايزمن « يهدف الى جعل عملنا (عمل الصهيونيين أ·ت) مستحيلا » ··

وجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية التي أصدرت هذا الكتاب الابيض كانت حكومة حزب العمال البريطانى الذى كان يؤيد دون تحفظ المشروع الصهيونى ويضم بين جوانبه منظمة عمالية صهيونية ·· وان كان هذا « التناقض » يدل على شيء من الاشياء فعلى انتماء قادة حزب العمال البريطانى الى محافل الامبريالية البريطانية التي رأت فى ذلك الوقت أن عليها ان تناور وتبدي شيئا من التحفظ المؤقت على اعتبار ان دفع المشروع الصهيوني في فلسطين الى أمام قد يولد انفجارا بين الجماهير العربية ··

وتأكدت هذه الحقيقة عند صدور الكتاب الابيض اللاحق (لعام ١٩٣٩) للمقاصد ذاتها في ظروف دولية أخرى ، عن حكومة حزب المحافظين ، حزب الاحتكارات الكبرى ··

وأما البرهان على ماهيـــة السياسة البريطانية القائمة على سياسة فرق تسد ٠٠ ووضع الوطن القومي اليهودي ، أمام الحركة القوميـــة العربيـــة التحرريـــة وتأييد الوطن القومي اليهودي بحيث يصبح موازيا في توازن القـــوى في فلسطـين لحركـــة الشعب العربي التحرريـــة في فلسطين ٠٠ ان البرهان على كـــل هذا فجاء حين « فسرت » الحكومـــة البريطانية الكتـــاب الابيض فى رسالة بعثت بها الى حايم وايزمن بتاريخ ١٣ شبـــاط ١٩٣١ ووصفها العرب « بالرسالـــة السوداء » ٠٠

لقد صـــدرت هذه الرسالة تجاوبـــا مع عاصفـــة من نقد الكتاب الابيض أطلقتهـــا المحافل الامبرياليـــة البريطانية التـــي كانت ترى فى توطيـــد الوطن القومي اليهودى توطيـــدا لمواقفها في العالم العربي وكانت تـــرى في الكتاب الابيض مناورة انتهـى مفعولها ودورها ٠٠ وروجت مواقفها في الصحافة البريطانية ونجحت في خلـــق جو موافق لصدور تلك الرسالـــة ٠٠

وفي هذه المماحكـــة الداخليـــة لعب حايم وايزمن دوره ٠٠ فاستقال من رياســـة الوكالة اليهودية ليستنفر قـــوى الصهيونية مع انـــه لم يتوقف عن العمـــل لحظة واحـــدة وكان يتنقـــل فى محافـــل لندن السياسية متساوقا مـــع كبار الامبرياليـــين البريطانيين الذين مارســـوا ضغوطهـــم عن طريـــق نوابهم فـــي البرلمان البريطاني ٠

ان الكتاب البريطانيـــين ينفـــون أن تكـــون « الرسالـــة السوداء » قد ألغـــت الكتاب الابيض ويصـــرون ، في أكثـــر الحالات على انها غيرت لهجة الكتاب الابيض لا غير (تقرير بشـــأن فلسطين أعدتـــه الحكومة البريطانية ١٩٤٥ للجنة التحقيـــق

الانجلـــو ـ أمريكية ص ٢٩) ••

ولكـــن الواقـــع يختلف تماما عن هذا الزعـم •• فالرسالة فعـــلا ألغت مفعول الكتاب الابيض وخاصـــة في أهـــم قضية فيه قضيـــة تطويـــر الحكـم الدستـــوري وتقليص الحكـــم الامبريالي المباشر ••

ثم ان « الرسالـــة السوداء » أعلنـــت عن وجود أراضـي للاستيطان الصهيوني •• ووافقت على استمرار سيـــل هجـــرة العمال اليهود للعمـــل في منشآت رأس المال اليهـودي (المصدر ذاتـــه ص ٢٩) •

واستنفـــرت هذه التطـــورات تشديـــد عداء الشعـــب العربي الفلسطيني لمبادىء الانتـــداب والحكم البريطاني الـــذى وقف ســـدا عنيفا أمام طمـــوح الاهالي نحو الاستقـــلال ••

التحول فى الحركة القومية العربيـــة

ولـــم تستنفـــر هذه التطورات مجرد عـــداء الشعب العربى الفلسطينى بـــل استنفـــرت تمايزا واضحـــا في القوى السياسية العاملـــة على المسرح السياسى العربى ••

وكان من الممكـــن رؤية تيارين بعد ١٩٣١ •• تيار يغلـــب الطابـــع الاسلامي على الحركـــة القوميـــة العربية ويضفي على الصراع لونا دينيا بحيث يصبح الصراع القومى صراعا دينيا ••

وتيـــار يتخلص من النظرة الدينيـــة أولا •• ويتجـــاوز النظرة الجانبيـــة التي رأت الصراع صراعـــا بين اليهود والعرب ثانيا •• وتتضح رؤياه ثالثا فيـــرى المعركـــة الجوهريـــة بين الحركة القوميـــة العربيـــة والامبريالية البريطانية التي تسخـــر

الصهيونية لمقاصدهـــا ..

واذا كان المؤتمر الاسلامى العام الذى عقـــد فى القـــدس فى ٧ كانون الاول ١٩٣١ قد مثـــل التيار الاول .. فمؤتمـــر الشباب العربى الفلسطينى الاول الذى عقد فى ٤ كانـــون الثانى ١٩٣٢ مثـــل التيار الثاني ..

وظهـــر الفرق فى التيارين في بناء كـــل من المؤتمرين .. فالمؤتمر الاسلامي العام جمـــع ممثلين من أكثـــر من ٢٠ قطـــرا كانوا فى كثير من الحـــالات رجال دين أو دنيا لا ينتسبـــون الى حركات عامـــة .. أو يمثلون حركات مغرقـــة في الرجعية مثل أولئك الذين زعموا انهم يمثلون روسيا الاسيوية !! في حين تألف مؤتمر الشباب العربي من أبناء فلسطيـــن وصـــدر عن مفاهيـــم قوميـــة عربيـــة .

كذلـــك ظهر طابـــع المؤتمر من قراراته التي تركـــزت على « تنميـــة التعاون بين المسلمين » !! و « حمايـــة المصالـــح الاسلامية وصيانة المقدسات » ! و « انشاء جامعات تعمـــل عـــلى توحيد الثقافة الاسلاميـــة » وبذلـــك تجاهـــل اليقظة القوميـــة العربية في فلسطين او حـــاول اخضاعهـــا لفكـــرة الجامعـــة الاسلامية الرجعيـــة ..

وكان من المفارقات فعـــلا أن يعقد المؤتمـــر في وقت نمـــو الحركة القوميـــة العربيـــة في فلسطين والعالم العربي فـــلا يتعرض بالتحديـــد لقضايا النضـــال الاستقلالي ويكتفى باعلان المؤتمر استنكاره لاي نوع من أنـــواع الاستعمار بما فيه الاستعمار الروسي !!! في بلاد تركستان ..

لقـــد اهتم المؤتمـــر « بمقاومـــة الالحاد » ودعا الى صـــد

الغـــارة على الدين ٠٠ ولم يرفع نـــداء الجماهير العربية فـــي فلسطين من أجل الاستقلال ٠٠

ولذلك لم يكن من قبيـــل المصادفـــة أن تذهب قراراتـــه العمليـــة من مثـــل : اقامـــة الجامعة الاسلامية فى القـــدس واقامـــة شركة لانقاذ الاراضي العربيـــة في فلسطين ٠٠ وتأسيس شركة زراعية كبـــرى يشترك فيها العالـــم الاسلامي أدراج الرياح ولا يبقى أثر للمؤتمر ذاتـــه (١) ٠٠

ولعـــل العناصر العربية الواعيـــة نسبيا أدركت ضيـــق أفق هذا المؤتمر أو لعلها اندفعت بدافـــع اليقظة القوميـــة حـين تنادت بعد اشتراكها في المؤتمر الاسلامي لتعقـــد مؤتمرا لها فـي القدس قررت فيه الدعـــوة الى مؤتمر عربى حقيقي وقررت سيادة العامـــل القومي العربي في قرار اتخذته واعلنت فيه « ان البـــلاد العربية وحـــدة تامـــة الاجزاء وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة فالامة العربيـــة لا تقـــره ولا تعترف به ويجـــب توجيه الجهود في كل قطر من الاقطار العربيـــة الى وجهة واحدة هي استقلالهـــا التام ومقاومـــة الاستعمار » ٠

ولم يكـــن مؤتمر الشباب العربي الفلسطينى هو مظهـــر التحـــول الوحيد في وجهة الحركة القوميـــة العربيـــة ٠٠ فالمناخ السياسى فى فلسطين بدأ يتغيـــر في أعقاب ١٩٣١ نتيجة عوامـل موضوعيـــة وذاتية ٠٠

أما العوامـــل الموضوعية لذلك فكانت في ثلاثة ميادين ٠٠

* فى نمـــو البرجوازية العربية الفلسطينية البطىء جـــدا واكتشافها ان الطريـــق مســـدود أمامها بفضل الامبرياليـــة

١ـ استعرض عيسى السفري في كتابه هذا المؤتمر ص ١٧٨

والصهيونية الاقدر على الحركة ‎٠٠‏ وقد حاولت البرجوازية العربية التحرك فأقامت البنك العربي فى عام ١٩٣٠ وبدأت تعد لاقامة بنك زراعى صناعى ‎٠٠‏

* فى استمرار عملية اجلاء الفلاحين العرب عن الاراضي التي باعها الاقطاعيون للهيئات الصهيونية ‎٠٠‏ ففي هذه الفترة تم اجلاء عرب وادي الحوارث وقدرت مساحة الاراضي التى كانوا يعملون فيها ب ٤٠ الف دونم مما عكس الازمة الزراعية وآكد مخاوف الفلاحين من الاستيطان الصهيوني ‎٠٠‏ وظهرت خطورة ذلك من تقرير سمبسون الذى جاء فيه أيضا ان عدد الفلاحين الذين بلا أرض يبلغ ٨٦٫٩٨٠ عائلة ريفية تمثل ٢٩٫٤٪ من العائلات العربية التى تعتمد على الزراعة ‎٠٠‏ (حول الحركة العربية الحديثة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ٩٤ والملحق ص ٢٩٢)

* فى نمو الطبقة العاملة العربية تنظيميا ‎٠٠‏ ففي عام ١٩٣٠ عقد مؤتمر العمال العرب الاول وقد بادرت اليه جمعية العمال العربية الفلسطينية التى قامت في حيفا عام ١٩٢٥ ‎٠٠‏ لقد تماثل هذا المؤتمر مع حركة التحرر القومي العربية وساعدها على تأكيد الطابع المعادي للامبريالية ‎٠٠‏

ومن البديهي أن هذه العوامل الموضوعية حركت قوى وطنية أولا ، وساعدتها على الرؤيا الصحيحة ثانيا ‎٠٠‏ فبدأت تتنظم ثالثا ‎٠٠‏ وبذلك غيرت وجهة الحركة القومية العربية وأضعفت الطابع الديني الذى حاولت بعض القوى اضفاءه على مجموعة الحركة القومية العربية ‎٠٠‏

وهكذا كان في وسع أمين سعيد صاحب « الثورة العربية

الكبـــرى » أن يكتب فى مطلـــع وصفه هبة ١٩٣٣ ما يأتي :

« ورأى مفكرو العرب أن يكون النضال في المرحلة الجديدة موجها ضد الانجليز باعتبارهـــم المسؤولين عن السياســـة التي ترمي الى محوهم وابادتهـــم وباعتبارهم حماتها ومنفذيها » ..

الفصل الثاني عشر

هبة سنة ١٩٣٣

لقد لاحظنا أن نمو البرجوازية العربية الفلسطينية الى حد ما ، واستمرار عملية اجلاء الفلاحين العرب عن الاراضي التى باعها الاقطاعيون للهيئات الصهيونية ، ونمو الطبقة العاملة العربية تنظيميا ـ كانت من العوامل التي غيرت المناخ السياسي وساعدت على تحول وجهة الحركة القومية العربية الى طريق مكافحة الامبريالية البريطانية بدلا من الانحراف عن هذا النضال الى الاحتراب العنصري ..

وساعد تراكم اجراءات الادارة البريطانية تأييدا لمشروع الوطن القومي اليهودي ونموه كميا على ايقاظ اعداد كبيرة من القوميين على حقيقة السياسة البريطانية في فلسطين.. فهذه الادارة هي التى كانت تحول دون قيام حكومة فلسطينية مستقلة .. وهي التى كانت تفتح أبواب البلاد أمام الهجرة اليهودية المتدفقة .. وجنودها وأفراد شرطتها هم الذين كانوا يجلون الفلاحين عن أراضيهم ويهاجمون المتظاهرين المناديين بالاستقلال .

وأسهم التمايز فى الحركة القومية في هذا التطور .

وتعمق هذا التمايز فى هذه الفترة بالذات حين مالت

العناصر الاقطاعية الى التعاون تعاونا أوثق مع الامبريالية البريطانية نتيجة طبيعتها الطبقية وازدياد الصراعات الاجتماعية في البلاد ·· مما دفعها الى التفتيش عن طريق لصيانة مواقعها فوجدته بالامبريالية

وقد اتسعت هذه الصراعات وامتدت الى المدن والريف ·

وفي حين اتخذت فى الريف شكل نضال فلاحي ضد الاجلاء ·· اتخذت في المدن شكل اضرابات نقابية ·

ففي هذه الفترة ـ في ١٩٣٣ ـ أجلت السلطات فلاحي عرب الحوارث بالقوة عن الواحد والاربعين ألف دونم من مرج بن عامر ، التي باعها الاقطاعيون من آل التيان اللبنانيين في عام ١٩٢٩ للمنظمات الصهيونية ، وبذلك شردت ١٥٠٠ مزارع بعد أن أدت المعركة التي دارت بين الشرطة البريطانية والفلاحين الى سقوط عدد من القتلى ·· (القضية الفلسطينية ، يوسف هيكل ، ص ١٤٦)

وهكذا اشتد النزاع على الاراضي نتيجة بيع الاقطاعيين العرب أراضيهم ، وظهرت قضية المزارعين المشردين بالحاح جعل وزير الدولة البريطاني يعلن فى مجلس العموم ، في ١٤ تموز ١٩٣٣ ، عزم حكومته على تمويل توطين المزارعين المشردين بقرض ينفق منه على تطوير الاراضي أيضا· (تقرير الادارة البريطانية ص ٣١)

واستمرت حوادث العنف في الريف وكان من أبرزها حادثة اجلاء عرب الزبيدات عن أراضيهم في الحارثية (بالقرب من حيفا) بعد أن باعها أصحابها الى المنظمات الصهيونية ·· وفي هذه الحادثة استخدم البوليس العنف ، وقتل مزارع

أثناء اطلاق البوليس النار على المزارعين ٠٠ (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ـ عيسى السفري ـ ص ٢٣٨) ٠

وأما في المـــدن فقد وقـــع ٤٦ اضرابا اشترك فيهـــا ٤٠٠٠ عامـــل عربى بين سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣٥ ٠

قد لا تبدو هذه الموجة العماليـــة النضاليـــة كبيرة الاهمية بالقياس الى اليـــوم ، ولكنـــه في ظروف فلسطين انذاك كانـت حركة الاضرابات هـــذه أمرا كبيـــرا ٠٠

واتســـاع حركـــة الاضراب في القطاع العربي نسفـــت مزاعم الصهيونية حـــول خنـــوع العمال العرب وعدم قدرتهـــم النضاليـــة ٠٠ بالمقارنة مع العمال اليهود ٠

فقد بلـــغ عدد الاضرابات في القطاع اليهودي بين سنـــوات ١٩٢٣ و ١٩٣٥ ٥٥ اضرابا اشترك فيها ١٣٢٣ عاملا ٠ (حركـــة العمال فى اسرائيل ـ ولتر بريوس ـ ص ١١٨)

وفى الوقت ذاتـــه شهدت هذه الفتـــرة تعاونا عربيا ـ يوديا في ميـــدان النضـــال الاجتماعي ٠٠ ففي عام ١٩٣١ أضرب ٣٠٠٠ سائـــق عربي ويهودى لمدة أسبـــوع احتجاجا على رفض الحكومة تخفيض ضريبة الوقود والرسوم ٠ (المصدر ذاته) ٠

وفى هذه الظـــروف انعكس التمايـــز في الحركة القوميـــة فى تعاون الاقطاعيين العرب مع السلطة ٠٠ وفى التنظيم الحزبى ٠

ولاحظ محمد عزت دروزه في كتابـــه حول الحركة العربية الحديثة هذا الامـــر بطريقته الذاتيـــة فكتب عند تحديـــده سياسة المندوب السامي البريطانى ارثر واكهوب (بـــدأ عهـــده فى تشرين الاول عام ١٩٣١) :

« وقد توسع (واكهوب ـ أ٠ت) في خطة تعيين أبناء الاسر

المعروفة من مجلسيه ومعارضة ٠٠ وكان محسوسا أن هذه التعيينات جاءت نتيجة لالتماس زعماء هذه الاسر ٠٠٠ على اعتبار ان الموظفين بمثابة رهائن تجعل الاباء والاسر مضطرين الى الرضا والحمد » ٠٠٠ (الجزء الثالث ص ٨٧) ٠

وأضاف في شرح ظهور الاحزاب (بعد أن ذكر سقوط مزارعي وادي الحوارث برصاص الجند الانكليز) : « فصار من الواجب اللازم توجيه الكفاح نحوهم (الانكليز) ، انهم بيدهم وحدهم التعديل والنقض والابرام وقد كانوا أصل البلاء وظلوا كذلك » ٠٠ (ص ٩٧) ٠

والواقع ان الحركة القومية العربية لم تعد تستطيع الاكتفاء بتنظيمها الفضفاض حول اللجنة التنفيذية (خصوصا بعد وفاة رئيسها موسى كاظم الحسيني) وذلك بسبب الصراعات الاجتماعية وانعكاسها على القوى القيادية في الحركة القومية أولا ٠٠ وبسبب احتدام الازمة السياسية في البلاد نتيجة ضغوط الهجرة اليهودية المتزايدة في أعقاب انتصار النازية في ألمانيا ثانيا ٠ وتدل الاحصاءات على أن عدد المهاجرين بين ١٩٣٠ و ١٩٣٥ بلغ حوالي ١٨٠ الف مهاجر ٠ (١) ٠

وهكذا تألف أول ما تألف حزب الاستقلال في شهر آب ١٩٣٢ من العناصر التى انتمت الى الحركة القومية العربية العامة ـ جمعية العربية الفتاة ـ واعتقدت ان الحركة القومية

---

١ ـ تجدر الملاحظه ان احصاءات الحكومه تذكر الاحصاءات على الوجه التالي : ١٩٣٠ـ١٩١٤ ، ١٩٣١ـ٤٠٧٥ ، ١٩٣٢ـ٩٥٥٣ ، ١٩٣٣ـ٣٠٫٣٢٧ ، ١٩٣٤ـ٤٢٫٣٥٩ و ١٩٣٥ـ١١٫٨٥٤ في حين الاحصاءات الصهيونية هي كالاتي حسب السنين اعلاه : ٤٫٩٤٤ ، ٤٫٠٧٥ ، ١٥٫٥٥٣ ، ٣٨٫٦٥٦ ، ٤٩٫٣٣٥٩ و ٦٥٫٦٣٧ ٠
وأغلب الظن ان الاحصاءات الاخيرة تشمل المهاجرين غير الشرعيين ٠

ضعفت ووهنت ، « فبعد أن كانت » القضية ـ كما جاء في بيان تلك العناصر الصادر في تموز ١٩٣٢ ـ « قضية استقلال تحمل خواص القضية العربية الكبرى وتكافح الاستعمار وجها لوجه أصبحت قضية محلية تتأثر بالنزاعات الشخصية والاهواء العائلية » .

وهاجم البيان موقف بعض القياديين في الحركة القومية الذين اتخذوا موقف العجز والمسكنة وحصروا نشاطهم « بمقاومة القضية المصطنعة التي نكبنا بها (الاستعمار) ليلهينا عن أغراضنا المقدسة العليا » .. وأعلن ان المبادرين الى اقامة الحزب اعتقدوا انه آن الاوان للقيام « بحركة وطنية خالصة على يد حزب سياسي استقلالي يكافح الاستعمار وما جره من نكبات » .. ويبتعد عن السياسات المحلية والشخصية والعائلية ..

ومع انه من الصعب توزيع القوى الاجتماعية الموجودة في فلسطين آنذاك على الاحزاب العربية التي قامت في سنوات الثلاثين ، الا انه من الممكن القول أن حزب الاستقلال الذي تألف من مثقفين وأبناء اقطاعيين متنورين ، وبرجوازيين ، كان أقرب الاحزاب الى الاعراب عن مطامح الحركة القومية العربية التي تقودها البرجوازية وتعكس الى حد ما أماني فئات واسعة من الجماهير ..

وفي اجتماعاته الشعبية وبياناته كان حزب الاستقلال يندد بالنير البريطاني ويتوقف عند نتائج الحكم البريطاني ويعالج القضايا المختلفة التي تواجه الشعب .

وفي بيانه في ذكرى وعد بلفور (٢-١١-١٩٢٣) عالج ،

بعد مقدمة استعرض فيها الحركة العربية والثورة واحتلال بريطانيا فلسطين لمدة ١٤ سنة ، الموازنة التي لا تتحملها البلاد « فالموظفون الانجليز والغرباء اليهود يبتلعون الجزء الاكبر منها وثلثها ينفق على الحراب التي تحمي المشروع الصهيوني » ، وشجب الحكومة التي لا تحمي المزارعين العرب رغم تواصي لجان التحقيق ولا تضع تشريعا يمنع انتقال أراضيهم الى الصهيونيين •• ولاحظ أن البطالة ضاربة أطنابها في البلاد التي ترهق بالضرائب ـ وهي ضعف مثيلاتها في البلاد العربية المجاورة • وذكر ان الضرائب على المواد الغذائية أدت الى ارتفاع الاسعار وان أزمة التعليم شديدة تظهر في أن أكثر من ٧٠ بالمئة من الاولاد خارج المدارس وأن قانون المطبوعات يكم الافواه ••

وفي النهاية أبرز البيان أن بعض الناس يتطوعون في خدمة الاستعمار ودعا الشعب الى تشديد معركته ضد الاستعمار وأساليبه والصهيونية وغزوتها وضد الخونة ••

ورفع الحزب المطالب الثلاثة التي تحولت الى شعارات شعبية : وقف بيع الاراضي ، وقف الهجرة وتسليم أبناء البلاد الحكم ، وتحقيق استقلال فلسطين « متحدة مع البلاد العربية الاخرى » ••

وظهر أن حزب الاستقلال ، الذى نشط حوالي السنة ونصف السنة فعقد الاجتماعات الشعبية وأصدر البيانات ، نجح فكريا بدون أن يحقق انجازات تنظيمية ••

أما نجاحه الفكري فكان في تبني سائر الاحزاب التي أعقبته خطه السياسي ـ علنا على الاقل ـ ••

أما فشلـه التنظيمي فقد اتضـح حين اضطر الى تصفية نشاطـه بعد سنة ونصف السنة تقريبا (من تموز ١٩٣٢ الـى كانون الاول ١٩٣٣) بسبب مقاومـة الانتداب له وقلـة المـال وصفات العضويـة الشديدة (حول الحركـة العربية الحديثـة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ١٠٣ ـ ١٠٤) ..

وقـد بقي الحزب في الميـدان شكليـا وكان يتمثل دائما فى الهيئات القومية المحلية والقطريـة ..

ولكن تقلص نشاط حـزب الاستقلال لم يقلص نشـاط الحركة القوميـة الشعبيـة فالعوامل السياسية والاقتصاديـة التى أشار اليها حزب الاستقلال في بياناته كانت تستنفر نشاطا ثوريـا ..

وفعلا انفجـر هذا النشاط بهبـة عام ١٩٣٣ المعاديـة للامبريالية البريطانية ..

وتقرر المصادر البريطانية أن بدايـة الوثبـة كانت فـي اذار ١٩٣٣ حين أصـدرت اللجنة التنفيذية بيانا حذرت فيـه من خطـر الهجرة الصهيونية المتدفقـة وانتقال الاراضي الـى المؤسسات الصهيونية ..

ثم جاء مؤتمر ٢٦ اذار ١٩٣٣ الذى اشترك فيه ممثلون عـن مختلف فئات الشعب من المـدن والقـرى وقرر عـدم التعاون مع السلطات البريطانية ومقاطعـة الهيئات الحكومية المشتركـة والبضائـع البريطانية والصهيونية .. ومما استنفـر الـرأي العام العربي في فلسطين ودفـع الجماهير الى تشديـد الكفـاح مجريات المؤتمر الصهيوني العالمي الـذي عقد في براغ فـي آب ١٩٣٣ ، ودعا الى بنـاء الوطن القومي اليهـودي في فلسطـين

بأسرع ما يمكن ..

وهكذا كانت تتراكم عوامل الهبة التي انفجرت بعنف بعد شهرين ..

ومرة أخرى قادت اللجنة التنفيذية المعركة ووجهتها ببيان أصدرته بعد اجتماعها في تشرين الاول سنة ١٩٣٣ وأعلنت فيه دعوتها الجماهير الى :

« اعلان سخط الامة العربية في فلسطين التي بليت بالاستعمار البريطاني على عبث الحكومة البريطانية بحقوق أصحاب البلاد وتحديها عواطفهم الوطنية .. واستهتارها بكيانهم الوطني ومصالحهم الاقتصادية والاجتماعية بفتحها أبواب البلاد للهجرة الصهيونية وتسهيلها انتقال أراضي العرب الى أيدي اليهود واستبدادها بالحكم المباشر » ..

ودعت اللجنة التنفيذية الشعب الى اعلان سخطه بالمظاهرات .

واجتاحت البلاد موجة من المظاهرات الشعبية التي امتازت بالثورية وتحدي قوى القمع الاستعمارية .. فقد جرت هذه المظاهرات على الرغم من الحظر الحكومي واصطدمت في كل مرة بقوات الامن الانتدابية ودفعت ثمن ذلك ضحايا عزيزة ..

وكانت المظاهرات التي جرت في ١٣ تشرين الاول في القدس ويافا .. والمظاهرات التي جرت بعد ذلك في حيفا ونابلس وسائر المدن تعبيرا مجسدا عن نضالية الجماهير ووعيها .. وذكر الكتاب الذين أرخوا هذه الهبة أن النساء اشتركت في النضال على نطاق واسع وان وفودا من سوريا

وشرق الاردن اشتركت في مظاهـرة يافا بتاريخ ١٣ تشريـن الاول ١٩٣٣

وفي هـذه المظاهـرة استخدم البوليس النار مما أدى الى سقوط عدد من القتـلى في ساحة البوابة التي أطلقت عليهـا الجماهيـر فيما بعد اسم « ساحة الشهـداء » ‥ (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ٢١١)

وحسب تقريـر الحكومة البريطانية امتـدت هذه الهبـه ستة أسابيع ووصلت موجتها الى المدن الرئيسية كلهـا ‥

وخـلال المصادمـات مع قوات الامن البريطانية سقط ٢٤ شهيـدا وجرح ٢٠٤ مواطنين عـرب ‥ وكالعادة أقامت الحكومة لجنة تحقيـق لدراسة أسباب « الاضطرابات » ‥ ، برئاسـة وليم ميورسون فقدم تقريره في شباط ١٩٣٤ ·

وأبـرز ميورسون في تقريـره ان الفرق الكبير بين هذه الهبة « واضطرابات » ١٩٢٠ و ١٩٢٩ ان العرب لاول مرة يهاجمون الحكومـة ويتهمونها بالتحيـز للصهيونيين ·

واذا كان اشتراك النساء في الهبة الثوريـة قد دل عـلى عمق التحسس الشعبي بقضيـة الحريـة وتحريكها مختلـف فئات الجماهير فقد دل اشتـراك وفود من القطرين العربيـين المجاوريـن على فعاليـة فكرة الوحـدة العربية والتضامـن العربي على الرغـم من التمزيـق الاقليمي الذي فرضته الامبريالية على العالـم العربي ·

وانعكست هـذه الفعاليـة حين تأسست سائر الاحـزاب بعد هذه الهبة فالحزب العربي الفلسطيني الـذي تأسس في ٢٤ نيسان ١٩٣٥ وضـع بندا سجل فيه الدعـوة ، بعد استقـلال

فلسطين ، الى « ارتباط فلسطين بالاقطار العربية في وحدة قومية سياسية مستقلة استقلالا تاما » ..

وحزب الاصلاح الذى تأسس في ١٨ حزيران ١٩٣٥ جعل من غاياته « استقلال فلسطين ضمن الوحدة العربية واعتبار قضية فلسطين جزء من القضية العربية الكبرى » .

وحزب الكتلة الوطنية سجل في برنامجه « السعي الى استقلال فلسطين التام والمحافظة على عروبتها ضمن الوحدة العربية » .

ووجود ما يشبه الاجماع على قضية الوحدة العربية يوحي بأن القيادة القومية على الرغم من اعترافها عمليا بضرورة العمل على الصعيد الاقليمي في فلسطين ، بدليل دعوتها الى استقلال فلسطين ، كانت لا تزال تنطلق من الوعي بوحدة سوريا الطبيعية وترى فلسطين جزءا من سوريا : سوريا الجنوبية كما كان يطلق عليها قبل الاحتلال البريطاني .

وعمقت هبة ١٩٣٣ التمايز في الحركة القومية العربية وتبلور تنظيميا أكثر من أي وقت مضى

فبعد هذه الهبة تأسس حزب الدفاع الوطني برئاسة راغب النشاشيبي ، زعيم احدى العائلتين الاقطاعيتين الكبيرتين في البلاد (الثانية هي عائلة الحسيني) وانتهج سياسة المهادنة مع الامبريالية البريطانية ..

ولا يغير من هذا انه وضع في بداية غاياته « السعي لاستقلال فلسطين استقلالا يكفل السيادة العربية » و « عدم الاعتراف بأية تعهدات دولية تؤدي الى أية سيطرة أجنبية أو نفوذ سياسي أو وضع سياسي او اداري يمس ذلك الاستقلال » ..

ولم تختلف قيادة الحزب العربي الفلسطيني برئاسة جمال الحسيني من حيث انتسابها الطبقي عن حزب الدفاع الوطني .. فعائلة الحسيني عائلة اقطاعية عريقة لم يستنكف بعض افرادها عن التعاون مع الانتداب البريطاني ... انما الفرق بين الحزبين يكمن في أن جماهير الفلاحين سارت وراء قيادة الحزب العربي فكان هذا الحزب يمثل ارادتهم الوطنية الى حد ما .. ويعود هذا الى أن هذا الحزب قادته عائلة الحسيني ومفتي القدس (فلسطين) الحاج أمين الحسيني الذي استخدم ، بوصفه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، جهاز المجلس لنشر نفوذه بين الفلاحين تحت شعارات تمزج بين الدين والقومية ..

وقد رأينا كيف بادر المفتي في عام ١٩٣١ الى عقد المؤتمر الاسلامي « العالمي » .. ونستطيع أن نذكر هنا انه عقد في ٢٥ كانون الثانى ١٩٣٥ فى القدس مؤتمرا اسلاميا محليا حضره « أربعماية من القضاة ورجال الافتاء وأئمة المساجد والوعاظ والمدرسين والخطباء من سائر أنحاء فلسطين » .

وقرر المؤتمر اصدار فتاوى دينية بتحريم بيع أي شبر من آراضي فلسطين لليهود واعتبار الباعة مارقين من الدين .. كما قرر المطالبة بوقف الهجرة ومنع بيوع الاراضي ... وتمكين الراغبين في وقف أراضيهم الاميرية ، وقفا ذريا أو خيريا ، من ذلك .. ثم طالب بتسهيل هجرة العرب الراغبين في دخول فلسطين .. وناشد المؤتمر ملوك المسلمين والعرب مساعدة أهل فلسطين !!

كذلك قرر المؤتمر مساعدة المشاريع الاقتصادية

وتأسيس الشركات الوطنية ٠٠ وحض الاهالي على شراء المنتجات الوطنية ٠

وانعكست الصلة بين هذا المؤتمر والفلاحين بدعوة المؤتمر الحكومة لسن قانون يشبه قانون الخمسة أفدنة في مصر (مع أنه كان مجرد قانون أ٠ت) لحماية صغار المزارعين من جشع كبار الملاكين والاغنياء ٠٠ (عيسى السفري ٢٢٨-٢٢٩) ٠

وانتهى المؤتمر تنظيميا بقرار يدعو الى تأليف جمعية باسم « جمعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهي جمعية أرادت أن تأخذ مكان اللجنة التنفيذية وتسيطر على الحركة القومية ٠٠

ومرجع هذه الفكرة الى جمعية كهذه نشأت في المملكة السعودية في عهد الدعوة الوهابية واشتهرت بالصرامة الدينية والرجعية الفكرية ٠٠

ومع أن هذه الجمعية نشطت وأقامت ١٥ فرعا في مختلف أنحاء البلاد ، الا انها لم تنجح فى احتلال مكان التنظيمات السياسية ٠٠ فقد أحبطها بناؤها الديني في قطر كان يؤكد كفاحه الطابع القومي العربي ويجمع تحت لواء الحركة القومية أبناء الشعب العربى من مسلمين ومسيحيين ٠

وكانت هذه الدعوة الى الملوك المسلمين والعرب أحد مظاهر الانحرافات الرجعية التى تميزت بها قيادة الحركة القومية العربية التقليدية في فلسطين ٠٠ فهؤلاء كانوا في ذلك الوقت يوالون الامبريالية ويتعاونون معها ولا يخرجون كثيرا عن ارادتها ٠٠

وجسم تصريح الشيخ حافظ وهبة سفير السعودية

فى لندن لرويتر في ٢ أيلـــول ١٩٢٩ هذه الحقيقـــة اذ قال :

« ان ابن سعود وشعبـــه يعترفان بأن فلسطين أرض مقدسة عند ثلاث ديانات كبيرة ٠٠ ويرغـــب الملك من صميـــم فؤاده أن يعيش المسلمون واليهود والمسيحيون فيها بالاتفـــاق والوئام ٠٠ ان ابن سعود صديـــق لبريطانيا العظمى ومن المؤكـــد انه لا يحاول أن يوجد لها مشكـــلات جديـــدة في فلسطين أو غيرهـــا او أن يوســـع شقة المشكـــلات الحالية ٠٠ ويعتقد الملك أن بريطانيـــا تقبض بيدها على قسطاس العـــدل بين اليهود والعـــرب » ٠٠ (أمين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى الجزء الثالث ص ١٠٧) ٠

وظهـــر في هذه الفترة كذلك حزبان (أشرنا اليهما فـــي اطار الحديث عن فعاليـــة التضامـــن العربي) : حزب الاصـــلاح الذى تأسس في ١٨ حزيران ١٩٣٥ بقيـــادة الدكتور حســـين فخري الخالـــدي الذى تولى رئاسة بلدية القـــدس ٠٠٠ وحـــزب الكتلـــة الوطنيـــة بقيادة عبد اللطيف صلاح وقـــد اتخـــذ نابلس مركزا له وتأسس في ٤ تشرين الاول سنـــة ١٩٣٥ ٠٠

ولم يختلـــف برنامجا هذين الحزبين عن برامج سائـــر الاحزاب ٠٠ أما من حيث البناء الطبقي والتأييـــد الاجتماعي ففي الحالتين اتجـــه هذان الحزبان نحـــو المثقفين أبناء الفئات الوسطى ٠٠ على الرغـــم من أن عائلة الخالـــدي كانت تعتبر من العائلات الاقطاعية ذات النفوذ التقليـــدي ٠٠

وتجـــدر الملاحظـــة أن تأليف الاحزاب العربيـــة التقليدية ـ عدا حزب الاستقـــلال ـ أعقب الانتخابات البلديـــة التي جرت في منتصف عام ١٩٣٤ وكانت باعثـــا لمهاتـــرات ومماحكـــات عرفتها قيادات الحركات القوميـــة التقليديـــة (التي كانت فـــي

بلاد أخــرى أيضا بقيـادة أبناء الفئات العليـا من متنـوري الاقطاعيـة وأسياد الارض والتجار وأبناء الفئات الوسطى) •

بـل ان حزب الاصـلاح اعتمد جوهريا على البلديـات بعد أن نجح الدكتور حسين فخري الخالـدي في الفـوز برئاسة بلدية القـدس في منافسـة مريـرة مع الرئيس الاسبـق راغب النشاشيبي •

وحيـال كل هذه الاحزاب الطبقية القوميـة كان هنـاك الحزب الشيوعى الفلسطيني الذى وحـد بين صفوفه الشيوعيـين اليهود والعـرب وحارب الامبريالية البريطانية والصهيونية بـلا هـوادة •• ولم يكن غريبا أن تكون قـوة الحزب في القطـاع اليهودي •• فالوعي الطبقي كـان اشد بين العمال اليهـود •• ثم ان عـددا من اليساريين اليهود الذين جاءوا الى البـلاد فـي ظروف مختلفة ولدوافـع متباينـة اكتشفوا بسرعـة حقيقـة الصهيونية ووجدوا طريقهم الى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني الذى دعا ، انطلاقـا من مبادئه الثوريـة الاميـة ، الى النضال ضد الامبريالية والصهيونية وأيـد النضال القومي العربي بقـدر انصبابه ضـد الامبريالية البريطانية ودعا الجماهير اليهوديـة الى تأييـد هذا الكفاح باعتباره يعرب عن مصالحها الحقيقيـة ••

وسرعان ما احتدمـت الازمـة بتشديـد الكفـاح القومي وشهد الحزب ظرفا أصعـب جـدا ••

ولقد قرر الحزب منـذ مؤتمـره الخامس الذى عقد فـي تموز ١٩٢٣ انه يـرى فى الحركة القوميـة العربيـة أحـد العوامل الاساسية التى تقاوم الاستعمار البريطاني ولـذا فهـو يرى ان من الواجب القيـام بكل شىء من اجـل مسانـدة هـذه

الحركة بمدى مقاومتها للاستعمار »

كذلك قرر ان « الصهيونية تتجسد فيها تطلعات البرجوازية اليهودية · وان من الناحية السياسية وقفت الصهيونية فى جبهة واحدة مع الاستعمار البريطاني حيث ربطت مصيرها مع المحتلين الامبرياليين » (٥٠ سنة ·· ص٣٩)

ومما جعل وضع الحزب الشيوعي أصعب تعاون القيادة الصهيونية مع السلطات البريطانية على مكافحة الحزب من ناحية ·· ومطاردة أعضاءه اليهود من ناحية ثانية ـ وبشكل خاص كانت قيادة الهستدروت الصهيونية تلاحق أولئك الاعضاء الذين تصدوا لسياستها القومية الانعزالية ·· ومن ألوان الملاحقة محاكمة الشيوعيين اليهود الذين عارضوا في احتلال العمل وطرد العمال العرب من المشاغل اليهودية ·· واحدى المحاكمات التى جرت في هذه الفترة محاكمة نيس تسيونا خلال اذار ـ نيسان ١٩٣٢ · انذاك كان « النائب العام » في المحاكمة بن غوريون ·· ووقف الرفيق الشيوعي الذى دافع عن المتهمين موقفا أمميا ووصف طرد العمال لانهم عرب : « معركة سافلة وعمل اجرامي ·· وهو نوع من الفاشية » (٥٠ سنة للحزب الشيوعي فى البلاد ص ٤١)

وقد تعرض الحزب لهجوم أجهزة القمع الانتدابية ولم يتمتع بشيء من العلنية ·· وكل ما نجح فيه في هذه الفترةاصدار صحيفة «اور» العبرية و «النور» العربية لفترة قصيرة··

الوطن القومي اليهودي

قلنا أن هذه الفترة شهدت نمو الوطن القومي اليهودي بازدياد وتيرة دخول المهاجرين اليهود فلسطين بضغط

صعود هتلر الى الحكم فى ألمانيا وانتهاجه سياسته النازية العنصرية الشريرة • في ذلك الوقت ازداد ضغط الحركة الصهيونية على الادارة البريطانية لالغاء كافة القيود على الهجرة • ولخص المؤتمر الصهيوني الذى عقد فى لوزان في نهاية تموز وأوائل آب ١٩٣٥ موقف المنظمة الصهيونية اذ جاء فى قراره : « ان المؤتمر الصهيوني وهو يثمن جيدا الدور الذى تقوم به الدولة المنتدبة (بريطانيا) ويؤكد مجددا استعداد المنظمة الصهيونية للتعاون معها يناشد الحكومة القيام بمسؤولياتها بتنفيذ سياسة فعالة ومنتظمة لتنمية الوطن القومي اليهودي على نطاق ووتيرة يفرضهما وضع اليهود فى العالم ، الامر الممكن بمساعدة الحكومة الفعالة » (تقرير لجنة التحقيق الملكية لعام ١٩٣٧ ص ٨٩) •

وفعلا دخل البلاد بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ حوالي ١٥٠ الف مهاجر يهودي مما جعل عدد اليهود فى البلاد يتضاعف حوالي أربع مرات مما كان عليه فى نهاية الحرب العالمية الاولى ويصل فى عام ١٩٣٥ الى حوالي ٣٥٠ ألفا • وفي عام ١٩٣٦ أصبح ٤٧٠ ألفا اسميا ، أو ٤٠٠ ألف اذا أخذنا بعين الاعتبار الهجرة غير المشروعة (التقرير ذاته ص ١١٣)

وبارتفاع عدد اليهود فى البلاد ارتفع عدد الدونمات التى أصبحت في حوزتهم وحوزة المنظمات الصهيونية من ٥٤٤ ألف دونم في عام ١٩٢٥ الى ١٫٣٣٢ ألف دونم في عام ١٩٣٦ ••• وأصبح عدد المستوطنات الزراعية ٢٠٣ يعمل ويعيش فيها ٩٧٫٠٠٠ انسان • (المصدر ذاته ص ١١٤)

وذكر ولتر بريوس في كتابه « حركة العمال في

اسرائيل » ان عدد سكان الريف اليهود ارتفع بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ من ٥٠ ألفا الى ٩٠ ألفا وأن مساحات بيارات البرتقال ازدادت من ١٠٠ ألف دونم الى ١٥٠ الف دونم بين ١٩٣١ و ١٩٣٥ · واتسعت المدن والمستوطنات اليهودية نتيجة حركة البناء الواسعة النطاق التى رافقت الهجرة الجماهيرية التي تدفقت باشتداد بربرية العنصرية النازية ·

انذاك أسست الوكالة اليهودية مكاتب في برلين لتسهيل هجرة اليهود وتعاونت تعاونا وثيقا مع النازية لهذا الغرض ·

وتضاعفت الاموال المستثمرة في النشاط الاقتصادي المرافق لعملية بناء الوطن القومي اليهودي ·· وبين ١٩١٨ و ١٩٣٦ استثمرت الصناديق القومية فى فلسطين ١٤ مليون جنيه (حوالي ٤٠ مليون دولار حسب التسعيرة فى ذلك الوقت) فى حين استثمرت الشركات الخاصة والاجنبية والمحلية ٦٣ مليون جنيه (حوالي ١٨٠ مليون دولار) دخل نصفها النشاط الصناعي والزراعي خلال السنوات الاربع الاخيرة ·

وحسب تقرير لجنة التحقيق الملكية تأسست بين ١٩٢٠ و ١٩٣٥ ــ ١٥٧ر٤ منشأة منها ٢٤٦ر١ منشأة صناعية و ٩١١ر٢ منشأة صناعية يدوية ·· وكذلك ارتفع عدد العمال اليهود ليصبح ٣٢ ألف عامل يعيلون ٨٠ ألف انسان · (المصدر ذاته ص ٢١٠)

وفى هذه الفترة كانت القوات اليهودية المسلحة ، في المنظمة التي عرفت « بالهاجناه » ، قد وصلت حسب المعلومات التى أوردتها لجنة التحقيق الملكية ١٠ الاف محارب صف أول مع احتياطي (خط ثاني) يتألف من ٤٠ ألف محارب ·



الشعب الاعزل الا من الايمان بالحرية والاستقلال في مظاهرة يافا ١٩٣٣
ويظهر في الصورة فلول رجال الشرطة وهي تنهزم من امامه

(المصدر ذاتـــه ص ٢٠٠) ٠

وكان من الطبيعي في مثـــل هذا الوضــــع أن ينعكس البناء الطبقى فى التنظيم الحزبى أولا فى النشاط السياسى ٠

وقد ظهر الصـــراع الطبقي فى عدد الاضرابات التى بلغـت بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ ــ ٥٥ اضرابا اشترك فيها ١ر٣٢٧ ٠٠ وفـي محاولات الاصلاحيين (حزب البرجوازيـــة اليميني بقيادة فلاديمير جابوتنسكي) تحطيـــم بعض هذه الاضرابات كما حصــــل فـي اضراب عمال البناء فى بتاح تكفا وشركـــة فرومين للبسكويـــت فى القـــدس فى فترة ١٩٣٢ ــ ١٩٣٣ (حركـــة العمال فـــي اسرائيل ، ولتر بريوس ، ص ١١٨) ٠

ولم يقتصـــر الصـــراع الطبقى على الميـــدان النقابي بـــل تعدالى الى الميـــدان السياسي ٠٠

لقد كانت أكثريـــة العمال العددية في المجتمـــع اليهودي فى فلسطين تنعكس فى تنظيمـــات السكان اليهود المحلية وفـي المؤتمرات الصهيونية ٠٠ وفي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ استطاعت هيئـــات العمال ان تفـــوز بـــ ٧٠ بالمئة من الاصـــوات فى انتخابـــات تلك التنظيمات (المصدر ذاتـــه ص ١٢١) ٠ ولذلك لم يكـــن غريبا أن تحاول قـــوى اليمين (الاصلاحييـــن) ضرب التنظيم العمالي بأي شكل من الاشكـــال ٠

وقد كـــان أحـــد الاشكال اغتيـــال حايم ارلـــوزروف ، أبـــرز قائد عمال فى ذلك الوقت ورئيس الدائـــرة السياسيـة فى الوكالة اليهودية ، في ١٦ـ٢ـ١٩٣٣

وعـــلى الرغـــم من أن الاصلاحيين نفوا أن يكون لهـــم علاقة بالحادث فالتهمة ثبتـــت على منتسبين اليهـــم ٠٠ وحكـــم

على اثنين منهم بالسجن ٠

ولا جـــدال في أن اغتيال أرلوزروف كان اغتيالا سياسيا ٠٠ فقد كان في ذلك الوقـــت ـ حسب ما كتبه ولتر بريـــوس ـ ينتهج سياسة توافق مع سلطـــات الانتـــداب الامر الذى كـــان يغضب الاصلاحيين ٠ (كتابـــه ، حركة العمـــال في اسرائيل ، ص ١٢١) ٠

ولا بـــد من الملاحظـــة هنا أن الصـــراع بين الاصلاحيين ومنظمات العمـــال ، وأهمها حزب مباي ، كان صراعا بين خطيـــن سياسيين بالاضافـــة الى كونـــه صراعا طبقيا ٠٠

ففي حين سارت منظمـــات العمال المختلفـــة والصهيونيين العموميين (حزب البرجوازية الاصيل) في طريق التعاون مـــع الامبريالية البريطانيـــة واكتفت بالدعوة الى الهجـــرة والاستيطان وتثبيت الوطن القومي اليهودى ، كان الاصلاحيـــون يتجهون نحو التعاون مع دول أخـــرى وينادون باقامة الدولة اليهوديـــة حالا الامر الذى أعتبـــره الجناح الاخر غير واقعي في الظروف انذاك ٠

وهناك ما يوحـــي بأن الاصلاحيين كانوا على اتصال مـــع ايطاليا الفاشستية التي كانت تعطف عليهـــم وتعتقـــد أن نجاحهم قد يفتح ثغرة أمام تسربها في المنطقة ٠٠ وفي هذا الصـــدد كتب مخائيل بار زوهر في كتابـــه « النبي المسلـــح » حياة بن غوريون: « حتى تنجح الصهيونية » قال موسولينـــي (زعيم ايطاليـــا الفاشستية ، أ٠ت٠) للراب براتو في عام ١٩٣٥ : « لا بد لكـــم من دولة يهودية بعلم يهودي ولغـــة يهودية والشخص الـــذي يفهم ذلك فاشيكم جابوتنسكي » (ص ٤٩) ٠

وعـــلى الرغم من أن الصـــراع الحاد بين مباي ، بشكـــل

خاص ، والاصلاحيين ، فقد حاول بن غوريون في عام ١٩٣٤ ، بوحي « مصلحة الصهيونية العليا » ، أن يتافم مع جابوتنسكي فاجتمع الاثنان في تشرين الاول في لندن واتفقا على توحيد حزبيهما ، مباي والحزب الاصلاحي ٠٠ ولكن أعضاء الحزبين رفضوا هذا الاتفاق (المصدر ذاته ص ٥١ـ٥٢) ٠

وعلى الاثر تعمق الصراع الى حد دفع جابوتنسكي والاصلاحيين الى الانسحاب من المؤتمر الصهيوني في عام ١٩٣٥ ٠

وفي هذا المؤتمر انتخب بن غوريون رئيسا للجنة التنفيذية الصهيونية وللوكالة اليهودية ودخلت الحركة الصهيونية في فلسطين طريقا أعنف ازاء الشعب العربي الفلسطيني ٠

فبن غوريون « لا يحب العرب ٠٠ وكان يشير اليهم بالاعداء حين كان يذكرهم في يومياته (المصدر ذاته ص ٥٣) ٠

ونقول « طريق أعنف » لان هذه الفترة كما لاحظنا تميزت باجلاء الفلاحين عن أراضيهم ٠٠ وتشديد سياسة العمل العبري أو طرد العمال العرب من المنشآت والمزارع اليهودية ٠

وقد تعرض الشيوعيون اليهود كما لاحظنا الى ملاحقة المنظمات الصهيونية في هذه الفترة لدفاعهم عن حقوق العمال والفلاحين العرب ٠

ويستطيع المراقب أن يرى عنف كراهية قادة الصهيونية للشيوعيين بما كتبه بعض «المؤرخين» الصهيونيين ٠٠ وهكذا زيف أحدهم ، ولتر بريوس ، مواقف الشيوعيين فزعم أنهم حرضوا الفلاحين العرب ضد العمال اليهود (كذا) باعتبارهم الاعداء لا « الافندي » الذي يجبي فوائد

ربوية عالية وأيدوا الاقطاعيين العرب !! (كتابه حركة العمال في اسرائيل ص ١٢٢) ٠

وفي هذه الاوضاع أصبحت قضية العمل العبري أو احتلال العمل احدى القضايا التي يثيرها العمال العرب ويحتجون عليها في مذكراتهم كما احتجت عليها جمعية العمال العرب في يافا (عيسى السفري ـ ص ٢٤٢) ٠

***

في كتاشه « النبي المسلح » حياة بن غوريون ، كتب مخائيل بار زوهر :

« من وجهة النظر البريطانية كان أقل من ٢٠٠ الف يهودى يساعدهم أبناء عنصرهم المنتشرون في العالم كله أحق بالاعتبار من ملايين العرب المنتشرين في الشرق الاوسط » ٠

وهذا صحيح ، فالامبريالية البريطانية حين منحت وعد بلفور أرادت أن تقيم وطنا قوميا يوطد مواقعها في الشرق العربي ويحمي قناة السويس شريان مواصلاتها الى امبراطوريتها في الهند ٠٠ واكتشفت أن تشديد الاحتراب اليهودي العربي أفضل سبيل يؤدي الى توطيد مواقعها ٠٠ ولذلك كان عليها أن تساعد على اقامة هذا الوطن القومي بحيث يكون التوازن ممكنا بين الطرفين ٠

وهذا الوضع أيقظ الحركة القومية العربية على خطورة السياسة الامبريالية البريطانية فكانت هبة ١٩٣٣ موجهة ضد الامبريالية البريطانية ٠

وجاءت التطورات التي أعقبت ١٩٣٣ تؤكد مسؤولية

الانتـــداب البريطاني عن حرمـــان الشعب العربي من حقوقـــه القوميـــة ...

ولذلك كان لا بـــد من الانتقال الى أساليب نضال أعنـــف.

وهكـــذا نشأت الظروف لثـــورة ١٩٣٦ .

الفصل الثالث عشر

ثورة ١٩٣٦

تراكمت الاحداث فى سنوات الثلاثين حتى خلقت وضعا خطيرا على الصعيد الدولي أصبح يؤثر على مجريات الامور في كل مكان في العالم ..

فصعود النازية الى الحكم في ألمانيا وما واكبه من لاسامية عنيفة وعسكرة عدوانية ، أعقبه عدوان ايطاليا الفاشية الغادر على أثيوبيا واحتلالها في عام ١٩٣٥ ، وكان مقدمة الحرب الاهلية التي أشعلها النازيون والفاشيون في اسبانيا الجمهورية في عام ١٩٣٦ وشجع على محاولة اليابان العسكرية التوسع على حساب الصين العاجزة بسبب قيادتها ونظامها الاقطاعي ..

وكل هذه كانت عوامل أسرعت باندلاع الحرب العالمية الثانية لغياب اتفاق أمن جماعي كان يسعى اليه الاتحاد السوفييتي ليصد انتشار النازية على المستوى الاوروبي وليحول دون نشوب الحرب فعلا .

ولكن من قبل أن تسرع في وتيرة الانزلاق نحو الهاوية استنفرت أخطار النازية من ناحية ، والعدوان الامبريالي الايطالي والياباني من ناحية ثانية ، القوى الشعبية فتنادت في

دول الرأسمالية المتطورة الى وقف اجتياح النازية لاجهزة الحكم ·· كما تنادت في المستعمرات الى الكفاح من أجل التحرر القومي ··

وهكذا مثلا توافق انتصار الجبهة الشعبيية ، بقيادة الطبقة العاملة ، في فرنسا مع النهوض الشعبي في مستعمرات فرنسا امتدادا من المغرب الاقصى حتى سوريا ·

والواقع أن موجة ثورية معادية للامبريالية اجتاحت العالم العربي بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧ وتميزت بالعنف على الرغم من تباين الاقطار العربية واختلاف درجات تطورها · وهذا الاختلاف فرض على الحركات القومية أهدافا تتلاءم مع أوضاعها العينية ·· ولذلك لم يكن غريبا مثلا أن تطالب الحركة القومية في سوريا بالاستقلال السياسي وبمعاهدة مع فرنسا على غرار المعاهدة العراقية ـ البريطانية في حين كانت الحركة القومية في العراق ترى في تلك المعاهدة عبئا ثقيلا يقيد حريتها ··

والمهم هنا ملاحظة التفاعل بين الاحداث عامة ·· وبين أحداث العالم العربي خاصة ·· فمما لا شك فيه أن الانتفاضات الثورية في هذا القطر العربي أو ذاك أثرت على مسيرة الحركات القومية في الاقطار العربية الاخرى ·

ويعترف بهذا تقرير اللجنة الملكية لعام ١٩٣٧ حين يقرر : « وبالضبط كما كان ضغط اليهودية الاوروبية على فلسطين الان (١٩٣٦ أ·ت) أشد ما يكون ، كان كذلك تأثير الاحداث في الاقطار المجاورة · ففي شتاء ١٩٣٥ـ١٩٣٦ شهدت المنطقة انبعاثا في النشاط القومي في مصر وسوريا وكان على درجة من الحيوية في القطرين بحيث حقق أهدافه خلال

بضعـــة شهور وفاز القطـــران بالاستقـــلال القومي » (التقرير ص ٩٢) ٠

والمقصـــود هنا الانتفاضـــة التي اندلعت في مصـــر في شهر تشرين الثاني ١٩٣٥ على شكل مظاهـــرات عنيفـــة اجتاحت القاهرة وغيرها من المـــدن وأدت الى مصادمات مـــع قوات الامن وسقوط قتـــلى وجرحى ، واضراب عام في القاهـــرة جرى في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، وتحـــرك شعبي دينامي أجبر الاحـــزاب على تأليف جبهة وطنيـــة في ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ طالبـــت باعادة دستور ١٩٢٣ والاعتـــراف عمليا باستقـــلال مصر ٠٠

وتحت ضغـــط النشاط الجماهيـــري والوحدة القوميـــة اضطـــرت بريطانيا الى مفاوضـــة زعماء الجبهة في اذار ١٩٣٦ ٠٠

وانتهـــت المفاوضات باتفاق جاء فى مـــواده الاولى اعـــلان بريطانيا انهاء احتلالهـــا العسكري رسميا ٠٠ والموافقـــة عـــلى انضمام مصر الى عضويـــة عصبة الامـــم ٠٠

وتعهـــدت مصر بوضـــع مقدراتها تحت تصرف بريطانيـــا أثناء الحـــرب كما وعـــدت بأ نلا تتخذ علاقاتها الاجنبية موقفـــا يتعارض مع الحلـــف مع بريطانيا ٠

ومـــع هذا لم تغير هـــذه الشروط من أهميـــة تلـــك المعاهدة ولذلك أعتبرت المحافـــل القوميـــة انذاك نصرا حققتـــه الحركة القوميـــة فى مصـــر ٠٠ (١)

أما الانتفاضـــه في سوريا فقد بـــدأت في مظاهـــرة جرت

---

١ ـ انتهت المفاوضات التي تراسها مصطفى النحاس في ١١ ايـــار ١٩٣٦ وادت الى انتخابات جديدة فاز فيها حزب الوفد الذي كان يراسه مصطفى النحـــاس (الدولة العربية المتحدة الجزء الثالث (امين سعيد) ص ١٨٩ ـ ٢٦٤) ٠

في دمشـــق في ١٩ كانون الثاني ١٩٣٦ وتجـــددت في الايـام التالية على وجـــه أعنـــف مما أدى الى وقـــوع اصطدامـات دامية بين المتظاهرين والجيش الفرنسي ··· ثم تبلـــورت في اضـراب عام بدأ في دمشق في ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ وأعلنتـــه الحركـة القوميـــة « حتى تنـــال البلاد حقوقهـــا التي تلخصت باعـــادة دستور الجمعيـــة التأسيسية طليقـــا من كل قيد والغاء نظـــام الانتداب بعد ثبـــوت فشله بالتجارب المكررة واعلان استقــــلال سوريـــا » ·

وقـــد امتد الاضـــراب الى سائر مدن سوريا التى شهـــدت ثورة قومية ، مختلفة العنف ، خاصـــة في حمص وحماة وحلب ·

وانتهـــى هذا الاضراب بعد حوالي خمسين يومـــا في مطلع اذار ١٩٣٦ بعد أن تعهدت الحكومة الفرنسية باعادة الحيـــاة النيابية الى سوريا وعقد اتفـــاق مع حكومة قوميـــة ، ينص على الاعتراف باستقلال البـــلاد ·

وفعـــلا جرت هذه المفاوضات الفرنسية ـ السورية ، بعـد انتصـــار الجبهة الشعبية في انتخابات فرنسا في حزيران ١٩٣٦، وانتهت الى نجـــاح في ٩ أيلول ١٩٣٦ ··

وفي الاتفاق اعترفت فرنسا باستقــــلال سوريا ولكنها قيدت ذلك الاستقــــلال بمعاهدة « حلف وصداقة » يخولها عسكـــرة قواتها في الاراضي السوريـــة ·· وهنا أيضـــا اعتبرت الحركـة القومية الاتفاق انتصـــارا ملموسا في ظروف المنطقة والعالـــم الموضوعيـــة ··

وكان هذا النشاط القومي في القطرين العربيين المتجاورين عامـــلا في ثـــورة ١٩٣٦ في فلسطين ولكنه لم يكـــن حافـــزا

لها ·· أما الحافـــز فكانت عواملـــه ـ كما أوردنا عند سرد ظروف « هبة ١٩٣٣ » ـ تكمن فى السياسة الامبرياليـة البريطانيـــة والممارسة الصهيونية المعادية للشعب العربي الفلسطينى ··

وعمقت التطورات أخطار تلك العوامـــل ··

وأدى عـــدوان ايطاليا على الحبشة الى تحويـــل التجـارة العالمية عن المنطقـــة الى حد ما ، الامـــر الذى شـــدد أزمـــة العمـــل فى فلسطين ··

ويذكـر ولتر بريوس في كتابه « حركـــة العمال فـــي اسرائيل » : « أن نتائج التوتـــر الدولي فى البحر الابيض المتوسط بدأت تظهـــر ، في آب ١٩٣٥ ، على شكل تقليص في الاعتمـــادات فى فلسطين مما أدى الى اضعـــاف وتيرة البناء وابطاء فى صناعـــة مواد البنـــاء امتـــد الى ميادين أخـرى · ولاول مرة منـــــذ ١٩٣١ عادت البطالة الى الظهـــور » ··

وبديهي ان البطالـــة لم تقتصر على القطاع اليهودي بـــــل انتشرت الى القطاع العربي عـــلى نطاق أوســـع اذ كان النشـــاط الاقتصادي في القطاع اليهودي ينمـــو بسبب الهجـــرة والتطوير الصناعى والزراعى ، في حين أسهمت السياســة الامبرياليـــة والممارسة الصهيونية في التضييـــق على النشاط الاقتصـــادي العربى بحيث أدى الى تفاقم أزمة البطالـــة خصوصا في هـــذه الفترة بالذات حين اتسعت صفوف العمال العاطلين نتيجة تشريد الفلاحين العـــرب عن أراضيهـــم التى باعها الاقطاعيون ـ الغائبون فى أكثر الحـــالات ـ الى اليهود ·

ولعل تعميـــق شعور الجماهير العربية باليأس من ممكنات تغيير الاوضاع بالنشـــاط السياسي ، والخـــوف من اتساع الوطن

القومي اليهودي على حساب كيانهم ، نجم عن عاملين ارتفاع الهجرة اليهودية الى رقم قياسي هو ٦١٫٨٥٤ في عام ١٩٣٥ ، وتجميد الادارة البريطانية مشروع المجلس التشريعي ..

مشروع المجلس التشريعي

ففي ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٥ قدم زعماء الحركة القومية التقليديون مذكرة الى المندوب السامي البريطاني طالبوا فيها من جديد :

* بانشاء حكومة نيابية فى فلسطين
* وبوقف الهجرة اليهودية
* وبمنع بيوع الاراضي ..

وردت الحكومة البريطانية على هذه المذكرة فرددت موقفها القديم من الهجرة مؤكدة أن سياستها قائمة على قدرة الاستيعاب الاقتصادى فى البلاد .. وأعلنت استعدادها لوضع تشريع لا يسمح بموجبه ، باستثناء قضاء بئر السبع ومناطق المدن وباستثناء الاراضي المغروسة بالاشجار الحمضية ، ببيع الفلاح أى قسم من أرضه الا اذا بقي له حد أدنى يسمح له باعالة عائلته من دخله ..

أما بشأن الحكومة النيابية فكان الجواب :

« ان الجواب على طلب انشاء حكومة ديمقراطية في فلسطين قد أبلغه المندوب السامي الزعماء العرب حين قدم لهم اقتراحات بشأن تشكيل مجلس تشريعي يضم أكثرية كبيرة من الاعضاء غير الموظفين عن طريق الانتخاب » .

وفعلا عرضت الحكومة البريطانية في ٢١ و ٢٢ كانون الاول ١٩٣٥ اقتراحاتها بشأن اقامة مجلس تشريعى على الزعماء

العرب واليهود • وحسب الاقتراح كان المجلس التشريعي سيتالف من ٢٨ عضوا على الوجه الاتي : ٥ موظفين (بريطانيين طبعا) واتنان يمثلان التجار و ١١ مسلما (ثمانية ينتخبون وثلاثة يعينهم المندوب السامي) وسبعة يهود (ثلاثة ينتخبون وأربعة يعينهم المندوب السامي) وثلاثة مسيحيين (١ ينتخب واثنان يعينهم المندوب السامي) ويكون الرئيس محايدا لا علاقة له بفلسطين ••

ومع أن أكثرية المجلس التشريعي كانت ستكون منتخبة الا أن قدرة المجلس حددتها ثلاثة قيود ••

فلا يحق للمجلس أن يناقش شرعية الانتداب البريطانى •• ومن حق المندوب السامي أن يشرع فى ظروف معينة بما في ذلك مايتعلق بالامور الجوهرية كالهجرة والاراضي •• كما أن من حقه أن يقرر لائحة هجرة العمال اليهود ••

وكان طبيعيا أن تهاجم صحافة البلاد المشروع •• ولكن انطلاق صحافة كل من الطرفين العربي واليهودي كان مختلفا ، قرره الموقف من القضايا المصيرية الموضوعة على بساط البحث ••

فقيادة الحركة القومية العربية انتقدت المشروع لانه يجرد المجلس التشريعى من الصلاحيات ويجعل من الحكم النيابى مهزلة •• في حين هاجمت القيادة الصهيونية مجرد فكرة مجلس تشريعي ما دام اليهود أقلية فى البلاد ••

وكالعادة غلفت القيادة الصهيونية موقفها بذرائع الدفاع عن الديمقراطية !! وهذا في وقت كانت تعلن فيه حقيقة خوفهامن تطور الاجهزة المنتخبة ••

وهكذا كتب حايم وايزمن في « التجربة والخطأ » يفسر أسباب مقاومة القيادة الصهيونية المشروع : « ان الحديث عن منتخبين عرب يمثلون شعبهم يتناقض مع المبدأ الديمقراطي الذى يفرض أن يكون تعبيرا عنه . ان مجلسا تشريعيا في فلسطين سيكون مجرد معطف معاصر لنظام الاقطاعية القديم أي استمرار سلطة الدم العائلية التى قبضت على البلاد منذ قرون ومرغت وجوه الفقراء في التراب ! » (ص ٣٨٠) .

وبعد ذلك أضاف : « لنا من الخبرة ما يكفي لان نعرف أن الموظفين البريطانيين في فلسطين لا يمكن الاعتماد عليهم فى الدفاع عن مبادىء الانتداب ، هذا أولا ، وثانيا نرى فى الافق أن الخطوة الثانية بعد اقامة المجلس ستكون اعطاء العرب (بوصفهم الاكثرية أ.ت) مزيدا من السلطات على الامور الخارجة عن صلاحيات المجلس الامر الذي سيواجهنا بخطر تجميد الوطن القومي اليهودى » (المصدر ذاته) .

ان الاختفاء وراء الاقطاعية والتظاهر بمعاداتها كان سلاحا من أمضى أسلحة القيادة الصهيونية في حملة التضليل بين الاشتراكية الديمقراطية اليمينية في أوروبا ..

فبتضخيم مكانة القيادة الاقطاعية العربية وبالتلويح بطبيعتها الطبقية الطاغيه زيفت الصهيونية الحقائق التى تبلورت جوهريا في أمرين : في تعاون القيادة الصهيونية مع الاقطاعيين العرب سياسيا واقتصاديا من وراء الستار .. وفي هجوم عنيف على الفئات الشعبية العربية .. فضحايا الاجلاء عن الاراضي العربية لم يكونوا اقطاعيين بل فلاحين فقراء وضحايا سياسة احتلال العمل لم يكونوا اقطاعيين بلا عمالا معدمين

حاولوا كسب الاود عن طريق بيع قوتهم البدنية ..

ولهذا لم يكن أمرا غريبا في هذه الفترة بالذات ، التي امتازت ، نتيجة البطالة ، بنشاط الفرق الضاربة الصهيونية المتعاظم لطرد العمال العرب من المنشآت والمزارع اليهودية ، أن ترسل جمعية العمال العرب في يافا مذكرة الى المندوب السامي تعالج فيها سياسة الادارة البريطانية فى اعطاء شهادات الهجره وتحدد عدد العمال اليهود العاطلين بتسعة الاف وعدد العمال العرب العاطلين ب ٢٣ ألفا ثم تنتقد احتكار العمال اليهود المشروعات الاقتصادية الكبرى (الكهرباء البحر الميت والحوله) وتخصيص العمال العرب بالاعمال الشاقة .. ثم تذكر طرد الحاميات اليهودية العمال العرب من أعمالهم واحلال اليهود مكانهم وتطالب في النهاية بوقف الهجرة ..

لذلك فالتلويح « بالديمقراطية » كان بمثابة السخرية من الديمقراطية التى لا تتجسم بالشكل بل في المضمون السياسي والاقتصادي ..

ان القيادة العربية ، على الرغم من انتقادها المشروع ، لم ترفضه في حين قاومته القيادة الصهيونية بالظفر والناب تؤيدها المحافل المغرقة فى الرجعية فى الطبقة الحاكمة البريطانية التى كانت تكره شعوب المستعمرات وتحقد عليها وترفض التنازل عن أي امتيازات لها ..

ويصح القول هنا أن المحافل البريطانية الحاكمة التي أرادت أن تمنح فلسطين بعض الامتيازات الشكلية ، هي المحافل التي كانت تأخذ في عين الاعتبار ضرورة مواجهة المنافسه الامبريالية النشيطة التي مثلتها ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية

عن طريق التنازلات للحركات القومية العربية التي كانت تحاول ايطاليا وألمانيا جذبها الى جانبها بالتظاهر بتأييدها ..

كذلك لا بد من القول أن المحافل الامبريالية البريطانية التى اتخذت مبدأ « فرق تسد » أساسا لنهجها في فلسطين كانت ترى في بعض التنازلات للحركة القومية العربية من ناحية ومواصلة تأييد المشروع الصهيونى من ناحية ثانية ، افضل موازنة تمكنها من التظاهر كفيصل فيالنزاع العربياليهودى لا كالطرفالجوهري فيه علىاعتبار أن الصراع كانفعلا يدور بين الشعب الفلسطينى والامبريالية البريطانية من أجل تحرير فلسطين .. وفي هذا الصراع وقفت الصهيونية الى جانب الامبريالية البريطانية ، في حين وقفت القوى الديمقراطية اليهودية الى جانب معركة التحرر المعادية للامبريالية ..

والمقرر انذاك أن مشروع المجلس التشريعي البريطاني أثناء المناقشات التى جرت في ٢٨ شباط و ٢٥ اذار تعرض الى انتقاد لاذع من مختلف الاحزاب في مجلس العموم البريطاني اثناء المناقشات التي جرت في ٢٨ شباط و ٢٥ اذار ١٩٣٦ مما أوحى للجماهير العربية ــ كما قلنا ــ بعدم جدوى النضال السياسى ...

وقد حاولت بريطانيا أن تزيل أثر هذه المناقشة فدعت وفدا عربيا لمباحثتها فى المشروع فى بريطانيا ، ولكن انفجار الثورة ألغى هذه المفاوضات ..

حركة القسام والاضراب العام

في ١١ تشرين الاول ١٩٣٥ اصطدمت قوة بريطانية بفرقة عربية مسلحة فى جبال جنين وخلال المعركة الحامية

قتل اربعة من الفرقة بينهم زعيمهم عز الدين القسام مما ادى الى تسمية أتباعه فيما بعد « القساميين »

لقد كشف هذا الاصطدام وجود تنظيم سري يؤمن بالثورة المسلحة ويعد لها .. وفي هذا الصدد هناك ما يوحي أن القوة البريطانية فاجأت الفرقة العربية بصحبة القسام وهي تتمرن من قبل أن يستكمل التنظيم استعداده ..

ولكن الاهم أن هذا التنظيم السري جرى فى عزلة عن القيادة القومية التقليدية وكفر بأساليبها ، وكان يعتمد على الفئات الشعبية ويعمل بين العمال والفلاحين ..

ثم ان دعوة الحركة امتازت بالوضوح اذ رأت العدو الجوهري في الانتداب البريطاني وبذلك خلت من الملامح الرجعية الي كانت تخلط بين الصهيونية واليهود .

ولم يقلل من أهمية هذه الحركة ، في فترتها الاولى ، الطابع الديني الذي تلونت به ..

ودلت موجة المظاهرات التي جرت خلال تشييع جثمان القسام الى مقره الاخير والاستذكارات اللاحقة على توثب الجماهير الشعبية واستعدادها الثوري ..

ولذلك كان من أسهل أن تشتعل المعركة حتى فى أعقاب حادثة قطع طرق عادية جرت في ١٥ نيسان ١٩٣٦ على طريق طولكرم ــ نابلس ــ وأودت بحياة يهوديين .. فالازمة وصلت الى درجة الانفجار ..

في كتابه « القضية الفلسطينية » كتب يوسف هيكل (الذى شغل منصب رئيس بلدية يافا قبل حرب فلسطين) :

« ان هذه الحادثة اعتيادية ولا علاقة لها بالسياسة

ومثيلاتها عديدة في جميع البلدان ، وليس العرب براضين عن مثل هذه العصابات ، وأضرارها تلحق جميع سكان فلسطين دون تفريق بين عربي ويهودي • وحادث ١٥ ابريل (نيسان) لم يكن الاول من نوعه ، فلو وقفت حوادث ذلك اليوم عند هذاالحد لما انفجرت قنبلة الاضطرابات حينئذ ولما اجتاحت الثورة فلسطين ، غير أن اليهود مزجوا بين الاعتداءات الاعتيادية والسياسية فانتقموا بقتل رجل أو رجلين من العرب الابرياء » (ص ١٩٨) •

بهذا أعرب يوسف هيكل ، مثل غيره من الكتاب ، عن الرؤيا الحقيقية لما كان يجرى فى البلاد •• فبعد حادث السطو العادي قتلت عناصر صهيونية عاملين في كوخ يقع على طريق بيتح تكفا ـ كفار سابا (١٦ـ٤ـ٣٦) انتقاما لمقتل اليهوديين •• وفي الوقت ذاته هاجمت مثل هذه العناصر المواطنين العرب في المنطقة المتاخمة لتل أبيب •

وتوحي كافة الدلائل (وهذا يساعد على تحديد مسؤوليات الازمة) بأن القيادة الصهيونية كانت تخطط الصراع بين اليهود والعرب ، تساوقا مع الامبريالية البريطانية بدون أن يكون ذلك محددا حتى اخر التفاصيل •• وهكذا فما أن أذيع نبأ مقتل اليهوديين حتى اجتاحت المظاهرة تل أبيب والمنطقة المتاخمة لها ووقعت حوادث اعتداءات على المواطنين العرب في يافا •• استنفرت بدورها اعتداءات مماثلة على المواطنين اليهود ••

وما أن حل يوم الاحد في ١٩ـ٤ـ١٩٣٦ حتى كانت يافا مضربة احتجاجا على الاعتداءات الصهيونية على أبنائها ••

وكان الاضراب عفويا نجم عن التوتر فى المنطقة المشتركة بين يافا وتل أبيب ..

ولكن هذا الاضراب العفوي تحول الى اضراب واع شمل فى اليوم التالي عمال الميناء ..

وعندئذ تحركت فئات قومية وأذاعت بيانا أعلنت فيه أن سياسة الوطن القومي اليهودي هي سياسة غاشمة ... « وان تجربة حكم شعب بخلاف رغبته وارادته هي تجربة فاشلة »..

وجاء فى بيان اللجنة القومية التى تألفت حالا في اجتماع وطني ان المجتمعين يعلنون ، مبدئيا ، الاضراب العام فى يافا اعلانا لسخط العرب على سياسة السلطات الفاسدة التى يقصد منها « ابادة العربي في بلده العربي » .. (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ١٦-١٧ الجزء ٢) ..

وامتد الاضراب شيئا فشيئا .. حتى شمل ميناء يافا ، مما أثر على اقتصاد البلاد ، لاهمية هذا الميناء ، ثم امتد الى النقليات .. وبعد ذلك انفجر في كافة المدن ..

وكان تأليف اللجنة القومية في نابلس ، المدينة العربية البارزة في ٢٠-٤-١٩٣٦ ايذانا بنمو كيفي في هذه الحركة العضوية التى دلت على أن التنظيمات السياسية في البلاد متخلفة عن الاحداث ..

وسارت قيادة الاحزاب القومية العربية فى مجرى التيار فأعلنت بعد يوم ، فى ٢١-٤-١٩٣٦ الاضراب العام فى البلاد..

وفى غمرة هذا التوثب السياسي اجتمعت قيادات الاحزاب القومية العربية وألفت في ٢٥-٤-٣٦ اللجنة العربية

العليا برياسة المفتي الحاج أمين الحسينى وأمانـــة سر عوني عبد الهادي وعضويـــة سائر قادة الاحـــزاب ..

ولم تختلـــف شعارات اللجنة العربية العليـــا عن شعارات الحركة القوميـــة : وقف الهجـــرة .. ومنـــع بيوع الاراضـــي وانشاء حكومة وطنيـــة مسؤولة أمام مجلس نيابي .. انما اختلف عنف اللهجة وتحرك الجماهير الشعبية وخاصة الطلاب والنساء الذين قامـــوا فى البداية بدور كبيـــر في تحريـــك النشـــاط الوطنـــي .

وامتـــاز الاضراب بالشمـــول .. فقد اجتمـــع المحامـــون وقـــرروا مشاركـــة الامـــة فى نضالهـــا .. كما اقتفـــى أثرهـــم الاطبـــاء والتجـــار ..

ومن أبرز مظاهر العمق الشعبي نشاط القرويين فقـــد عقدوا سلسلـــة من المؤتمرات في أقضيتهـــم قـــرروا فيها تأييـــد المعركة الوطنيـــة الدائـــرة ..

وخـــلال أيار ١٩٣٦ وبينما البـــلاد (القطاع العربـــي) مضربة عقـــدت فئات الشعب المؤتمرات والاجتمـــاعات لتقريـــر تأييـــد المطالب القوميـــة المعروفة .. كذلك عقـــد منتخبـــو المجالس البلدية فى وجه مقاومة السلطات ، اجتماعـــا قـــرروا فيـــه الاضـــراب ..

وكـــان انعقـــاد مؤتمر اللجـــان القومية التى تألفت فـــي كل مكـــان ، بغض النظر عن قيام اللجنة العربية العليا ، فـــي القدس في ٧ أيار ١٩٣٦ ، تعبيـــرا عن الاندفـــاع القومي فـــي البلاد وتجسيما لانخـــراط فئات قوميـــة جديدة في المعركـــة ..

وطبعا لم تتغير طبيعة القيادة الطبقية انما تغير الى حـــد

التوازن بين العناصر الاقطاعية الريفية والعناصر البرجوازية ـ التجارية المتوطدة في المدن ٠٠ ثم برزت في هذا المؤتمر عناصر المهنيين مثل المحامين والاطباء باعتبارهم قوة فكرية ٠٠

وقام الشعراء بدور بارز في الدعوة الثورية الواعية وبرز من بينهم عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) وابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود ٠٠ ولاحظ المؤخرون المعاصرون أن قصائدهم كانت ترد على ألسنة المقاتلين وجماهير الشعب ٠٠ وأعرب « أبو سلمى » عن المناخ الثوري حين هتف :

سيروا على الدرب المخضب والثمو أثر الجدود
حرية الانسان بالدم تشترى لا بالوعود

كذلك قام الشعر الشعبي بدوره الفعال وصاغ الثوريون تجربتهم الوطنية في بعض الاحيان في قصائد بسيطة ولكنها غنية بالعواطف ٠

***

وكان السلبي أن مؤتمر اللجان القومية استسلم الى اللجنة العربية العليا ، التي تألفت فوقيا من قادة الاحزاب ، وكانت تنظيما رجعيا على الصعيد الاجتماعي وفيما بعد على الصعيد السياسي ٠٠

وكان أخطر قرار اتخذه مؤتمر اللجان القومية : الاعلان بالاجماع عن الامتناع عن دفع الضرائب اعتبارا من ١٥ أيار الحالي اذا لم تغير الحكومة البريطانية سياستها تغييرا أساسيا تظهر بوادره بوقف الهجرة اليهودية » ٠ (المصدر ذاته ٤٧)٠٠

ان أهمية هذا القرار ، الذى سرى مفعوله في ظل الاضراب المستمر ، تكمن فى طبيعته المضادية للامبريالية ٠ واقترن تنفيذ

الامتناع عن دفع الضرائب واعلان العصيان المدني بسلسلة من المظاهرات الجماهيرية الضخمة في مختلف المدن رفعت المعركة القومية الى مستوى أعلى ..

وفي ١٨ أيار ألغت الحكومة البريطانية رسميا دعوتها الوفد العربي الى المفاوضات في لندن وأصدرت بيانا جاء فيه :
« ان الوفد العربي المقترح لم يعد ملائما للاحوال التي نتجت وانه بدلا من ذلك يجب أجراء تحقيق في فلسطين ولذا قررت (الحكومة أ٠ت) بعد ان يعاد النظام أن تشير على صاحب الجلالة بأن يعين لجنة ملكية لتبحث في أسباب القلق وشكاوي العرب واليهود المزعومة دون التعرض لنصوص الانتداب » .

ومرة أخرى لوحت بريطانيا بلجنة تحقيق لاجهاض الحركة القومية العربية .. ولكنها اخفقت في وقف المد الثوري ..

وبدأت سياسة القمع على نطاق واسع وتزايد عدد المعتقلين ونفي الوطنيين في داخل البلاد .. وأقامت الحكومة البريطانية معتقلات بلغ عدد نزلائها العرب من المعتقلين السياسيين الاداريين والمحكومين حوالي ٤٥٠٠ . (حول الحركة العربية الحديثة ـ محمد عزة دروزة الجزء الثالث ص ١٢٧ ـ ١٢٨) .

ونمت الحركة القومية على طريق التصعيد الثوري من مظاهرات ثورية تصطدم مع القوات البريطانية المسلحة في المدن الى حركة أنصار مسلحة تنازل الجيش البريطاني في الريف ..

ومن الصعب هنا وصف الثورة المسلحة ، التي اشتعلت في مختلف أنحاء البلاد ، ونازلت القوات البريطانية لا الصهيونيين على الرغم من وقوع مصادمات مع المستوطنات الصهيونية ٠

ولكن من الممكن الايحاء بقوتها حين نذكر أن القوات العربية المسلحة خلال قتالها القوات البريطانية نسفت ٤٨ جسرا وقطعت أسلاكا كهربائية وهاتفية ٣٠٠ مرة وعطلت قاطرات ٢٢ مرة ونسفت خطوط السكة الحديد ١٣٠ مرة ٠

الفصل الرابع عشر

تطورات الثورة واللجنة الملكية

حين تحدث بن غوريون عن ثورة ١٩٣٦ التي امتدت ثلاث سنوات قال :

« لم تكن هناك انتفاضة قومية ·· ولم يشارك الشعب العربى أو جله في الحوادث فهو يفتقر الى الارادة والطاقة والقوة لان يثور · أقلية ضئيلة تحارب حتى الموت وتستخدم فى قتالها أي وكل وسيلة وترتكب أبشع الجرائم » (خطابه في ٣ آب ١٩٣٨ كما أورده روبرت سانت جون في كتابه « بن غوريون » ص ٦٥ـ٦٦) ·

وبهذا الكلام جسم بن غوريون موقف القيادة الصهيونية من حركة التحرر القومي العربية ونضالها من أجل الاستقلال وتصفية نظام الانتداب الامبريالي ··

لقد رفضت القيادة الصهيونية مجرد الاعتراف بحركة الشعب العربي الفلسطيني القومية وأصرت على وصفها بالاجرام والوحشية كل نشاط من نشاطاتها ولم يكن في وسعها أن تتصور طاقتها على الثورة والبطولة ·

ولكن ثورة ١٩٣٦ برهنت على طاقة الشعب العربي الفلسطيني وارادته الجارفة وبأسه في الصمود أمام الامبريالية

البريطانية والصهيونية الدوليـــة ..

ولا يغيـــر من هذه الحقيقـــة تصور المحافــل الصهيونية الثـــورة وكأنها شغب نظمته فئة « الافندية » الاقطاعيين ..

ولعـــل جورج أنطونيوس ـ وهو بعيـــد عن الوعي الطبقي ومن أنصـــار التعاون مـــع بريطانيا ـ اقتـــرب من الحقيقـــة حين كتـــب :

« **ليست الثورة (في عام ١٩٣٦ ـ أ٠ت) بعيـــدة عن أن تكـــون من صنع الزعمـــاء فحسب بل هي بشكـــل واضح جدا تحـــد لسلطتهم وتجريـــم لاساليبهم ٠ فان قواد الثـــورة ينسبون مصيبـــة المزارعين العـــرب في الوقت الحاضر الى أولئك المالكين الذين باعـــوا أراضيهم ، ويتهمـــون الزعماء بالاهمال الجانـــي ، لاخفاقهم في منع البيـــوع ، اذ لم يكن للفلاحين رأي في معظـــم تلك البيوع التي أدت الى اخراجهـــم من أراضيهم** » (كتابه يقظـة العـــرب الترجمة العربيـــة ، تعريب علي حيدر الركابي ص ٤٤٩) ٠

والواقـــع أن الزعامة التقليديـــة أخذت على غـــرة حين **اجتاحت البلاد موجة الاضراب وتألفت اللجان القومية .. كما أخذت على غرة حين رافق الاضراب كفاح مسلـــح ..**

ويجمع الكتاب الذين عاصروا تلك الحقبـــة على أن الثـــورة كانت من صنـــع الفئات الشعبيـــة فهكذا صور الدكتور محمـد حسين هيكـــل في كتابـــه « القضية الفلسطينية ـ تحليـــل ونقـد » البدايـــة فكتب :

« وأخـــذت قساوة البوليس واعتداءاتهم عـــلى أفـــراد الشعب في الازدياد ٠ وأمعنت الحكومة في سياسة الاعتقـــال والحبس .. فبلـــغ أهل طولكرم صباح السبت ٢٣ مايـــو

(أيار) ١٩٣٦ ، ان الحكومة اعتقلت أعضاء اللجنة القومية فثاروا وتقلدوا سلاحهم سائرين نحو المدينة فتقابلوا مع قوة عسكرية ذاهبة الى نابلس فاشتبكوا معها بالقرب من بلعا وتبادلوا واياها النيران من الساعة التاسعة صباحا حتى المساء .. فتحولت الاضطرابات الى ثورة حقيقية كانت هذه الموقعة اولى معاركها » (ص ٢٠٧)

وهذا ما أكده أمين سعيد في كتابه « الدولة العربية المتحدة » (الجزء الثالث ص ٥٤٠) وعيسى السفري في كتابه « فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية » (ص ٧) .. وأضاف الاخير أن الجنود البريطانيين أطلقوا النار على مظاهرة قومية فى نابلس فى اليوم ذاته فقتلوا أربعة مواطنين وجرحوا سبعة .. وذاعت أخبار هذه الفاجعة فى القرى فتسارع أهلوها للنجدة وانتشرت جموعهم فوق الجبال وفى الوديان وعلى مفترق الطرق مسلحة بالبنادق وغيرها من أنواع السلاح » ... (ص ٧) .

وأكد أن « لسكان القرى كان النصيب الاكبر في تأييد الثورة وتغذيتها فقد اشتركوا فى معظم الاعمال الثورية وناصروها بكل ما وصلت اليه أيديهم » (المصدر ذاته) ..

ولكن كل هذا لا ينفي نجاح القيادة التقليدية التي توحدت فى اللجنة العربية العليا في تسلم زمام القيادة السياسية ، والى حد ما القيادة العسكرية ..

لقد وصف عدد من الكتاب العرب الذين عاصروا تلك الفترة أبرز المعارك الحربية التى وقعت خلال الاضراب التاريخي الكبير الذى امتد ستة أشهر ، ولكن وصفهم كان

من قبيل السرد الصحفي العام أولا ، والمتناثر ثانيا ، جاء عفويا ولم يعتمد على جمع الوقائع أو يحدد ارتباطها العضوي المتكامل • ومع هذا فحتى هذا الوصف السطحي أوحى بنمو التنظيم العسكري - المحدود طبعا - بين الجماهير العربية من ناحية •• وباتساع القتال بين تنظيمات الانصار والقوات البريطانية من ناحية ثانية •

ودلت على اتساع رقعة القتال اقليميا هذه المعارك التي عرفت بمواقعها : نور شمس (طولكرم) ، وادي عزون ، باب الواد ، بلعا ، وعصيدة الشمالية ووادي عارة وعين دور (الناصرة) •• وغيرها

وأوحى بكثافة القتال وشدته اشتراك الاف الجنود البريطانيين فى المعارك بمعداتهم التقنية العسكرية الحديثة لضرب فرق أنصار تسلحت تسلحا بدائيا نسبيا ••

ولاحظ أمين سعيد مثلا أن ٥٠٠٠ جندي بريطاني تشد أزرهم الدبابات والمدفعية الثقيلة و ١٥ طائرة اشتركت فى معركة بلعا الثانية في ٣ أيلول ١٩٣٦ ولم تحسم شيئا (الدولة العربية المتحدة الجزء الثالث ٥٤١) •

لقد بلغت القوة البريطانية فى فلسطين انذاك ٢٠ ألف جندي (حسب احصاءات الحكومة و ٢٥ الف حسب تقديرات الكتاب العرب والاجانب) وتعاونت معها قوات البوليس العادي والبوليس الاضافي ، الذى جندته السلطات من صفوف الهاجنا (منظمة الدفاع الصهيونية) ، وبلغ عدده ٥٠٠٠ بوليس •• ومع ذلك لم تستطع هذه القوات القضاء على الثورة عسكريا على الرغم من نجاحها في اقتناص حوالي

٣٠٠٠ شهيـــد من بين صفوفها ، المحاربين تحت اعلامها ..

ان بسالـــة الثـــورة وصمـــود الشعب العربـــي الـــذي أشعلها يظهـــران على حقيقتهما ازاء عنـــف القمع الامبريالي .. فالادارة البريطانية لم تدفع الى ميدان القتـــال هـــذه القـــوات العسكرية والبوليسية المجهزة أحســـن تجهيز فحســـب بـــل استخدمت أيضا أوحش اساليب القمـــع لتدميـــر معنويـــات الجماهير وافقارها ومن ثم عزلهـــا عن الكفـــاح ..

وهكذا فرضـــت ـ كما ألمحنا ـ الاحكـــام العرفيـــة عـــلى البلاد في ٣٠ أيلول ١٩٣٦ وتولت سلطات ديكتاتوريـــة فظـــة خولتها حـــق مراقبة المطبوعات .. والتوقيف والاعتقال الاداري والنفي والابعـــاد .. وحـــق استملاك الامـــوال ومصادرتهـــا والتصرف بها كما تشاء .. وفرض الغرامات على الجماعات والهيئات واتلافهـــا الاملاك كتدابير تأديبيـــة سواء أكان في الامكـــان معرفة « المجرمين » الحقيقيين أم لم يكـــن .. وأقامت محاكـــم عسكريـــة تفرض عقوبات بربريـــة تصل الاعـــدام على المتهمين بالمشاركة فى الكفاح ..

وقد ترك لنا عيسى السفري وصفـــا لما كان يجـــري فـــي البـــلاد فى تلك الايام فكتب :

« كانت السلطـــة حين تشتبه بقريـــة ما ، تأمر حـــالا بذهاب قـــوة كبيرة من الجند والبوليس بدباباتها ومدافعهـــا الرشاشة وكامل أسلحتها الى تلـــك القرية فتطوقها من جميـــع جهاتها ويدخل فريق من الجند الى القرية ، يطرقون أبواب بيوتهـــا بأعقاب بنادقهم بشـــدة ويأمرون مختارها بعـــزل النساء عـــن الرجال ومن ثم يأخـــذ الجنود بتفتيش بيوت القريـــة ، بيـــن

فزع النساء وعويل الاطفال فيبعثرون محتوياتها ويحطمون آنيتها المملوءة بالسمن والزيت والحبوب ومختلف أنواع الاغذية وبانتهاء التفتيش يطلق الجند المدافع فى الفضاء ارهابا (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ٨٥) ٠

ومن الاجراءات التي شاعت انذاك الغرامات الجماعية ونسف البيوت لصدور طلقات منها أو من مكان قريب اليها ٠٠ ومهاجمة القرى وضربها بالرصاص بدون تمييز ٠٠ وقد كانت قرية « قولة » المجاورة للرملة واللد ضحية هجوم عنيف بسبب اطلاق مجهول النار على دورية بريطانية ٠ (المصدر ذاته ص ٨٦) ٠٠

وقد هز الرأي العام فى فلسطين والعالم الخارجي نسف حي بأكمله في يافا فى حزيران ١٩٣٦ بحجة « تجميل المدينة » ٠٠ كما هزته حوادث النسف في نابلس واللد وحيفا وبلد الشيخ وعدد اخر من المدن والقرى ٠٠

وقد أدانت محكمة العدل العليا برياسة قاضى القضاة ميخائيل مكدونلد هذه الاجراءات وأعلنت في قضية نسف الحي في يافا : « كان يشرف الحكومة أكثر لو انها ، بدلا من أن تذر الرماد في عيون الشعب بادعائها ان الموحي لعملية الهدم هو التحسين والتجميل والعمل لتنظيم المدينة أو رعاية الصحة العامة لو انها قالت بصدق وبساطة أن الهدم المنوي اجراؤه كان المقصود الاساسي منه الدفاع عن فلسطين الذى يعني ـ كما يجوز أن يعتقد كل شخص ـ التسهيل لدخول القوى العسكرية الى الاحياء التي تغص بالسكان في المدينة المذكورة (المصدر ذاته ص ١٠٢)

وقد ميـــز هذه الثـــورة نمو التضامن العربى وامتـــداده الى أقطـــار عربية جديـــدة ..

وبـــرز هذا التضامـــن فى انضمام عدد من المحاربيـــن العرب في سوريا والعراق والاردن الى الثـــورة وفى النشـــاط السياسي النامي تأييـــدا لكفاح الشعب العربي الفلسطينـــي القومـــي ..

لم يكـــن أمرا غريبـــا أن تتضامن الحركات القوميـــة في سوريا ولبنان وشرقي الاردن مع الحركـــة القوميـــة في فلسطين .. ولكنـــه كان تطـــورا جديدا أن تتجند الحركات القومية فى مصر والمغرب العربي فى ميـــدان التضامـــن العربى ..

وأعـــرب قائد حركـــة التحـــرر القومى فى مصر مصطفى النحاس عن هـــذا التطور حين صرح أن مصر لا تستطيـــع أن تقف مكتوفة الايـــدي تجاه ما يجـــري فى فلسطين وهي تؤيد مطالـــب الشعب العربـــي الفلسطينى .

ومـــع استئناف الثـــورة بعد قرار اللجنة الملكية نما هـــذا التضامـــن العربى نمـــوا كميا وكيفيا .

وقد لاحظـــت اللجنة الملكية في تقريرهـــا هذه الظاهـــرة الديناميـــة فكتبت :

« أثـــارت ألانفجـــارات الماضية فى فلسطين اهتمام وعطـــف الشعوب العربيـــة المجاورة ولكن هذه المـــرة لم تظهر المشاعـــر الشعبية الواسعـــة النطاق ضد البريطانيين واليهود فحسب بـــل ان عددا كبيـــرا من المتطوعين وبينهم قائـــد الثـــورة ، جاءوا من سوريا والعراق .. وأهم من هذا اهتمت الحكومات العربية لاول

مرة بالخلاف (الناشب في فلسطين أ·ت) » ·· (تقرير اللجنة الملكية ص ١٠٤-١٠٥)

وظهر اهتمام الحكومات العربية - أو بدقة أكثر ملوك بعض الاقطار العربية - بالخلاف في دورها في حل الاضراب ··

وكانت الخطوة الاولى في هذا السبيل زيارة وزير خارجية العراق نوري السعيد فلسطين ومباحثاته مع قيادة الحركة القومية العربية التقليديين من ناحية ·· والمندوب السامي والامير عبد الله حاكم شرق الاردن من ناحية ثانية ··

وحسب بيان اللجنة العربية العليا بتاريخ ٢٦ آب ١٩٣٦ حقق نوري السعيد اتفاقا مؤقتا بين الادارة البريطانية وقيادة الحركة القومية التقليدية يقوم على أربعة بنود : تدعو اللجنة العربية العليا الى وقف الاضراب ·· أولا ، ومقابل ذلك توقف الحكومة الهجرة اليهودية مؤقتا حتى تضع اللجنة الملكية تقريرها ·· ثانيا ، وتقوم الحكومات العربية الثلاث وامارة شرق الاردن بالسعي لدى بريطانيا لانجاز مطالب فلسطين ·· ثالثا ، وتصفي الثورة على أساس الغاء الغرامات ووقف عمليات التفتيش واطلاق سراح المعتقلين والعفو العام ·· رابعا ·

ومن الممكن القول أن الملوك العرب الثلاثة عبد العزيز آل سعود (السعودية) والامام يحيى حميد الدين (اليمن) وغازي بن فيصل (العراق) والامير عبد الله (حاكم شرق الاردن) اندفعوا الى الميدان بعدد من العوامل من أبرزها : استنجاد أصحاب البيارات بهم لانقاذ موسم البرتقال الذي يمثل « ثروة البلاد الكبرى » · لقد تخوف أصحاب البيارات من أن يؤدي استمرار الثورة الى بوار الموسم ولهذا طالبوا الملوك بوقف

الاضراب •• وأيدتهـــم فى هذا البرجوازية النجارية التى أصيبت بالاضرار ، وكافـــة العناصـــر التى تقلـــق عادة مـن تحـــرك الجماهيـــر الثـــوري •

كذلك نشـــط الملوك بوحي من بريطانيا لانهاء الثـــورة لان هذه الثـــورة أصبحت تحرج الادارة البريطانية عسكريا وسياسيا في ظروف تميـــزت باحتدام الوضـــع الدولي نتيجة عدوانيـــة الدول الفاشية (النازيـــة)

ومن المؤكـــد أن مصلحـــة الامبراطورية البريطانية-تلاقـت مع مصالـــح الرجعيـــة العربية عند الرغبـــة فى اجهاض الثـــورة باعتبارهـــا حركة ديناميـــة لا يمكن أن تقف عند حد أو يقتصر تفاعلها على اقليم واحـــد •••

وعـــلى الرغم من أن مقترحات نوري السعيد لم تلب مطلـب الحركة القوميـــة الجوهري : مطلب الاستقـــلال ، وعلى الرغـم من انها كانت اجراءات تسكين ، فقـــد هبت قيـــادة المنظمـــة الصهيونية لتحـــول دون أى تنازل قد تعتقـــد الامبرياليـــة البريطانيه انـــه ضـــروري ••

هذا من ناحيـــة

أما من الناحيـــة الثانية فالقيـــادة الصهيونية كانت ترتبط ارتباطا وثيقـــا بأشـــد الامبرياليين غلـــوا فى الرجعية ، مـن الذين يقاومون المهادنات مع الحركـــات القومية العربيـــة وغيرها من الحركات القومية غير العربيـــة •• وهؤلاء مارسوا ضغوطهـم حتى لا تكـــون هناك مهادنـــة

ثم لا بـــد من القول أن تـــوازن القـــوى في المحافـــل الامبريالية البريطانية كان فى هذه الفترة قد بـــدأ يتغيـــر الى حد

مـــا ٠٠ فمنذ وعد بلفور كانت هناك محافـــل امبريالية بريطانية لم تر فى بنـــاء الوطن القومي اليهودى فى فلسطين مصلحـــة امبريالية لاعتقادهـــا أن ذلك قد يعرقـــل السيادة البريطانيه في المنطقة ٠٠ وهذه المحافـــل اشتدت قـــوة نتيجة تحديات النازية والفاشية وشعورها بخطـــر المنافسة الامبريالية الالمانية ـ الايطالية في ظروف نمـــو الحركات القومية العربيـــة ٠٠

وهـــذا ما قصدنا اليه حين لاحظنا أن تـــوازن القوى فـــي المحافـــل الامبريالية تغير الى حد مـــا ٠٠ فظهر استعداد أشـــد لمهادنة الحركة القوميـــة العربيـــة في فلسطين بحيث تؤمـــن المصالح الامبريالية البريطانية على أحسن وجـــه ٠٠

ولكـــن من هذه المصالح البريطانيـــة الجوهريـــة تعزيز الصهيونية بحيث تقوم بدورهـــا الاستراتيجي بدون أن تعرقـــل الخطط البريطانية التي كانت قائمـــة على سياسة « فرق تسد » والتظاهر بدور الفيصل في « النزاع العربى ـ اليهودى » !!

ولم يؤد التغيير فى توازن القـــوى فى هذه الفترة الـــى أي تحـــول فى السياسة البريطانية ٠٠ ولهذا ما أن ضجـــت القيـــادة الصهيونية بالاحتجـــاج على مقترحات نوري السعيد العميـــل البريطاني الموثوق ، حتى أعلنـــت بريطانيا ، فى رسالة بعـــث بها وزير المستعمرات البريطاني اورمسبي غور الى الزعيم الصهيونى حايم وايزمن ، ان المنـــدوب السامى لم يفوض نوري السعيـــد « لان يعـــد بالخطوات التي ستلي وقف الاضطرابات وعلى الاخص فيما يتعلـــق بتوقيف الهجـــرة » ٠

وأدى « انفجار » هذه الرسالـــة على المسرح السياسى فـــي فلسطين الى اخفاق محـــاولات التسوية واستمـــرت الثـــورة

والاضراب العـــام ٠٠

بل ان عنـــف الثـــورة تصاعـــد بعد اخفاق محاولة التهدئة ٠٠ واشتـــدت اجراءات القمـــع أضعافا بعدها ٠٠

ولكن العوامـــل التي استنفرت تدخـــل الملوك في آب ١٩٣٦ لم تتلاشى بـــل تعمقـــت أهميتها وبدأت مظاهر الارهـــاق بين فئات واسعة من الشعب الذى تحمـــل طوال ستة أشهـــر أعبـاء ثـــورة مسلحة واضراب شامل بدون مساعـــدات اقتصاديـــة جديـــرة بمثـــل هذا الوصف ٠٠

ولذلك هين ناشـــد ملكا السعودية والعراق وأمير شـــرق الاردن ، في ٨ تشرين الاول عام ١٩٣٦ ، الشعب العربـــي فـــي فلسطين « الاخـــلاد الى السكينة حقنا للدماء معتمدين عـــلى حسن نوايا صديقتنا الحكومة ورغبتهـــا المعلنة لتحقيق العدل (١) » ٠٠ سارعت اللجنة العربية العليا الى اعلان قرارها ـ « بالاجمـــاع وبعد استشـــارة مندوبي اللجان القوميـــة والحصول على موافقتهم باتفاق الاراء » ـ « بدعـــوة الامة العربية الكريمـــة فى فلسطين للاخـــلاد الى السكينة وانهـــاء الاضراب والاضطرابات ابتـــداء من ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٣٦ » ٠٠

وهكـــذا انتهى أكبـــر اضراب شهدته المنطقة في تاريخهـــا المعاصر ٠٠ وأعنف ثـــورة عرفتها فلسطين ٠٠ وبـــدأت البـــلاد تستعد لاستقبال لجنة التحقيق الملكية ٠٠

الوطـــن القومـــي

على الرغـــم من أن الثـــورة ، باعتراف الجميـــع ، اختلفت عن هبات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ فى انها حاربـــت ادارة الانتداب

البريطانى جوهريا ، فلم يكن من الممكن أن تتفادى الاصطدام هنا وهناك بعناصر من الوطن القومى اليهودى الذى ارتبط فى أذهان الجماهير بالامبريالية البريطانية عن طريق سياسة قيادته الصهيونية وممارستها الموالية للامبريالية والمعادية للجماهير العربية ..

وتراكمت صعوبات أمام تفادى الاصطدامات بين قوى الثورة وعناصر من الوطن القومي اليهودى حين قذفت القيادة الصهيونية بقواها فى المعركة ضد كفاح الشعب العربي الفلسطينى ..

ويفتخر الصهيونيون بأنهم قاموا بدور فعال في محاربة الثورة .. ويذكرون بالتحديد بكبرياء ـ بالاضافة الى تجنيدهم رجال الهجاناه فى البوليس الاضافي ـ الفرق اليهودية الضاربة ، التى نظمها ودربها رجل الاستخبارات البريطاني الضابط أورد تشارلس وينجيت ، وأطلق عليها اسم « الفرق الطائرة » ، وكانت هذه الفرق قد أخذت على عاتقها حماية المنشآت البريطانية ، وخاصة خطوط أنابيب النفط التابعة لشركة الاحتكار (آي·بي·سي) البريطانية ، والتصدي لقوى الانصار العربية حين يكون ذلك ممكنا ..

ويعتقد أكثر من كاتب صهيونى أن « الفرق الطائرة » أو « فرق الليل الخاصة » ، بمحاربتها الفرق العربية المسلحة غيرت الوضع في البلاد جذريا فى مصلحة بريطانيا . (تاريخ حركة العمال في اسرائيل ولتر بريوس ص ١٢٦) .

هذا على الصعيد العسكري ..

أما على الصعيد الاقتصادى فقد تميزت هذه الفترة لا

بتوطيد الوطن القومى اقتصاديا واجتماعيا بشكل عام فحسب بل بتخطيط اقامة المواقع الاستراتيجية على شكل مستوطنات •• زراعية عسكرية انتشرت فى الجليل فى الشمال حتى النقب فى الجنوب •

لقد كانت الصهيونية دائما تختار مواقع المستوطنات اليهودية في الريف لمزاياها الحربية •• ولكنها في عام ١٩٣٦ بدأت تنفذ مخططا مدروسا فأقامت ابتداء من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ ٥٥ مستوطنة اشتركت جميعها بمعلمين : الحائط الذى يطوقها وبرج المراقبة القائم في وسطها •• وكان الهدف من ذلك تحويل المستوطنات الى معسكر حربي (بوريس شتيرن فى كتابه « الكيبوتس الذى كان » ص ٣) •

وعلى الرغم من أن التمايز داخل الحركة الصهيونية قد أدى قبل اندلاع الثورة الى انسلاخ غلاة الصهيونيين من جماعة حزب الاصلاح ، بقيادة جابوتنسكي ، عن المنظمة الصهيونية العالمية فالقيادة الصهيونية عامة انتهجت سياسة معادية لاماني الشعب العربي الفلسطيني ـ لا عسكريا واقتصاديا فحسب بل سياسيا أيضا بحيث سدت سبل التقارب بين الجانبين العربى واليهودى ••

ولعل مقترحات التسوية التى عرضها بن غوريون على أحد رجال حركة القومية العربية موسى العلمي أبلغ دليل على هذا التوجه الصهيوني القائم على التطلع الى التوسع الاكبر ••

فبن غوريون ـ حسب ما أورده مخائيل بار ـ زوهر في كتابه « النبي المسلح » « سيرة حياة بن غوريون ـ اقترح على موسى العلمي فى نهاية عام ١٩٣٤ مساعدات اقتصادية

كبيرة لتحسين الاقتصاد العربي بشرط قبول العرب بقيام دولة يهودية في فلسطين ٠٠ وحين اعترض موسى العلمي على شمول الدولة اليهودية شرق الاردن على اعتبار أن شرق الاردن عربية قال بن غوريون : « اذا وافقتم على توطين عدد غير محدود من اليهود في شرق الاردن فعندئذ من الممكن أن نتفق على ترتيب خاص حول شرق الاردن أما مؤقت أو دائم » ٠٠

وهكذا فحتى حين كان اليهود يؤلفون أقلية في فلسطين لا تتجاوز ٤٠٠ ألف انسان كانت الصهيونية « تدعو العرب الى التفاهم » !! على قيام دولة يهودية في فلسطين وشرق الاردن وحرمان الشعب العربي الفلسطيني عمليا من حقوقه القومية في وطنه ٠٠

مواقف متناقضة

في ١١ تشرين الثاني ١٩٣٦ وصلت لجنة التحقيق الملكية برياسة «ايرل» بيل الى فلسطين « لتتثبت » ـ كما جاء في براءة تعيينها ـ « من الاسباب الاساسية للاضطرابات التى نشبت في فلسطين في أواسط شهر نيسان ولتحقق في كيفية تنفيذ صك الانتداب في فلسطين ازاء التزامات الدولة المنتدبة نحو العرب ونحو اليهود » ٠

وعليها كذلك أن تبحث في ظلامات الجانبين حتى اذا اقتنعت بوجودها رفعت التواصي لازالتها ٠٠

ومع أن اللجنة العربية العليا أعلنت مقاطعتها اللجنة في البداية بسبب اصدار الادارة البريطانية تصاريح هجرة ، الا انها عادت وشهدت أمام اللجنة ٠٠ تلبية لدعوة

وفى عرضها القضية انطلقت اللجنة العربية العليا ـ التي قرأ رئيسها الحاج أمين الحسيني بيانها أمام لجنة التحقيق ـ من « أن القضية العربية فى فلسطين هى قضية قومية استقلالية لا تختلف في جوهرها عن قضايا العرب فى سائر البلاد العربية » ..

ولذلك استخلصت اللجنة العربية ، بعد أن استعرضت الكفاح العربي خلال الحرب العالمية الاولى ، وخيبة أمل الجماهير العربية من جراء وعد بلفور ، وأخطار الوطن القومي اليهودي على مستقبل الشعب العربي فى فلسطين .. استخلصت ضرورة « العدول عن تجربة الوطن القومى اليهدي الفاشلة التي نشأت عن وعد بلفور واعادة النظر فى جميع الامور التي نتجت عنها والتى الحقت الاضرار والاخطار بكيان العرب وحقوقهم » .. وطالبت اللجنة بوقف الهجرة ومنع انتقال الاراضي العربية الى اليهود .. وبحل القضية الفلسطينية « على الاسس التي حلت عليها قضايا العراق وسوريا ولبنان بانهاء عهد الانتداب وعقد معاهدة بين بريطانيا وفلسطين تقوم بموجبها حكومة مستقلة وطنية ذات حكم دستوري تتمثل فيها جميع العناصر الوطنية ويضمن للجميع فيها العدل والتقدم والرفاهية » .. (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ـ عيسى السفرى ص ١٨٢ـ١٩٠) .

أما الموقف الصهيونى فقد عرضه أكثر من شاهد أمام اللجنة الملكية ولكن الشاهدين الرئيسيين كانا حايم وايزمن زعيم المنظمة الصهيونية وممثل القوى الجوهرية فى الوطن القومي اليهودى فى فلسطين .. وزئيف جابوتينسكى زعيم الاصلاحيين .

الاقلية الصهيونية الاشد غلواء وعدوانية ..

وفي شهادتـــه أمام اللجنة الملكية كان جابوتينسكي صريحـا على غايـــة الصراحـــة ..

لقــد طالب بدولة يهودية بأكثريـــة يهودية في فلسطيـن وحدد فلسطين بالاقاليم القائمة على ضفتي نهر الاردن ..

ولم يخـــف جابوتينسكي تصـــوره مشروع الوطن القومي اليهودي استيطانا كولونياليا لا يمكـــن أن يأخذ بعين الاعتبـــار رغبات المواطنين أو حقوقهـــم ولذلك خاطب لجنـــة التحقيـــق بهـــذه الكلمات :

« وأخيـــرا يجب اتخاذ اجراءات لتأمين الامن . ان أمـــة مثل امتكـــم تمتلك خبـــرة استيطان كولونيالي هائلـــة تـدرك بالتأكيد أن الاستيطان الكولونيالي لا يتم بـدون نزاعات مـــع السكان المحليين ولذلك فلا بد من حمايـــة البلاد » ..

واقترح طبعـــا أن تمكن الادارة البريطانية في فلسطيـــن اليهود من اقامـــة قوات مسلحة تستطيع حمايـــة الامن ..

ونفى أن يؤدي مشروعه الى اصطدامات مع الاقطار العربيـــة المجاورة وأكـــد أن العـــرب سيغيرون رأيهم (في مقاومـــة الصهيونية) اذا بلغتهم بريطانيا الحقيقـــة (أي قرارهـــا اقامة دولة يهودية) فعندئذ سيعـــم الســـلام ..

طبعا رفض أن يقـــوم مجلس تشريعي قبـــل أن يصبـــح اليهود أكثريـــة وأعلـــن ان لا حاجـة لاستشارة العـــرب اذا قـــررت بريطانيا التخلـــي عن الانتداب ، تماما كما أعطـــت عصبة الامم بريطانيا مسؤوليـــة الانتـــداب وأصدرت هي وعد بلفور بـــدون الاهتمـام بموقف العرب .. (جـــواب الـــى

ايرنيست بيفن ـ الشهادة التى قدمها فلاديمير (زئيف) جابوتينسكي امام لجنــــة التحقيق الملكية في شباط ١٩٣٧) .

أمـــا وايزمن فقد قسم شهادته الشاملـــة الى قسمين عالج حى احدهما « مبادىء الحركة الصهيونية الاساسية » وفي القســـم الثانى ، مطالب القضية اليهودية الملحة ..

ولخص وايزمن نفسه تفسيره وعد بلفور أمـــام اللجنــــة فأعلـــن أن القصد منـــه كان الوحي بأن : بلاد العـــرب للعــرب ويهودا (أي فلسطين) لليهود وأرمينيا للارمن » ..

ومضـــى وايزمن فوصف نشاطـــه فى تلك الفتـــرة وذكر أن اللجنة فاتحتـــه سرا بفكـــرة التقسيم وبذلك فتحت أمامـــه ممكنات كبـــرى واضاف انه استشار عددا من المتدينين قائـــلا لهم » أعرف أن الله وعد بفلسطين أبناء اسرائيل ولكني لا أعـــرف الحدود التي رسمها . اني اؤمن أنها أوسع من الحـــدود المقترحـة ومن المحتمل أن تشمـــل شرق الاردن ـ ومـــع هذا فقد غضضنا النظـــر عن القسم الشرقي (شرقي الاردن أ.ت) ويطلب منـــا الان أن نتنازل عـــن بعض القسم الغربي (فلسطين المعروفـــة أيام الانتـــداب أ.ت) ، واذا كان الله سيفي بوعـــده لشعبـــه فى الوقت الـــذى يقرره فواجبنا نحن بني البشر الفقـــراء (اليه تعالى) الذين يعيشـــون فى عصر صعب أن ننقـــذ وبقدر الامكان ما يمكـــن انقاذه من اسرائيل « .

وبـــذا حدد وايزمن الفرق بينه وبين جابوتينسكي فالفرق لـــم يتناول الجوهر بل الاسلـــوب .. ووايزمن الواقعي كـــان يعتقد أن الافضـــل قيام دولة يهودية في قسم من فلسطين فـــي البداية حتى تتوفر الظـــروف لاقامتها على رقعـــة أوســـع ..

« فالله سيفي بوعـــده فى الوقت الذى يقـــرره » ••

وأدخـــل وايزمن فى شهادته ذلك الملمح الذى استغلتـــه الصهيونية أشـــد الاستغـــلال ، ملمح الدعوة لانقـــاذ ملاييـــن اليهود الدين يتهددهم خطـــر النازية ••

وبذلـــك أكـــد وايزمن أن الصهيونية حتى في هذا الوقـــت المبكر من أواخر ١٩٣٦ لم تخـــطط مقاومة النازية ولـــم تستنفر اليهود دفاعـــا عن أنفسهم حيالها ، بـــل استخدمـــت الخطـــر عليهم لتهجيرهم الى فلسطين ••

وأعـــرب عن موقف الامبريالية البريطانية أحـــد دعاتهـــا المعروفين هربرت سايد بوثام الـــذى قدم مذكـــرة الى اللجنـــة الملكية أكـــد فيها بدون مواربة أهميـــة فلسطين في الاستراتيجية البريطانية •• وكتب فى مذكرته : « مهمـــا كانت الاعتبـــارات الاستراتيجية هامـــة ابان الحرب (العالميـــة الاولى) فقد تضاعفت أهميتها كثيـــرا منذ ذلك الحين » •

وبعـــد أن لاحـــظ أخطـــار احتلال ايطاليا الحبشة عـــلى شريان المواصلات الامبريالي (قناة السويس أ•ت) قـــال ان هذا يستدعي تحويـــل فلسطين الى معسكـــر •• وأضاف أن تطوير الطيـــران يجعـــل فلسطين صلة الوصـــل الطبيعية في شبكة المواصلات الجويـــة المدنية بين الشرق والغـــرب ويستدعـــي قيام قاعـــدة بحرية جوية تتحكـــم في البوابة المائية (السويس) التى تربط بين القارتين •• وأكـــد : « لـــو لم تأخذنا الحـــرب (العالمية الاولى) الى فلسطين لكان وضـــع الســـلام المضطـــرب يجبرنا على الذهـــاب اليها » ••

ونفـــى سايد باثوم فى مذكرتـــه أن تكون مصالح بريطانيا

مرتبطة مع المسلمين (!) وفى هذا رد على الامبرياليين الذين رأوا مصلحة الامبريالية البريطانية في تعاون مع الرجعية العربية او الاسلامية واكد ان مصلحة الامبريالية البريطانية في توطيدالوطن القومي اليهودى الذى لم يكن أمرا عابرا بل « حلفا وثيقا بين اليهود الصهيونيين والمصالح الامبريالية البريطانية » ..

ودعا سايد باثم ، بدون تحفظ الى مساعدة الاصدقاء الصهيونيين وعدم تعويض أولئك الذين قاوموا سلطة الانتداب . (مصالح بريطانيا الامبريالية في فلسطين بقلم هربرت سايد بوثام صدر عام ١٩٣٧) .

قرار اللجنة الملكية

وقسمت اللجنة الملكية تقريرها الى قسمين .. قسم ضمنته اقتراحاتها العينية في حالة بقاء الانتداب البريطاني بشأن الهجرة والحكم المحلي وسائر القضايا اليومية .. وقسم دعت فيه الى حل جذري اعتقادا منها انه لا سبيل اخر للخروج من الازمة ..

أما الحل الجذري فكان التقسيم على اعتبار أن من غير الممكن لاي من العنصرين حكم فلسطين بأسرها .. وليس هناك ما يمنع أي (عنصر) منهما من تولي الحكم في قسم منها ان كان ذلك ممكنا . « فالتقسيم يفسح المجال لتوطيد السلام في النهاية ، الامر الذى لا يتيحه أي مشروع اخر » ...

وتلخص مشروع اللجنة : بانهاء الانتداب البريطاني .. وباقامة دولتين فى فلسطين : عربية ويهودية .. وباقتطاع أجزاء من البلاد وضعها تحت سلطة الانتداب لحمايتها بوصفها أماكن مقدسة ..

وكانت أبرز ملامح مشروع التقسيم :

* اقامة الدولة اليهودية في مناطق ساحل فلسطين حيث احتشدت المستوطنات اليهودية .

* اقامة الدولة العربية من القسم الفلسطيني المخصص للعرب وشرق الاردن المتاخم له .

* وضع الاماكن المقدسة : القدس ومنطقتها والناصرة ومنطقتها وطبريا وما جاورها تحت اشراف الدولة المنتدبة للمحافظة على قداستها وحرية الوصول اليها ..

واتضحت من هذا المشروع ملامح السياسة البريطانية لا فى فلسطين وحدها بل فى المنطقة كلها ..

* فقد استهدفت اقامة دولة يهودية ترتبط عضويا مع الامبريالية البريطانية وتتلاحم مع استراتيجيتها المنطقية والعالمية ..

* وفي الوقت ذاته استهدفت اقامة « قاعدة عربية » ، بضم القسم العربي من فلسطين الى امارة شرق الاردن وتوطيد دولة يحكمها الامير عبد الله الهاشمي داعية سوريا الكبرى . (١)

* كما انها أبقت لها ، بحجة حماية الاماكن المقدسة ، « جيوب » سيطرة ، تستطيع الانطلاق منها لفرض ارادتها على دول المنطقة ..

وتأكدت هذه الحقائق في بيان الحكومة البريطانية الرسمي ، الذى أعقب التقرير ، وأكد « انصياع » الادارة البريطانية لمقترحاته ..

---

١ ـ عملت بريطانيا على تنفيذ مشروع سوريا الكبرى تحت اشراف الامير عبد الله لانها رات فيه طريقه لمد نفوذها الى سوريا ولبنان ولاقامة دوله تتحكم بها عن طريق اميرها العميل فى منطقة الشرق الاوسط ..

وجـــاء فى البيان الحكومي أن المشروع سيمكـــن العـرب « من الحصول على استقلالهـــم الوطنـــي والتعاون على قـــدم المساواة مع العـــرب فى البلاد المجـــاورة » وذلك في كل ما يؤول الى وحـــدة العرب ونجاحهم ، كما انه سيخلص العـــرب نهائيـــا من خوف تسلط اليهود عليهم » ·· كما انه سيـــؤدي الى قيـــام وطن قومي يهودي لا يحتمـــل وقوعه تحت حكم عربي ··

وأثار التقريـــر موجـــة احتجاج عارمة ·· ودفع الحركـة القومية العربية الى مرحلـــة جديدة ·· وكانت القضية الجوهرية : « ماذا سيكـــون بعد التقريـــر » ··

الفصل الخامس عشر

اصداء التقرير والكتاب الابيض

لاحظنا أن نشوب ثورة ١٩٣٦ فى فلسطين كان امتدادا لنهوض حركات التحرر القومي فى أنحاء العالم العربي ٠٠ ولذلك فجدير هنا أن نذكر أن صدور قرار التقسيم كان فى وقت حققت فيه بعض هذه الحركات انجازات قومية هامة نسبيا ٠٠

ففي العراق كانت في الحكم حكومة حكمت سليمان التى تميزت ببعض الملامح الايجابية المعادية للامبريالية ٠٠ كما قامت حكومات قومية فى كل من سوريا ولبنان في أعقاب اتفاقات عام ١٩٣٦ مع حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا ٠٠ أما في مصر فحكومة الوفد ، وقد وقعت اتفاق عام ١٩٣٦ ، تمتعت بتأييد شعبي وكانت أقدر من غيرها على التجاوب مع الحركات القومية العربية ٠٠

ثم ان مصر في هذه الفترة كما كتب داعية العروبة ساطع الحصري ، كانت قد اكتشفت عروبتها ونشطت في حركة النضال العربي ٠٠

وانعكست حركة التضامن العربى في أصداء التقسيم في العالم العربي ٠٠ زعماء الحكومات العربية في

مصر وسوريا والعراق نددوا بالمشروع ودعـوا كما دعا حكمت سليمان رئيس وزراء العراق الى تأليف حكومـة عربيـة فـي فلسطين على أسس ديمقراطيـة يكون دستورها كدستور العـراق يؤلف بين العناصر ويحفـظ حقوقهـم ..

وأبـرزت الحكومة السورية في مذكرتهـا الى قناصـل الدول فى ٢١ـ٧ـ٣٧ أن التقسيم سيؤدى الى جلاء العـرب عـن بلادهـم .. وستستمرالخصومـات ويضطرب جبل الامن فـي الشرق العربـي .. وأضافت ان ذلك يقلـق سوريا وبلاد العرب ولهـذا فهي تدعو الى حـل عادل يضمـن وحدة البـلاد . (الدولـة العربيـة المتحـدة الجزء الثالـث أمين سعيـد ص ٥٨٥ـ٥٨٦) .

أمـا رئيس وزراء مصر مصطفى النحـاس فقـد أكـد أن حكومته تحرص عـلى توطيـد صلات الود والاخـاء وتبـادل المنافـع التى تربط بين مصـر وبين الشعوب العربية .. ولذلك هى تتابـع باهتمام ما يجـري في فلسطين .. (المصـدر ذاتـه) ٥٨٧ .

أمـا في الاقطار العربيـة الواقعة مباشرة في قبضـة الامبريالية الفرنسية مثـل تونس والمغرب الاقصى والجزائـر ، فقد قامت الحركات القوميـة باستنكار التقسيم وجمـع التبرعات لدعم النضال العربي في فلسطين (المصدر ذاته ص ٥٩٣) .

كما دعـت اللجنـة الوطنيـة لمناصرة فلسطين والبـلاد المقدسة فى المغرب الاقصى الـى التماثل مع الشعـب العربـي الفلسطيني ، فتجاوبـت معها الجماهير وتظاهـرت في شتـى المدن احتجاجا على التقسيم « وتمسكـا بمبـدأ الوحدة العربية »

(المصدر ذاتـــه ص ٥٩٤) ٠

وتجسمـــت حركة التضامـــن على الصعيد العربي العـــام تنظيميا فى مؤتمر بلودان (بجـــوار دمشق) الذى عقـد فـــي ٨ أيلول ١٩٣٧ بحضـــور ٤٠٠ ممثـــل من مختلف الاقطـــار العربيـــة وقـــرر :

« ان فلسطيـــن بلاد عربيـــة وان واجب العـــرب انقـاذ هذا القطر من الخطـــر المحيق به ٠٠٠ وهو يستنكـــر فكـــرة التقسيم ويؤكد أن القضيـــة يمكن أن تحل على أساس الغاء الانتداب ووعد بلفور وعقـــد معاهدة بين بريطانيا وممثلى العـــرب (!) فى فلسطين على غـــرار المعاهدة العراقية » ٠

كذلـك أعلـــن :

« يتعهـــد العرب فى فلسطين بأن يعامـــل اليهود كمـــا تعامـــل الاقليـــات فـــي جميـــع البـــلاد التـــي تطبـــق فيها مبادىء عصبة الامم » (المصدر ذاته ٦١١ـ٦١٤) ٠

وكـــان مؤتمر بلودان مؤتمرا على الصعيـــد الشعبـــي ، أما على الصعيد الرسمي فقـــد عقد في صيف ١٩٣٨ ، بمبـــادرة من لجنـــة برلمانية مصريـــة ، مؤتمر برلماني عربي فى القاهـــرة اشترك فيه نـــواب وشيوح من برلمانت مصـــر والعراق وسوريا ولبنان ينتسبـــون الى مختلف الاحـــزاب ، كما اشترك فيـــه ممثلو الحركة القوميـــة فى المغرب الاقصى واخر من فلسطيـــن ٠ وقرر المؤتمر تأييـــد مطالب الحركة القوميـــة العربيـــة فـــي فلسطين وميثاقها القومـــي : تأليف حكومة قوميـــة مستقلـــة ووقـــف الهجرة ومنـــع بيوع الاراضي ٠ (حول الحركة العربيـــة الحديثة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ٢١٤) ٠

وسجلت حركة النساء في العالم العربي في هذه الفترة من نهوض حركة التضامن العربي نجاحا جديا بعقدها مؤتمرا نسائيا حضرته ممثلات من المنظمات النسائية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ، استنكر المظالم البريطانية في فلسطين وأيد الميثاق القومي ..

وهنا لا بد من وقفة عند سياسة الامير عبد الله أمير شرق الاردن (بنعمة بريطانية كما كانت تكتب بعض الصحف الوطنية) .

كتب أمين سعيد في كتابه الدولة العربية المتحدة :

« لزمت حكومة شرق الاردن الصمت ازاء مشروع التقسيم فلم تبد رأيها فيه ولم تسمح لانصارها بابداء رأيهم ، فكان سكوتها سببا في رواج اشاعات مفادها أن هنالك اتفاقا بين حكومة الاردن وحكومة فلسطين على تنصيب سمو الامير عبد الله ملكا على الدولة العربية الجديدة التى تنشأ في حالة تنفيذ مشروع التقسيم وضم الجزء الذي يبقى للعرب الى شرق الاردن » .. (الجزء الثالث ص ٥٩١) .

وفعلا كان هناك اتجاه واضح لتنفيذ هذا المخطط باعتباره الحل الافضل لتوطيد مواقع الامبريالية البريطانية في المنطقة .. فالامير عبد الله كان مغاليا في ولائه لبريطانيا وكان المتوقع منه أن يصفي الحركة القومية العربية المعادية للامبريالية في فلسطين ..

وازاء هذا المخطط ظهر أن من عوامل مقاومة التقسيم في بعض المحافل العربية تخوف السعوديين من ازدياد قوة الهاشميين الذين كانوا يحكمون العراق وشرقي الاردن .

لقد نشب الصراع السعودي ـ الهاشمي في أعقاب الحرب العالمية الاولى وبانتصار السعوديين على الهاشميين فى الحجاز وطردهم اياهم من شبه الجزيرة العربية ..

ومع هذا ففي هذه الفترة كان هذا الصراع قد بدأ يتخذ طابعا اخر أضفاه عليه نمو التناقض الامبريالي ..وتعدد جوانبه ..

ففى سنوات الثلاثين المتأخرة لم يعد الصراع يقتصر فى منطقة الشرق الاوسط على الدولتين بريطانيا وفرنسا بل بدأ يشمل الولايات المتحدة ..

فالاحتكارات الامريكية كانت قد تسربت الى شبه الجزيرة العربية ونتيجة لاكتشافها النفط في المملكة السعودية بدأت تمارس نفوذا سياسيا فيها مما عمق الصراع السعودي الهاشمي اذ تجاوبت فيه أصداء الصراع الانجلو أميركي الذى كان يشتد مع الايام .. خصوصا وان الامير عبد الله لم يكن يتحفظ في ولائه للامبريالية البريطانية .

ولكن الجماهير فى شرقى الاردن تحركت في اتجاه معاكس وأعربت عن تأييدها الشعب العربى فى فلسطين بمظاهرات جرت فى أكثر من مدينة وفي مناسبات عدة ... كما أن عددا من الثوريين فجروا أنابيب بترول شركة نفط العراق التى كانت تمر في أراضيهم (حول الوحدة العربية محمد عزة دروزة الجزء الثالث ص ٢١٥ـ٢١٦) .

ورسمت حركة التضامن في العالم العربي مع الشعب العربي فى فلسطين خطا فاصلا بين الصهيونية وجماهير الطوائف اليهودية التي تعيش فى الاقطار العربية ولذلك لم

تشهد هذه الاقطار تجاوزات على حقوق المواطنين فيها أو اعتداء عنصريا عليهم ••

الحركة القومية العربية في فلسطين

في عشية اصدار توصيات التقسيم انسحب ممثلو حزب الدفاع من الهيئة العربية العليا وفي البيان الذي أصدره في ٣ـ٧ـ٣٧ احتج الحزب على الاغتيالات السياسية التي كانت قد بدأت تتفشى في البلاد وأعلن انها تقسم الجماهير • وكان واضحا ان حزب الدفاع يتهم قيادة الهيئة العربية العليا وخاصة المفتي الحاج أمين الحسيني رئيسها ، بتنظيم تلك الاغتيالات التي قضت على بعض رجال الحزب •

ولكن دلائل عديدة منها توقيت الانسحاب ونشاط رجال الحزب ابان الثورة أوحت انذاك ان قادة حزب الدفاع ، الذين جرفهم تيار الحركة القومية الثوري في عام ١٩٣٦ ، فانتسبوا الى الجبهة القومية التقليدية ، كانوا على علم بتوصيات التقسيم ، وبوصفهم مهادنين للامبريالية البريطانية استعدوا للسير معها في مخطط اقامة دولة عربية جديدة من شرق الاردن والقسم العربي في فلسطين بزعامة الملك عبد الله••

وجسم انسحاب حزب الدفاع من الهيئة العربية العليا تنظيميا من جديدة تجزئة الحركة القومية العربية التي توحدت ، بفضل ضغوط الجماهير ، في جبهة موحدة اتخذت الهيئة العربية العليا شكلا لها ••

ومع هذا لم يستطع قادة حزب الدفاع في اللحظة الحاسمة الخروج علنا بتأييد مقترحات التقسيم •• بل أصدروا بيانا اعلنوا فيه انهم قرروا بالاجماع رفض مشروع تقسيم

فلسطين لانه يعارض آمال الامة ويضر بمصالحها ويمزق وحدتها ويهدم كيانها ‥ وهم سيواصلون « السعي لاستقلال فلسطين استقلالا يكفل السيادة العربية ‥ » (الدولة العربية المتحدة الجزء الثالث أمين سعيد ص ٥٨٠) .

وعلى أساس الوثائق يمكن القول أن الحركة القومية بكافة اتجاهاتها رفضت علنا مشروع التقسيم ‥ أما الهيئة العربية العليا فرفضته في بيان أذاعته في ٩ـ٧ـ٣٧ وأكدت فيه ان « هذه البلاد لا تخص عرب فلسطين بل العالمين العربي والاسلامي قاطبة » (ص ٥٧٩ المصدر ذاته) ولهذا فعليهم تقع المسؤولية ومعهم يجب أن تجري المشاورات .

وتجددت الثورة المسلحة بعنف أشد ‥ واتسعت اتساعا كبيرا في عام ١٩٣٨ بحيث اضطرت الحكومة البريطانية الى استخدام الطائرات والدبابات ومختلف أنواع المدفعية لقمعها ‥

وقد نجحت الثورة فى تحرير بعض المدن والمناطق لفترة قصيرة وأقامت فيها ادارات محلية ‥ حتى القضاء انتقل الى أيدي محاكم أقامتها قيادة الثورة ‥

ومن المدن التي تحررت لفترة قصيرة نابلس وجنين وطولكرم ‥ والقدس وبعض ضواحيها ‥

وكتب في هذا الصدد محمد عزة دروزة في كتابه « حول الحركة العربية الحديثة » : « وقد جاء يوم اضطرت السلطات فيه الى نفض يدها من الحكم داخل المدينتين نابلس والخليل بل والغاء المحاكم فى نابلس ونقل ملفاتها الى الثكنة العسكرية خارج المدينة » (الجزء الثالث ص ٢٠١) .

وامتازت الثـــورة بعمــق جذورهــــا بين الفلاحين والفئات الشعبية ٠٠ فهؤلاء مدوهـــا بالقــوى المحاربـــة ٠٠

وهــــذا ما ذكـــره دروزة أيضا حين كتب : ان القرويين كانوا عماد الحركـــة الثوريـــة وان كان بعض المدنيين (سكـان المدن ، والمثقفين اشتركوا فيها ٠

وحتى بن غوريون لاحظ أن طابـــع الثـــورة تغير فكتـــب فى ٣ـ٨ـ٣٨ مقالا بعنـــوان « على ثـــلاث جبهات » أنه فى حيـن كانت « حركـــة الارهاب » !! (هكذا يصـــف الصهيونيـــون الثـــورة القوميـــة) فى البداية من صنع عناصـــر جاءوا مـــن العراق وسوريا الى فلسطين ، امتـــازت الفترة الثانية بمشاركـــة المواطنين العرب الفلسطينيين فى المعركـة بشكـــل حاســـم ٠٠ (« اعادة ولادة ومصيرها » ، بن غوريون ص ٩٠)

وجاء في تقرير الحكومه البريطانية الى لجنة التحقيق الانجلو امريكيه في نهاية ١٩٤٥ ان حوادث العنف على انواعها ،من معارك في الجبال الى اغتيالات في المدن بلغت ٥٧٠٨ حادثة في عام ١٩٣٨ منها ٩٨٦ هجومـــا على البوليس والجيش و ٧٢٠ هجوما عـــلى المواصـــلات البرية و ٣٤١ حادثـــة تخريب فى السكك الحديدية و ١٠ حـــوادث تفجيـــر فى أنابيب شركة نفط العراق التـــي نقلت النفط من العراق الـــى مصنع التكرير فى حيفا وشاطـــىء البحر الابيض المتوسط ، و ٤٣٠ اغتيالا ومحاولـــة اغتيـــال ٠٠ ويذكر التقريـــر ٦٥١ حادثـــة هجـــوم على المستوطنات والاحياء اليهودية ولكن هذه الحـــوادث فى كثير من الاحيـــان كانـــت اصطدامات يهودية عربيـــة نجمت عن نشاط منظمـــة الدفـاع الصهيونية التي عرفت « بالهجانا » ٠٠ وكما ذكرنـــا فقد أقامت

السلطات « الفرق الطائـــرة » أو فرق الليل الخاصـــة مـــن « الهجانا » بقيادة رجـــل الاستخبارات البريطاني وهـــذه أخذت على عاتقها واجب حمايـــة المنشآت البريطانية ولذلك سببـــت بنشاطها حوادث اصطدامـــات يهودية ـ عربية دخلت في التقريـر بوصفها هجومات على مستوطنات وأحياء يهودية ٠٠ كمـــا دخلـت كـــرات الجيش والبوليس على القرى العربيـــة والاصطدامـــات الناجمـــة عن ذلك في باب هجومـــات على الجيش والبـــوليس ٠٠٠ (ص ٤٦) ٠

هذا لا يعني ان قوات الانصـــار العربية المسلحـــة لم تهاجـــم المستوطنات انما يعنـــي أن الثـــورة ركزت نارهـــا جوهريا على مواقـــع الامبريالية البريطانية ولم تكن احترابـــا يهوديا ـ عربيا بغض النظـــر عن وجود انحراف في الحركـــة القوميـــة العربية حاول أن يجعلهـــا كذلـــك انزلاقا وراء سياســـة الامبرياليـــة « فـــرق تســـد » ٠

ولا بـــد من القول أن قيادة الحركة الصهيونية التـــي أعلنـــت في بداية الثـــورة سياسة « ضبـــط النفس » لـــم « تضبط نفسهـــا » بـــل حركت قواها « وقامت باجراءات فعالـــة من التدخل والرد » (حركـــة العمال الاسرائيليـــة « ولتـــر بريوس ص ١٢٨ ») ٠٠ وهـــذا ينفي مزاعم القيـادة الصهيونية أن حـــوادث تفجيـــر القنابل فى أسواق حيفا والقدس ويافـــا فى تمـــوز ١٩٣٨ التى أودت بحيـــاة عشرات المواطنين العـــرب كانت من أعمـــال « المتطرفين » !!

وفي هذا الصـــدد تجدر الاشارة الـــى نشاط الصهيونية المحمومـــة فى تشويـــه سمعة الحركة القومية العربيـــة فـــي

فلسطين على الصعيد الدولي لاخفاء حقيقة المعركة القومية التحررية ..

ومن وايزمن زعيم الحركة الصهيونية آنذاك حتى أصغر داعية انطلقت التصريحات تؤكد أن الثورة عبارة عن أعمال مرتزقة تمولهم الاموال الايطالية (التجربة والخطأ وايزمن ص ٣٩١) .

ورد القوميون العرب على هذا التزييف ، ومنهم من انتقد بصراحة بعض الاجراءات المؤسفة (الاجرامية في بعض الاحيان) التى وقعت خلال الثورة ـ وهي تقع فى بداهة في أغلب الثورات .. وبذلك وضعوا الثورة في اطارها الحقيقى بوصفها حركة هزت الجماهية الى الاعماق وكانت فورة شعبية واعية .

ولكن ذلك لا ينفي أن جناحا في قيادة الثورة وقف على رأسه المفتي الحاج أمين الحسينى كان قد انحاز فى تلك الفترة الى المحور الالماني ـ الايطالى .. وهذا الجناح فى القيادة قام بذلك اما بدافع العمالة واما اعتقادا منه ان «المصلحة القومية » ! تتطلب التحالف مع أعداء الامبريالية البريطانية .

ولكن وصف الثورة « بالعمالة » كان تجنيا على الواقع وتشويها للشعب العربي الفلسطينى الذى كان يحارب لا من أجل ايطاليا أو ألمانيا بل من أجل استقلاله .. بل لقد كانت عواطف الشعب العربي في عام ١٩٣٥ مع الحبشة المظلومة التى حاربت للغزو الفاشي الايطالي ..

وقد استمرت الثورة خلال مرحلتها الثانية رغم هجوم السلطات البريطانية العنيف على الحركة القومية وتشديد

اجراءات القمع التى انتهجتها ٠٠

وهكذا في هذه الفترة أعلنت السلطات (في ١ تشرين الاول ١٩٣٧) الهيئة العربية العليا واللجان القومية هيئات غير مشروعة واعتقلت المئات ونفت الى سيشل عددا من أعضاء الهيئة العليا والزعماء البارزين ، وهم أحمد حلمي باشا والدكتور حسين الخالدي وفؤاد سابا ورشيد الحاج ابراهيم ويعقوب الغصين ٠٠ أما المفتي وجمال الحسينى فقد فرا من البلاد ٠٠ (التقرير ص ٤٢) ٠

كذلك أقامت السلطات محاكم عسكرية في ١١ تشرين الثانى ١٩٣٧ أصدرت أحكاما مجرمة بحق النشيطين في الثورة ونفذت حكم الاعدام خلال سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ بأكثر من ١٠٠ عربي (التقرير ص ٤٦ و ٤٩)

موقف القيادة الصهيونية

لقد انطلقت القيادة الصهيونية عند تحديد موقفها من التقسيم من منطلقين هامين أولهما شعورها بضرورة تحقيق السيادة اليهودية ٠٠ فالسيادة أو اقامة دولة يهودية في فلسطين هي العنصر الجوهري في البناء الايديولوجي الصهيونى ٠٠ ولذلك كان بديهيا أن ترحب القيادة الصهيونية بالفرصة المواتية لتحقيقها حتى في جزء من « أرض الميعاد » ! خصوصا وان هذه القيادة كانت ترى أن اقامة الدولة اليهودية في جزء من « أرض الميعاد » سيكون بمثابة خطوة اولى نحو تحويل فلسطين كلها الى دولة يهودية ٠ ولهذا في حين صرح بن غوريون انذاك « أرض اسرائيل لا تتجزأ » صرح وايزمن « ان النقب لن يفر » ٠٠٠ (اسرائيل على مفترق الطريق

كريستوفر سايكس ص ٢١٢ـ٢١٣) ٠

ثانيهما : ان التعاون مع بريطانيا يؤلف ، باصطلاح وايزمن ، حجر الاساس في السياسة الصهيونية ٠٠ (كتابه التجربة والخطأ ص ٣٩٣) ٠

وهذا كان يحمل في ثناياه استعداد القيادة الصهيونية على ربط مصيرها بالامبريالية البريطانية وتقديم القوات الصهيونية المسلحة للمساهمة في معركتها ٠٠

وأوحى بذلك وايزمن في رسالته في نيسان ١٩٣٨ الى وزير المستعمرات انذاك أورمبسي جور معلنا عن وجود ٤٠ ألف مقاتل (في الهجانا) (المصدر ذاته ص ٣٩٦) ٠

ولكن ارتباط القيادة الصهيونية المقررة انذاك بالامبريالية البريطانية لم يلغ وجود تيار يرغب في جذب المنظمة الصهيونية ومشروعها في فلسطين الى جانب الامبريالية الاميركية التي كانت قد بدأت تتسرب الى الشرق الاوسط ٠٠

وهذا ما ظهر فى المؤتمر الصهيونى العشرين الذى عقد بين ٣و١٧ آب ١٩٣٧ فى بال ، سويسرا ٠٠ انذاك كان بين مقاومي دعوة وايزمن لقبول قرار التقسيم الوفد الاميركي (التجربة والخطأ ص ٣٩٦) الذى كان يهاجم البريطانيين على أنهم خانوا الامانة ولم يفوا بما وعدوا به فى تحويل فلسطين كلها الى وطن قومي يهودي ٠ ومع هذا لم يرفض المؤتمر فكرة التقسيم ٠٠ بل أعلن ان تقرير اللجنة الملكية اعترف ضمنا بأن غاية الانتداب الاساسية هي تأييد انشاء الوطن القومي اليهودى فى بقعة كان مفهوما عند اعطاء تصريح بلفور انها تشمل فلسطين التاريخية كلها بما فيها

شــرق الاردن ·

وأكـد المؤتمر من جديد « الرابطـة التاريخيـة » التـي تربـط الشعب اليهودى بفلسطين ·· ثم لام حكومـة الانتداب بسبب ترددها في تنفيـذ نصوص الانتداب ·· وخلص الى القول:

« يعلـن المؤتمر أن مشـروع التقسيم كما قدمتـه اللجنة الملكية غير مقبـول · ويخـول المؤتمر اللجنة التنفيذيـة لتدخل فى مفاوضات بهدف معرفـة الشروط الدقيقة التى تقترحهـا حكومة جلالته من أجـل اقامـة دولة يهودية » ·

« وعـلى اللجنة التنفيذية في مثل هذه المفاوضـات أن لا ترتبط بشيء لا باسمها ولا باسم المنظمة الصهيونية ·· وفي حالـه وضـع مشروع محدد لاقامـة دولة يهودية فعندئـذ يعـرض هـذا المشروع عـلى مؤتمر منتخـب جديـد للبث فيـه (التجربة والخطأ ص ٣٨٧) ·

ومـن الواضـح اذن ان القـوى المقررة في المنظمـة الصهيونية نجحـت في أخـذ موافقة منظمتها عـلى مشـروع تقسيم فلسطين أملت في أن يكون أفضل من المشروع الذى اقترحته اللجنة الملكيـة ··

وهـذا لا يخفف من أهميـة معارضة الاصلاحييـن ، سلف حيروت ، (بقيـادة جابوتنسكي) التقسيـم انطلاقا مـن أيديولوجيتهم المغاليـة فى التطـرف والقائمـة على دولة يهودية في « أرض الميعاد » على ضفتـي نهر الاردن ·

وأثـرت دعوة الاصلاحيين حتـى في بعض العناصر مـن القيادة الصهيونية الواليـة لبريطانيا فدعت الى اقامـة دولـة يهودية فى فلسطين كلها (مناحم اوسيشكين مثـلا) وكـان

الخلاف بينها وبين القيادة المقــررة بزعامــة وايزمن ، لا فــي الاهــداف بل حول الطــرق ، ٠٠ فوايزمن كان يعتقــد بالمراحل على اعتبار أن «النقب لن يفر » ٠٠ ومن الممكــن أن تمتد الدولــة فيما بعد الى خــارج الحدود المقــررة لها ٠٠

المحافــل الامبريالية البريطانيــة

ويصح القــول أن الامبرياليــة البريطانية ، وقد كانــت في وضع حــرج على الصعيــد الدولي كما أوضحنــا ، رأت ان الانتداب لــم يعد يصلح لمواصلــة تحكمها في فلسطين ، ولذلك لم تخــف أن هذا النظــام لم يعــد قابلا للتنفيــذ ـ أو غير عملي حسب تقريــر لجنة بيل ـ (التجربــة والخطأ ص ٣٨٩) ولهذا قدرت أن التقسيم قد يكون الشكل الافضل لكسب « ولاء » الطرفيــن : اليهودي والعربــي وضمــان وجودهــا حمايــة لمصالحهــا الامبراطورية ٠٠

وهــذا ما شرحــه اللورد ستركاند عند مناقشتــه المشروع في مجلس اللوردات ٠٠ قال : من المهم أن تحتفــظ بريطانيــا بأجزاء من فلسطين لتكــون هنالك وقايــة للبواخر المارة فــي البحر المتوســط الى البحر الاحمــر ٠

وأضاف : أن امتياز قناة السويس ينتهي في هــذا الجيــل والخطط والمشروعات موجــودة فعــلا لفتح قناة جديــدة علــى موازاتها (اقترحت ذلك بعض العناصر الاسرائيلية عام ١٩٦٧) ، وفي مشروع التقسيم يجب أن تبقى الصحراء بأيدي بريطانيــا (النقب أ٠ت) فهي ، وان لم تكن هناك فائدة منها الان لبريطانيا ،فان قيمتها في المستقبــل قد لا تقــدر بثمن (١) ٠

---

١ ـ ولهذا بعد صدور قرار التقسيم عن الامم المتحدة في ١٩٤٧ بذلت بريطانيا كل جهد للابقاء على النقب في القسم العربي الذي خططت ضمه الى شرق الاردن ٠٠

ولكـــن من الصعب القول أن المحافـــل الامبريالية البريطانية كانت متفقـــة حول الخطـــة التي يجب اتباعهـــا لضمـــان المصالـــح الامبرياليـــة ..

فونستون تشرشـــل دعا الى تساهـــل الطرفين والتريـــث في الامـــر واللجوء الى عصبة الامم على اعتبـــار أن حفظ السلام بين الدولتين المقترحتين لن يكـــون سهـــلا ..

أمـــا اللورد بيل فقد حـــدد ملابسات القضيـــة وتعقيدها الناجم عن ارتباط العرب في فلسطين بالعالم العربي وتأثرهم به .. وانعزاليـــة اليهود واستحالة خلـــق جنسية (قومية) فلسطينية توحـــد الشعبين ومزاحمـــة اليهود العرب بأساليبهـــم الحديثـــة مما يجعـــل التقسيم حـــلا أفضـــل لانـــه يحقـــق للشعبين حكمـــا مستقـــلا ..

وأعرب اللورد هربرت صموئيل أول مندوب سام فـــي فلسطين بعـــد الحـــرب العالمية الاولى وقيام الانتـــداب البريطاني فيها عن تفكيـــر محافـــل امبريالية وصهيونية واسعـــة حيـــن رفض مشروع التقسيم وقال : ان الواجـــب على انكلترا بموافقـــة فرنسا أن تشجـــع على انشاء مجموعـــة عربية كبـــرى متحالفة تبـــذل لها فلسطين المعاونـــة الاقتصادية كما أن عـــلى العـــرب أن يرضـــوا بأن يشترك العـــرب واليهود معا في تعميـــر شرق الاردن (٢) . (هـــذه المواقف لخصناهـــا عن كتاب أمين سعيد الدولـــة العربية المتحـــدة الجزء الثالث ص ٥٩٥-٦٠٨ بعـــد أن

---

٢ ـ لقد كان هذا المشروع أساس مقترحات سوريا الكبرى التي روجت لها بريطانيا ودعت لها بعد الحرب العالميه الثانيه واتخذت شكل الكتاب الازرق الـــذى طرحـــه على بساط البحـــث نوري السعيد سعيـــا وراء المصالح الهاشميـــه ـ الامبريالية البريطانيه .

قارناها مع غيرهـــا من المصادر الاجنبيـــة) ٠

التراجـــع عن التقسيم واصــــدار الكتاب الابيض

وتجاوبت لجنة سير جـــون ودهيد التي ألفتهـا الحكومـة البريطانية لتحديـــد وسائـل تحقيـــق التقسيم وشكلـــه مـع النقاش الذى دار في البرلمان البريطاني ، فأعلنـــت بعـد أن زارت فلسطين بين نيسان وتمـــوز ١٩٣٨ أن التقسيم غير عملـــي ولا يمكـــن تنفيـــذه وبذلكفتحت الطريـــق أمام الحكومة البريطانية لتقرر سياستها حسب المصالـــح الامبريالية المعروفـــة ٠٠

وأجتمـــع الامير عبد الله ، وقد أدرك أن مشروع التقسيـم سابـــق لاوانـــه ، بلجنة ود هيد وفند أمامهـــا فكـرة التقسيم وقدم لها « مشروعا مفصـــلا لدولة موحـــدة تضـم شرق الاردن وفلسطين عـــلى أن يكـــون لليهود فيها استقلالهـــم الذاتي في مناطقهم مـــع مشاركتهم بنسبـــة عددهم في مؤسسات الدولـــة المركزيـــة وأن يكون لهم الحـــق بهجرة محدودة بنسبة معقولـة الى هذه المناطق » ! الحركـــة العربيـــة الحديثة محمد عـــزة دروزة الجزء الثالـــث ص ٢٢٣) ٠

وتخلـــت الحكومة البريطانية عن التقسيـــم حال اعـــلان لجنة ود هيد تقريرهـــا فى تشرين الثاني ١٩٣٨ ، اعتقادا منهـــا أن التقسيم في ظـــروف اشتداد عدوانيـــة المحور النازي ـ الفاشي يؤلـــف خطـــرا على مصالحهـــا في العالم العربي الـــذي هب يعـــارض التقسيـــم ٠٠

ولهـــذا ليس تجنيا على الحقيقـــة القول أن تجـــدد الثورة العربية فى فلسطين احتجاجـــا على التقسيم وعـــلى مجمـــوع سياســة الانتـــداب البريطاني أسهم اسهاما جوهريـــا فى تجميد

مشــروع التقسيم ولو مؤقتــا ·

ومــرة أخرى اقترحت بريطانيا اجــراء مفاوضات ثلاثية ـ ثنائيــة ·· ثلاثية بمعنـــى أن أطرافهـــا ثلاثـــة : بريطانيـــا والقيادة العربيـــة والقيادة الصهيونية ·· وثنائيـــة بمعنى أن الاطراف الثلاثة لا يجلسون حـــول مائدة واحـــدة ، بل تجري المفاوضات بين ممثلـــي بريطانيا وقيادة الحركة القومية العربيـــة من ناحية وبين ممثلي بريطانيا والقيادة الصهيونية من ناحية ثانية ·

ويعتقـــد الكاتب كريستوفر سايكس في كتابـــه اسرائيل على مفترق الطريـــق » ان بريطانيا دعت الى هـــذا المؤتمر (الذى عقـــد فى شباط ـ اذار ١٩٣٩) وهـــي عارفة انه سيخفـــق لتتـــذرع باخفاقـــه لفرض حلولها · (ص ٢٣٣) ·

وتجسمـــت في هذا المؤتمـــر حصيلة التطـــور فى المنطقة ·· فقد دعت بريطانيا لحضـــور المؤتمر حكومـــات الـــدول العربيـــة فى المنطقة واشتركت في المؤتمـــر فعلا حكومات العراق ومصر والعربية السعوديـــة واليمن ···أما سوريا ولبنان فأهملـــت بريطانيا دعوتهما تجنبا للاحتكـــاك بفرنسا ··

طبعا من الناحيـــة الثانية كانت الوكالـــة اليهودية التـــي بعثت بوفدهـــا الى المؤتمر ، تمثـــل لا يهود فلسطين فحســـب بـــل منظمـــات صهيونية دولية تزعـــم أن وعد بلفـــور كـــان للشعب اليهودي بأسره وأن هـــذا الشعـــب يطالـــب بحقوقـــه في فلسطين وأن حكومـــة الانتداب البريطانية مسؤولـــة أمـــام الطوائف اليهودية عامة عن ذلك ·

وأخفـــق المؤتمـــر فعـــلا ·

واعتقـــد القادة العرب أن بريطانيا « قبلت بوجهـــة نظرهم » !

الداعيـة الى انهـاء الانتداب وتأسيس حكومـة فلسطينيـة مستقلة ترتبـط بمعاهـدة مع بريطانيا • (حول الحركـة العربية الحديثـة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ٢٣٥ـ٢٣٦) •

وأجـرت بريطانيا اتصـالات مـع ممثلي الطرفيـن وأصدرت الكتاب الابيض في أيـار عام ١٩٣٩ •

لقـد كان الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ عـودة الى الكتـاب الابيض لعام ١٩٢٢ الذى أعلنـت فيه بريطانيا انهـالا تفهم من عبـارة انشاء وطن قومي يهودي التى جاءت في وعـد بلفـور ونظام الانتداب تحويـل فلسطين الى دولة يهودية •

وأعلنـت بريطانيا انها ترى واجبهـا في قيام دولـة فلسطينية فى النهاية ولذلك جاء فى الكتاب الابيض :

« ان تشكيـل دولة مستقلـة في فلسطين والتخلـي التام عن رقابـة الانتداب فيها يتطلبان نشوء علاقـات ما بيـن العـرب واليهود من شأنهـا أن تجعـل حكم البلاد صالحا وفي حيز الامكـان » أما نمـو مؤسسات الحكم الذاتى فيجـب أن تسير على قاعدة النشوء والارتقاء •

وعينيا اقترحت بريطانيا في كتابها الابيض :

* أن تحتفـظ بريطانيا بسلطتها التامـة في فلسطين في فترة الانتقـال بين الانتـداب والاستقلال •

* خـلال عشر سنوات تقوم حكومـة مستقلـة ترتبط مع المملكة المتحدة (بريطانيا) بمعاهـدة تضمن للقطريـن تطلباتهما التجارية والحربيـة فى المستقبل ضمانا مرضيـا » •

* ستنفـذ بريطانيا المشروع « رضـي اليهود والعـرب أم لـم يرضـوا » .

اما بشـــأن الهجـــرة فقد أعلـــن الكتاب الابيض أن القدرة الاقتصاديـــة على الاسيتعـــاب لن تكـــون العامـــل المقرر في تقرير الهجرة ، فهناك أيضا مخـاوف العـــرب ، ولذلك اقتـــرح ادخـــال ٥٠ ألـــف مهاجـــر بمعـــدل ١٠ الاف مهاجر سنويـا خلال خمس سنوات يضاف الـــى ذلك ادخال ٢٥ ألـــف لاجـىء يهودى يفرون من الاضطهـــاد ·· وبعـــد ذلـــك تكون الهجـرة بموافقـــة العـــرب ·

أمـــا بشأن الاراضي فقد قـــرر الكتاب الابيض تحويـــل المندوب السامي صلاحيـــات تنظيم انتقـــال الاراضي (أو منعـــه) الى المنظمات الصهيونية على ضـــوء حالة المزارعين العـــرب ·

أصـــداء الكتـــاب الابيض

لقـــد سارع محمد محمود رئيس وزراء مصـــر انـــذاك ، ومن العناصر المعروفـــة بمهادنتها الامبريالية البريطانية ، الـــى التصريح غـــداة صدور الكتاب الابيض بأنـــه « لا يستطيـــع أن ينصح عرب فلسطين بالرضاء بـــه » ·· كما وقفـــت الحكومـة العراقية والملك سعود موقفا مماثـــلا ·· (حـــول الحركة العربية الحديثـــة ج ٣ دروزة ٣٣٩) ·

وبـــدأ يتضح ان هؤلاء الحكـــام العرب المشبوهين انمـــا يتاجرون بالقضيـــة الفلسطينية لكسب تأييـــد جماهيرهـــم ولاستخدام ذلك فى الصراع الدائر بين تكتلاتهم ··

اما الهيئة العربيـــة العليا فأصـــدرت بيانا سجلت فيـــه على الحكومة الانجليزية تسليمها نظريـــا بمطالب العرب وانتقدتها عـــلى الغمـــوض في النصوص وعـلى تعليقها انهاء الانتـــداب وتأسيس الدولة الفلسطينية على رضاء اليهود ورغبتهـــم في الاندماج

في الخطــة الاستقلالية مؤكــدة أن اليهود سيعملــون كل مـا يستطيعــون على عكس ذلك لاحباط هذه الخطط (المصــدر ذاتــه ص ٢٣٩) •

أما القــوى الديمقراطية فقــد رأت في الكتــاب الابيض لعام ١٩٣٩ نجاحــا حققتــه تضحيــات الجماهير ودعت الــى القبول به بوصفــه خطوة على الطريق التحــرري ••

ولاحظــت هذه القــوى ان الجماهير العربيــة ارهقهــا النضــال الثوري منذ عام ١٩٣٦ وكان لا بــد لها من أن تتراجع بانتظام في ظــروف نجاحات جزئية حتى تكــون أقــدر عـلى الكر من جديــد ••

ومن الممكــن القــول أن مجــرد التخلي عن التقسيــم ودعوة قــادة الحركة القومية العربيــة الى المفاوضــات كــان لحظة مناسبة لوقـف الكفاح المسلــح بانتظام ••

وعــلى هذا الضــوء لم يكن من قبيــل المصادفة ان النشاط الثورى هبط بعد الكتاب الابيض عــلى الرغم من أن القيــادة القوميــة دعت الى مواصلتــه ••

ويســود الاعتقاد أن الثورة في الربــع الاخيـر من عــام ١٩٣٨ تدهــورت تنظيميا وسياسيا وفقــدت قاعدتها الجماهيرية ـ والحمــاس الذى رافقها في بدايتهــا •• لقد كانت القيــادة المقررة تحــاول المد بحيــاة الثورة اصطناعيــا واستخدمت في سبيــل ذلك أسلــوب الاغتيالات التعسفيــة التى مزقت الوحدة القوميــة التى تجلت في عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ـ المرحلــة الاولى من الثــورة والقسم الاكبــر من عــام ١٩٣٨ ـ المرحلة الثانية فــي الثــورة •

ان محاولة مد الثورة بالاغتيالات لم يمثل مصلحة قومية انما عبر عن مصلحة الدول المحورية (ألمانيا وايطاليا) التى كانت ترغب في خلق المصاعب وتكديسها أمام الامبريالية البريطانية المنافسة ٠

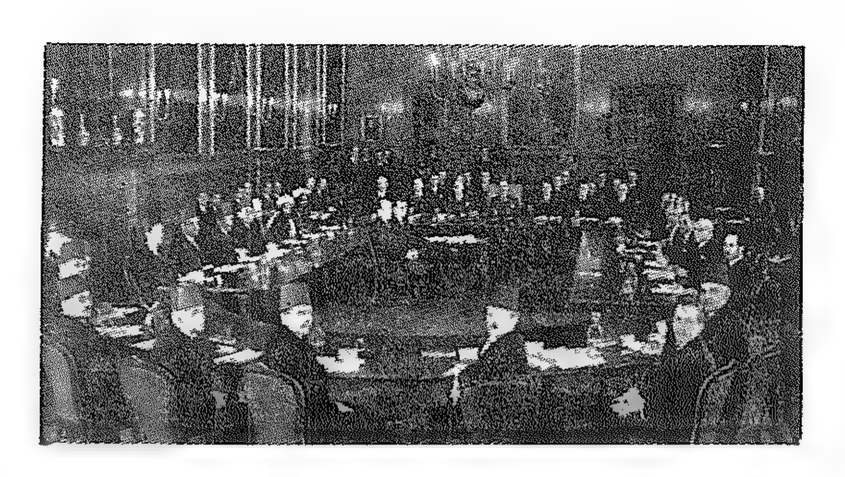
ولكن هذه « الثورة الاصطناعية » تبددت شيئا فشيئا لعدم وجود جذور لها وتوقفت عند نشوب الحرب العالمية الثانية ٠

ويستند موقف الديمقراطيين المورخ محمد عزة دروزة ـ الذى كان أيضا قائدا قوميا ـ فكتب أن الكتاب الابيض ماشى الميثاق العربي شوطا غير يسير ٠٠ وان قبول الانجليز بمبدأ قيام دولة فلسطينية بأكثرية عربية كان نجاحا عظيما وأن الكفاح العربي تكلل بالنجاح (المصدر ذاته ص ٢٤٠) ٠

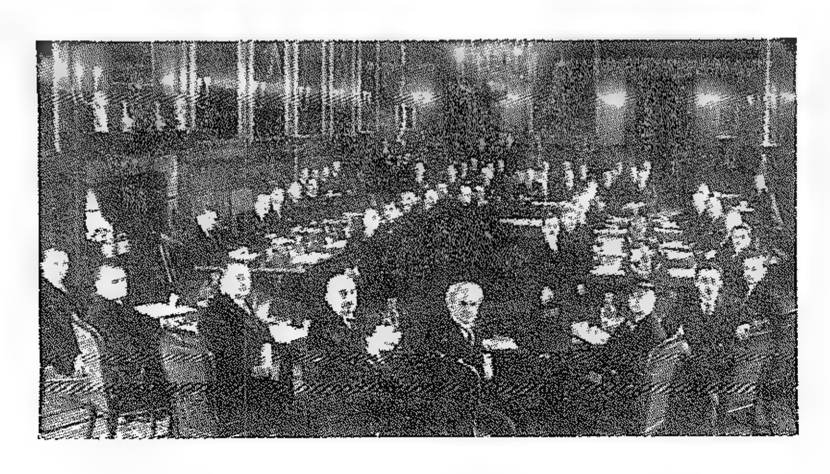
واحتجت القيادة الصهيونية احتجاجا شديد اللهجة على الكتاب الابيض ورفضته وأعلنت ما يشبه العصيان المدني احتجاجا عليه ودعت التجمعات فى الكنس الى حلف اليمين التالي :

« يعلن السكان اليهود أمام العالم ان هذه السياسة الخائنة لا يمكن التسامح معها ٠ سيحارب السكان اليهود هذه السياسة الى الحد الاقصى ولن يضنوا بالتضحيات لعرقلتها والقضاء عليها ٠ ولن يشترك أي فرد من السكان اليهود في خلق أي أجهزة ادارية على أساس هذه السياسة ولن يتعاون معها أحد » ٠

« ان السكان اليهود لن يعترفوا ولن يقبلوا بأية قيود عديمة الرحمة على الهجرة اليهودية الى بلادهم ٠ ولا توجد قوة فى العالم تستطيع القضاء على حق اخواننا الطبيعي فى دخول بلاد الاباء من أجل اعادة بنائها والعيش فيها ٠



الوفد العربي في مؤتمر لندن الذي دعت اليه الحكومة البريطانية
لتظهر كفيصل في الصراع بين العرب واليهود



الوفد الصهيوني في مؤتمر لندن المذكور اعلاه الذي عقد سنة ١٩٤٦



سيجـــد الذين بلا مأوى طريقهم هنا وكـــل يهودي في هذه البلاد سيستقبلهم » • (سقوط وصعود اسرائيل ـ وليم هل ـ ص ٢٠٥)••

وجـــرت مظاهـــرات فى أنحاء مختلفة من البـــلاد وعقـــد المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين في شهـــر آب عام ١٩٣٩ وأعلـــن مقاومتـــه الكتاب الابيض وأنكـــر شرعيته •• ولكنـــه ازاء الاخطار التى كانت تلوح في الافـــق وخطر انـــدلاع الحرب أعلـــن المؤتمر تأييـــده لبريطانيا دفاعا عن الديمقراطية •

ولا يمكـــن تحديـــد لحظة تحول القيادة الصهيونية مـــن تركيز الاعتماد على الامبرياليـــة البريطانية الى تركيز الاعتمـــاد على الامبريالية الاميركية •• ولكـــن من الممكـــن القول أن صدور الكتاب الابيض ، الذى كما قلنا أخذ بعين الاعتبـــار الاوضـــاع الدولية ـ كما ارتبطـــت بمصالـــح بريطانيا ـ وأراد احبـــاط مساعي الامبريالية الالمانيـــة والايطالية ، أســـرع في عمليـــة التحـــول خصوصا وان الولايات المتحـــدة كانت قد دخلت الميدان فى الشرق الاوســـط وبدأت تأخـــذ فى الحساب الصهيونية فى تخطيـــط سيطرتهـــا وتقليص سيطـــرة منافسيها البريطانيين في الدرجـــة الاولـــى ••

ومـــن بوادر هذا الامر أن يقوم السفير الامريكـــي فـــي لندن ، بأمـــر من الرئيس الامريكي (روزفلت انـــذاك) ، بتحذير الحكومـــة البريطانية من نتائـــج الكتاب الابيض السيئة على الرأي العام الامريكي ! (المصدر ذاته ص ٢٠٦) •

ووجـــدت الصهيونية أن من أشـــد أسلحتها أثرا : التلويح بمصائب أبناء الطائفة اليهودية من جـــراء لاساميـــة النازيـــة البربريـــة •

وعلى هذا الوتر ضرب أنصار الصهيونية فى الدول الامبريالية ‥ ودعوا الى حماية اليهود من الالام وفتح أبواب فلسطين أمامهم . (المصدر ذاته ـ خطاب هربرت موريسون ـ ص ٢٠٦) .

وفي هذه اللحظة تكشفت مرة أخرى لا مبالاة القيادة الصهيونية بمصير اليهود عامة وتركيزها نشاطها على شيء واحد : تهجيرهم الى فلسطين ‥

وجسم مؤتمر « ايفيان » هذه اللامبالاة المستهترة بحياة اليهود ، وكان قد عقد في ٦ تموز ١٩٣٨ وحضرته وفود من ٣١ دولة وسمحت حتى ألمانيا النازية لوفد يهودى بحضور المؤتمر وذلك لبحث قضية اللاجئين اليهود الذين كانوا يفرون من أمام النازية .

صحيح لم يتحمس ممثلو الدول لفتح أبواب بلادهم أمام اللاجئين من البربرية النازية ، ولكن الولايات المتحدة أعلنت موافقتها على دخول ٣٠ ألف سنويا الى بلادها وجمهورية الدومنيكان وافقت على دخول ١٠٠ لف من أولئك اللاجئين .

وكان من الممكن توليد ضغوط على الدول الاوروبية لتوسيع الابواب أمام اولئك اللاجئين .

ولكن الصهيونيون قاطعوا المؤتمر ولم يقلقهم عدم نجاحه ‥ فمنذ البداية اعتبروا هذه المبادرة بلا مبالاة وعداء ، فالاتجاه كله لا يتوافق مع روح الصهيونية ، كما كتب كريستوفر سايكس : (كتابه : اسرائيل على مفترق الطرق ـ ص ٢٢٣ـ٢٢٨) .

وأضاف : « فلو قامت أمم الدول الاحدى والثلاثين

بواجبها واستضافت أولئك الذين كانوا فى أمس الحاجة لضيافتها لخف الضغط على الوطن القومي ولهبط الحماس الصهيوني فى فلسطين وهذا اخر شيء كان يرغب فيه القادة الصهيونيون ·· وحتى فى الايام القادمة الاكثر هولا لم يخف (هؤلاء القادة) عند محادثتهم الاغراب انهم لا يريدون نجاح الاستيطان خارج فلسطين » (ص ٢٢٨) ·

وفعلا عرقل الصهيونيون كل شيء سوى الهجرة الى فلسطين ·· وبسبب ذلك فوتوا خلال الحرب العالمية الثانية فرصا عديدة لانقاذ الاف اليهود من الجحيم النازي ·

ودافع جيمس ب· واربورغ عن هذه السياسة فكتب أن الصهيونيين لم يحضروا (المقصود رسميا) مؤتمر ايفيان ولم يظهروا أي اهتمام باخفاقه لانهم « لم يرغبوا فى أن يذهب اليهود الاوروبيون الذين يستطيعون الهرب الى أقطار مختلفة، كانوا يريدونهم أن يأتوا الى فلسطين · ان موقفهم القاسي لم يغير شيئا لان العالم الغربي كان يغلق أبوابه أمام ضحايا الاضطهاد النازي » (تيارات متضاربة في الشرق الاوسط ـ ص ٩٥ ـ ٩٦) ·

ان دعاة الصهيونية يتجاهلون ما كان يمكن أن يتحقق نتيجة النضال الشعبي على الصعيد العالمي ولهذا يختفون وراء مثل هذه الاقوال ·

والحقيقة أن الصهيونية في ممارستها لم تكن تتورع عن شيء فى سبيل تحقيق أهدافها ·· ولهذا لم يكن غريبا أن يبعث بن غوريون في أيام مؤتمر ايفيان مبعوثه « يهودا تاينبوم » الى بولونيا اللاسامية لشراء السلاح وتهريبه الى

وهكذا وصلت قضية فلسطين الى مرحلة خطيرة في عشية الحرب العالمية الثانية ..

وأمر واحد لم يعد خافيا ، لقد أدت ثورة ١٩٣٦ الى مزيد من العزلة الاقتصادية بين الشعبين وبذلك عمقت الغربة السياسية القائمة بينهما منذ البداية ..

الفصل السادس عشر

قرار تقسيم فلسطين وقيام دولة اسرائيل

بنشـــوب الحـــرب العالمية الثانية في صيف ١٩٣٩ واجهت الانسانيـــة وضعا خطيـــرا ٠٠ فألمانيا النازيـــة التى جسمـــت أعنـــف امبريالية عرفها التاريخ آنـــذاك دشنت بهجومها الغادر على بولونيا محاولـــة السيطـــرة عـــلى أوروبا اولا والعالم ثانيا ٠٠

وبعـــد فترة من المناورات سميـــت « بالحرب الصورية » ، وحاولت خلالها ألمانيا النازيـــة جر فرنسا وبريطانيا وراءهـــا واخضاعها لمخططاتها بـــدون حـــرب شنت ألمانيا النازيـــة حربها الصاعقـــة في أوروبا الغربية واحتلت هولندا وبلجيكا والنرويـــج وفرنسا وبـــدأت تـــدق بغاراتها عـــلى أبواب بريطانيا التـــي احتمت وراء البحـــور التي تحيـــط بها لتصـــد الغزوة ٠٠

وتسارعـــت الاحـــداث ٠٠ وقـــرر التناقض الامبريالي من ناحيـــة ٠٠ ونضـــال الشعوب والقوى التقدميـــة ضد النازية من ناحيـــة أخرى توزيـــع الدول والشعوب على جبهتي المعركة ٠٠

وهكـــذا وقف محـــور مكافحـــة الشيوعية الذى تآلـــف من ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكريـــة والعناصـــر المغرقة فى الرجعيـــة في ناحيـــة ٠٠ والاتحاد السوفييتـــــي والولايات المتحدة وبريطانيا والشعوب عامة في ناحية مقابلة ٠٠

لقد وضعت الحرب ، الانسانية ، امام خيار مصيري .. فاما أن تستسلم أمام بطش أعنف امبريالية وحشية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، واما أن تقضي على هذه الكتلة الامبريالية الشريرة فتخط صفحة جديدة من التاريخ بحيث تفيض بممكنات التطور الايجابي ..

لقد أصبحت تلك الحرب الان جزءا من التاريخ الانساني .. ونتائجها الدينامية ـ بعد هزيمة النازية ـ تتفاعل مع الاحداث حتى اليوم .

والامر الهام هنا ان اندلاع الحرب العالمية الثانية أسهم في وقف الطلقات الاخيرة التى حاولت بها الرجعية العربية ، المتساوقة مع النازية ، الابقاء على وضع ثوري معاد لبريطانيا في فلسطين ..

وهذه الحقيقة على غاية من الاهمية فدعاة الصهيونية والمحافل الامبريالية في دول غربية عديدة قد نسجت أسطورة وضيعة زعمت فيها أن الشعب العربي الفلسطيني ساند النازية في الحرب العالمية الثانية ..

وقد اعتمدت في هذا على أسلوب التزييف الرجعي التقليدي القائم على دفع شعب بأسره بصنيع يقوم به نفر من الزعماء ..

صحيح ان مفتي القدس ، الحاج أمين الحسيني انتسب الى محور النازية وخدم مقاصدها .. ولكن الصحيح أيضا أن الشعب العربي الفلسطيني ـ باعتراف ادارة الانتداب البريطاني ـ رفض دعوة المفتى للقيام بتمرد واستنكرت صحافته العربية ـ حتى التقليدية منها ـ الغارة على تل أبيب

التى وقعت انـــذاك · (تقرير فلسطين للجنة الانجلو ـ أمريكية ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ص ٦٠) ·

واقتربت الحـــرب في يوم من الايـــام الى فلسطيـــن ، حين وصلـــت القوات الالمانيـــة بقيادة روميل الى « العلمين » كما أحســـت بعض المدن مثل حيفا بالحـــرب أيام الغارات الجوية التى تعرضـــت لها وخاصـــة حين بدأت القوات البريطانيـــة والفرنسية الحـــرة احتـــلال سوريا ولبنان لانتزاعهـــا مـــن سيطرة حكومة فيشي الفرنسية المتهاودة مع ألمانيا النازيـــة ·

ولكـــن لم يكتـــو شعبا فلسطين العربي واليهودي بنـــار الحرب ، وكانت سنوات الحرب سنوات انتعاش اقتصادى كبيـــر بسبب نفقـــات القـــوات المسلحة البريطانية الوفيـــرة التـــي عسكرت فى البلاد وبسبب حاجات المجهـــود الحربـــي المتعاظمـــة التى فرضت على بريطانيا تعديل سياستها القديمـــة ، التـــى هدفت الى الابقاء على البـــلاد سوقا لسلعها الصناعية ، فمكنـــت الصناعات المحلية من التطـــور لسد حاجات البلاد ··

وكان من الطبيعي أن تستفيـــد من هذا الوضـــع عـــلى نطاق واســـع الصناعـــة فى القطاع اليهودي اذ كانت أكثـــر تطورا لانها لم تتعرض الى القـــدر ذاته من الضغوط الامبرياليـــة ومثلت في بعض القطاعات (الاسمنت والزيوت والصابون) تعاونا رأسماليا بين احتكارات بريطانية ورأسماليين يهود محليين ·

ولذلـــك كانت حصيلـــة التطور الاقتصادي في نهايـــة الحرب العالميـــة الثانية في عام ١٩٤٥ ازدياد التفاوت بيـــن القطاعين العربي واليهودي بحيـــث أصبح القطاع اليهودى يحتـــل مكان الصـــدارة فى حياة البلاد الاقتصاديـــة وبالتحديـــد في

ميداني المال والصناعة ٠

وحسب تقرير حكومة فلسطين بلغت احتياطات البنوك التى يمتلكها العرب في ١٩٤٥ ٣ر٩ مليون جنيه ، فى حين بلغت تلك الاحتياطات التى يملكها اليهود ٣ر٥٠ مليون جنيه ٠٠ (ص ٥٦٥) ٠

أما الاموال المودعة فكانت النسبة ٣ر٣٩ مليون للعرب و ٧ر١٦ مليون لليهود ٠٠ (ص ٥٦٦) ٠

وكان التباين عميقا فى ميدان الصناعة ففي حين بلغت منشآت العرب ٥٥٨ر١ منشأة (وجلها صغير) برأسمال مليونين من الجنيهات بلغت منشآت اليهود ١٩٠٧ برأسمال ١٢ مليون جنيه ٠٠ وهذا الامر ظهر في حجم الانتاج فكانت النسبة في ميدانه حوالي ٦ر٥ مليون (يعود للعرب) وحوالي ٢٩ مليون (يعود لليهود) ٠ (ص ٥٦٧) ٠

ومع أن العرب تفوقوا على اليهود في الميدان الزراعي ، من حيث الانتاج الاجمالي ، لا من حيث معدل الدونم الواحد ، فقد تساوى الفريقان تقريبا فى انتاج الحمضيات التى كانت تمثل صادرات البلاد الجوهرية وكانت النسبة ٢ر١٨ مليون جنيه (قيمة ما ينتجه العرب من الحمضيات) مقابل ٦ر١٧ مليون جنيه (قيمة ما ينتجه اليهود) ٠

ووطد هذا التطور الاقتصادي الوطن القومي اليهودي في فلسطين وساعد على عملية التحول الكيفي في ماهية الجماهير اليهودية الناجم عن التغييرات الكمية ٠٠

ففى نهاية الحرب العالمية ، فى عام ١٩٤٥ كان قد بلغ عدد اليهود فى فلسطين حوالي ٦٦٠٠٠٠ر وتعمقت ، الى

حد ما ، نتيجـــة التطورات الاقتصاديـــة والثقافية ، عملية تلاحم أبناء الطوائف اليهودية المختلفـــة الذين وفدوا الى البـــلاد • وزاد هذه العمليـــة سرعة ضغـــوط الحرب العالميـــة الثانية وسياسة النازية اللاسامية التى خلقت بين اليهود شعورا بالمصير الواحد ••

في هذه الفترة كان من الممكـــن رؤية التغييـــر الذى طرا على الجماهير اليهودية فى فلسطين واتضح انهم يسيـــرون فـــي طريق التبلـــور القومي بحيث جعـــل في الامكـــان القـــول ان فلسطين تتغيـــر من قطر ذي قومية واحـــدة ، هي القومية العربية وجماهير يهودية حكمهـــا حكم الاقليـــة ، الـــى قطر ثنائـــي القومية يعيش فيه شعبان : العربي واليهودى ••

سياســـة القيـــادة الصهيونيـة

عند نشـــوب الحـــرب كتب حايم وايزمن الى نيفـــل تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا :

« نشأت مؤخـــرا خلافات بين الوكالة اليهودية والدولـــة المنتدبة في الميـــدان السياسي ولكننا نرغـــب فـــي أن تخلـــي هذه الخلافات مكانها لضرورات الزمن الاكثـــر الحاحـــا » (روبرت سانت جون : بن غوريون ص ٧٢) •

وصرح دافيـــد بن غوريون الذى كان يقترب من القيـــادة بوصفـــه زعيم « مباي » القـــوة السياسيـــة الكبـــرى فـــي القطاع اليهودي :

« سنحـــارب الكتاب الابيض كـــأن لا حـــرب هنـــاك ، وسنقاتـــل في الحـــرب كأن لا وجـــود للكتـــاب الابيض » (المصـــدر ذاتـــه) •

وهكـــذا يمكـــن تلخيص سياســـة القيادة الصهيونيـــة

خلال الحرب العالمية الثانية بملمحين جوهريين : مقاومة الكتاب الابيض عن طريق تجاوز قيوده على الهجرة وانتقال الاراضي من ناحية ‥ وتأييد الجبهة المعادية للنازية بشتى الطرق على اعتبار أن دحر النازية سيخلق ظروفا أفضل لتمارس الصهيونية سياستها من ناحية أخرى ‥

وقد توقع بن غوريون أن تؤدي الحرب الى قيام الدولة اليهودية فكان يقول : اذا كانت الحرب العالمية الاولى قد جاءت بوعد بلفور فالحرب الثانية ستأتي بالدولة اليهودية » (المصدر ذاته ص ٧٣) ·

وانطلقت القيادة الصهيونية في سياستها من مواقعها الجوهرية القائمة على التعاون مع الدول الامبريالية التي تتناقض مصالحها مع مصالح ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية ‥

وتعمق التمايز داخل القيادة الصهيونية ازاء الدول الامبريالية فى الجبهة المعادية للنازية خلال سنوات الحرب ورجحت شيئا فشيئا كفة القوى الموالية للامبريالية الاميركية ·

وقد انتبه الى هذه الحقيقة روبرت سانت جون حين كتب يصف تفكير بن غوريون : « لقد رأى حتى فى حالة كسب الحلفاء الحرب أن بريطانيا ستهبط بوصفها دولة كبرى وستندفع الولايات المتحدة الى موقع قيادة العالم » (كتابه بن غوريون ص ٨٢) ·

ومن العوامل التي أسرعت في عملية التحول الى الامبريالية الامريكية ازدياد نفوذ الطائفة اليهودية الامريكية بوصفها أضخم وأغنى طائفة فى الحركة الصهيونية ، خصوصا

وأن الطوائف اليهودية في أوروبا تدهورت وكانت الكارثة النازية تعمل على تصفيتها ببربرية لا مثيل لها فى التاريخ ٠

وجسم هذا الانتقال من الاعتماد على الامبريالية البريطانية الى الاعتماد على الامبريالية الامريكية المؤتمر الطارىء الذي عقدته « لجنة الطوارىء الامريكية للشؤون الصهيونية » في فندق بلتيمور في نيويورك في أيار ١٩٤٢ وصادقت فيه على برنامج بلتيمور فى نيويورك فى أيار ١٩٤٢ « برسالة أمل وتشجيع الى اليهود في الغيتوات ومعسكرات الاعتقال الهتلرية » ، ويحيي الوكالة اليهودية واللجنة القومية فى فلسطين على انجازات الوطن القومي اليهودى ٠٠ ويسجل تحويل الصحارى الى جنات يانعات !! ويدعو ـ وهذا كان بيت القصيد ـ الى تنفيذ هدف وعد بلفور الاصلي وهو ٠٠ « اعترافا بالعلاقات التاريخية بين الشعب اليهودي وفلسطين تقرر تمكين اليهود كما أعلن ذلك الرئيس ويلسون من اقامة دولة يهودية فيها » ٠

وطالب القرار ـ بعدأن رفض الكتاب الابيض ودعا الى الغائه ـ بفتح أبواب فلسطين أمام الهجرة ٠٠ وتحويل الوكالة اليهودية صلاحية ترتيب الهجرة والاستيطان ، كما طالب بتأليف قوة يهودية عسكرية تحارب تحت علمها ٠٠ (مجموعة الوثائق التى جمعها ولتر لاكير ـ ص ٧٨) ٠

وفي تشرين الثاني ١٩٤٢ أقر المجلس الصهيوني الضيق ، برنامج بلتيمور كما أقرته الوكالة اليهودية وأكثرية الاحزاب في فلسطين بما فيها الحزب الاصلاحي ٠٠

لقد دخلت المنظمة الصهيونية ـ بعد فترة من الحذر ـ

المعركة الجوهرية تحت شعارها الاصيل ـ شعار الدولة اليهودية ·

وحظيت المنظمة الصهيونية بتأييد متعاظم في الولايات المتحدة ·· ونشط الشيوخ والنواب فى الكونغرس الامريكي من أجل اقرار برنامج بلتيمور الداعي الى اقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ·

وما أن جاء عام ١٩٤٤ حتى قدم عدد كبير من الشيوخ والنواب الى الكونغرس الامريكي مشروع قرار يدعو الى هجرة غير محدودة الى فلسطين والى اقامة الدولة اليهودية ··

وفي معركة انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة في خريف ١٩٤٤ نشر الشيخ واغنر نص رسالة كتبها الرئيس الامريكي روزفلت وأعلن فيها تأييده « فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة واستيطان كولونيالي يؤدي الى اقامة دولة يهودية ديمقراطية وحرة في فلسطين » (تقرير فلسطين المجلد ١ ـ ص ٧٠) ·

وأدى هذا الانتقال من التعاون مع الامبريالية البريطانية الى الاعتماد على الامبريالية الاميركية الى انتقال القيادة من أيدي حايم وايزمن الى أيدي بن غوريون·

وفى هذا الصدد كتب جيمس واربورغ ان المصادقة على برنامج بلتيمور وضع بن غوريون في مكان القيادة بدل وايزمن (كتابه تيارات متصلبة في الشرق الاوسط ص ١١٠) وشدد الشقة بين الوكالة اليهودية وبريطانيا (المصدر ذاته ص ١١١) ·

وتوافق هذا كله مع تغيير في سياسة الولايات المتحدة، التى كانت من قبل هذه الفترة تعتبر الشرق الاوسط

وشرق البحر الابيض المتوسط من مسؤولية بريطانيا ولكنها في الحرب العالمية الثانية بدأت تهتم بالشرق الاوسط وتنتهج سياسة مزدوجة . فالرئيس روزفلت صرح أمام الصهيونيين انه يشاركهم في هدفهم اقامة الدولة اليهودية وفي الوقت ذاته وعد ابن سعود ملك السعودية بأن لا يقوم بأي اجراء يضر بالقضية العربية . (المصدر ذاته ص ١٢١) .

ولكن حين نقرر أن سياسة القيادة الصهيونية اتسمت بملمحين : تجاوز الكتاب الابيض وخاصة قيوده على الهجرة اليهودية الى فلسطين أولا .. وتأييد الحلفاء في محاربة النازية ثانيا ، فلا بد لنا من أن نؤكد ان العنصر المقرر كان تجاوز الكتاب الابيض أو على الاصح تنفيذ المخطط الصهيوني كما فهمته القيادة انذاك .

ولهذا حين ذاعت أنباء جرائم النازية المروعة في تصفية اليهود في معسكرات الاعتقال لم تعمل القيادة الصهيونية على مجرد انقاذ اليهود من الكارثة التى كانت تنتظرهم بل ركزت جهودها جوهريا على تهجير اليهود الى فلسطين بغض النظر عن العواقب المخيفة في بعض الاحيان .

ولو كانت القيادة الصهيونية تهتم بانقاذ اليهود عامة لاستطاعت انقاذ مئات الالوف .

وفي هذا الصدد أعلن أ.ليفنه في ندوة طاولة مستديرة عقدتها « معريب » (ونشرت وقائعها بين ١٠ــ٢٤ نيسان ١٩٦٦) . لو كان الهدف انقاذ اليهود لمجرد الانقاذ لا تهجيرهم الى فلسطين .. ولو كرست المنظمات الصهيونية المسلحة جهودها لهذه الغاية لانقذت مليونا من اليهود .

وكـــان غرق ٢٤٠ مهاجرا غير شرعي في ميناء حيفـــا نتيجة نســـف السفينة « بتريا » في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ أحـــد الادلة على مـــدى استهتـــار القيادة الصهيونية بـــأرواح اليهود في سعيهـــا نحو أغراضهـــا ٠٠ فالوكالة اليهودية ـ كما يجمع الكتاب الان ـ هي التى نظمـــت الانفجـــار في الباخرة لمنـــع سفرها مع المهاجرين غيـــر الشرعيين الـــى موريتوس وبذلـــك سببت هذه المأســـاة ٠٠ (١)

ويحمل جيمس واربورغ الوكالة اليهودية قسطا من المسؤولية عن غـــرق السفينة (ستروما) في البحـــر الاسود وهي تحمـــل ٧٦٩ مهاجرا يهوديا ، لم ينج منهم غيـــر واحـــد ، وكتـــب ان السفينة ستروما غرقـــت بعد شهرين من الجـــدال بين الحكومة البريطانية والوكالة اليهودية ٠ وأضـــاف : « ولـــو كانـــت الاعتبارات الانسانيـــة هي التي حركـــت الوكالة اليهودية لاقترحت السمـــاح للسفينة بالابحـــار الى حيفا بينما ناقشت (السلطات البريطانية) حـــول حـــق اللاجئين في النزول في فلسطيـــن » ٠٠ أمـــا بريطانيا فكانت تريـــد أن ترسل « ستروما » الـــى حيفا ومـــن هناك الى ماريتوس ٠ (كتابـــه تيارات متصلبة في الشرق الاوسط ص ١٠٨)

وتكشفـــت هذه الحقائـــق أثناء المحاكمة التي دارت حـــول الزعيم الصهيوني ر٠كاستنر في القـــدس عام ١٩٥٢ ٠ فحســـب قرار المحكمـــة تعاون كاستنر ـ وكان يرأس لجنـــة انقـــاذ

---

١ ـ لاحظ عـــدد من الكتاب امثـــال جيمس واربورغ وكريستوفر سايكس ان الوكاله اليهوديه في سبيل تغطيـــة الجريمه اذاعت ان المهاجريـــن غيـــر الشرعيين حاولوا القيـــام بانتحار جماعـــي الا ولكـــن الحقيقـــة ظهرت فيما بعد٠ (كتاب كريستوفر سايكس ـ اسرائيل على مفترق الطرق ـ ص ٢٦٩-٢٧٠)

اليهود فى هنغاريا زمن الحرب العالمية الثانية مع السفاح النازي أيخمان من أجل انقاذ حوالي ألف من الصهيونيين وأنصارهم من أغنياء اليهود وبذلك سكت عن عملية تصفية ربع مليون يهودي هنغاري أرسلوا ليلقوا حتفهم في معسكرات الابادة ٠

ان التأكيد على الهجرة وتنظيم هجرة غير مشروعة الى فلسطين كان جزءا لا يتجزأ من التخطيط الصهيوني الهادف الى تجميع أكبر عدد ممكن من اليهود ـ والمحاربين خاصة ـ في فلسطين حتى تحين ساعة الحسم العسكري ٠٠

ولهذا أيضا رفعت القيادة الصهيونية في وقت مبكر من الحرب العالمية الثانية ، في عام ١٩٤٠ ، شعار تنظيم الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني ورفضت أن تتالف وحدات عسكرية من اليهود والعرب في اطار جيوش الحلفاء ٠٠ (تقرير فلسطين ـ مجلد ١ ص ٥٧) ٠

لقد كانت تريد تدريب أكبر عدد ممكن من المحاربين اليهود بشكل منظم وموحد ليعملوا في الهجانا ـ القوات الصهيونية المسلحة ٠

وكتب في هذا الصدد ولتر بريوس في شيء من الصراحة « كون عدد كبير من الجنود اليهود خدموا في الجيش البريطاني وشاركوا فى معاركه وبذلك تدربوا عسكريا لم نكن بدون أثر على التطورات في السنوات التي سبقت قيام الدولة » (حركة العمال في اسرائيل ص ١٣٢)

وتراوح عدد الجنود اليهود الذين تدربوا في الجيش البريطاني بين ٣٠ـ٤٠ ألف جندي يضاف اليهم أولئك الذين

كانوا يتدربـــون فى البلاد بعلم السلطات البريطانية ، أو يعملون في أجهـــزة الامن في البـــلاد ••

وهـــذا يعني أن الصهيونية عندما دقت ساعـــة الحســـم استطاعت أن تعتمـــد على عشرات الالاف مـــن الجنود المدربين ••

وفي الوقت ذاتـــه كان يجري تهريب الســـلاح على قـــدم وساق كما بـــدأت الهجانا في بنـــاء منشآت سريـــة لصنـــع السلاح الممكن صنعه في تلك الظـــروف ••

وفي هـــذه الفترة بالـــذات استخدم البريطانيون رجـــال الهجانا لاغـــراض خاصـــة في أوروبا والشرق الاوسط •• ومن هذه الاغـــراض محاولـــة اغتيـــال مفتى القدس في بغـــداد (جيمس واربورغ في كتابـــه تيارات متصلبـــة في الشـــرق الاوسط ص ١٠٥) •• ونســـف مصفاة البترول في طـــرابلس فى لبنان •• والاستكشاف عند احتلال سوريا ولبنان (٢)

ويحتـــل مكانا خاصا فى الجهاز الحربي السياسى دور المنظمات الصهيونية في اقامة شبكـــات تجسس في الاقطار العربيـــة فى خدمـــة الدول الامبريالية • وفي هذا الصـــدد كتب مؤرخ الهجانا، فى يو ممن الايـــام الدكتور اسرائيل بير : « من ١٩٤١ وبعـــده استخدمت دائـــرة المخابرات البريطانية ، ودائـــرة المخابـــرات الامريكية ودائرة الحلفاء الاستراتيجيـــة أعـــدادا متزايدة مـــن اليهود الفلسطينيين » (مجلـــة فلسطين والشرق الاوســـط ٧ ـ ٨ ـ ١٩٤٦ المجلـــد ١٨)

---

٢ ـ المعروف أن الجنـــرال موشى ديان فقـــد عينـــه خلال احدى العمليات التي امره بها البريطانيون اثناء الحرب العالميه الثانيه في الشرق الاوسط •

وأضـــاف ليؤكد أهميــــة هذه الخدمة : « ان الكولونيـــل الامريكى هيملر من دائرة الاستخبارات الامريكية قال : حتى لـــو لم يقم اليهود بغير ذلك (أي الخدمة في دوائر الاستخبــارات) حتى لو لم يكن لهم ادعاء اخر ، فخدمتهـــم الامينة كسبــت لهـــم حـــق أن يكونـــوا أمـــة حـــرة في بلادهم » (المصـــــدر ذاتـه ص ١٦٠) ٠

لقد أسهمت القيادة الصهيونية بالحـــرب العالمية الثانيـــة ولكنهـــا كانت الى جانب خدمتها للدول الامبريالية تنظر الـــى مصالحها العينية وتعد للمعركة القادمـــة ٠

ولم تمنـــع المشاركـــة في الحرب ضـــد النازية من قيام المنظمات المسلحـــة اليمينية فى الحركة الصهيونية بأعمال تخريب وارهـــاب بغية الضغط على الحكومـــة البريطانية لتفتح أبـــواب فلسطين أمام الهجرة وتلغي الكتاب الابيض ٠

سياســـة الحركـــة القوميـــة العربية

لقـــد خلفت ثـــورة ١٩٣٦ والاحداث التي تلتها ، الحركة القوميـــة العربية بدون قيادتها التقليديـــة التى شردتها الحكومة البريطانية أو هي غادرت البلاد هربا من الاعتقال والقمع ٠٠

وانقسمت هذه القيادة ، فذهـــب نفر منهـــا ، وعلى رأسهم المفتى ، الى برلين النازيـــة ، واعتقلت السلطات اخرين ، مثـــل جمال الحسيني وأمين التميمي ، وأبعدتهم الى روديسيا ٠٠ وتهـــاود نفر اخر مـــع الامبريالية البريطانية وعادوا الى البلاد ٠

وكان الملمح البـــارز فى هـــذه الفترة ان الحركـــة القوميـــة العربية كانت هامـــدة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ٠

ومـــع هذا جرت محاولات بريطانية للاتصال بالقيادة العربية

التقليدية والاتفاق معها على حل للقضية الفلسطينية ..

وذكر في هذا الصدد محمد عزة دروزة في كتابه حول الحركة العربية الحديثة أن الكولونيل نيمو كمب البريطاني اتصل في عام ١٩٤٠ بوزير الخارجية العراقي وعن طريقه بجمال الحسيني وموسى العلمي « وتم الاتفاق خطيا على التعاون في خطة ايجابية على أساس الكتاب الابيض » على أساس البدء في المرحلة الاولى بايجاد « مجلس مديرين ثم يسار في المراحل الاخرى على ما جاء ذلك في محاضر مشاورات الوحدة » . (المجلد الثالث ص ٢٤٩) .

ولكن اذا كانت القيادة العربية التقليدية قد اتخذت موقفا سلبيا من الحرب المعادية للنازية فقد ظهرت علنا على المسرح السياسي لاول مرة في القطاع العربي حركة شيوعية تحت اسم : عصبة التحرر الوطني ، وبدأت تعمل تحت شعارات : تأييد الحرب ضد النازية من ناحية والمطالبة بالحريات الديمقراطية وبالحقوق القومية من ناحية ثانية ، وكان برنامجها الجوهري : الاستقلال وانشاء دولة فلسطينية ديمقراطية .

حرك نشاط عصبة التحرر الوطني قيادة الحركة القومية التقليدية .. وهكذا فما أن جاء عام ١٩٤٣حتى كانت بعض الاحزاب القديمة قد نشطت من جديد .

كذلك ظهرت فكرة اقامة لجان قومية في المدن الرئيسية ولكنها في هذه الفترة المبكرة لم تتعد حيفا .

وتحاول المصادر الصهيونية والمحافل الغربية التي تؤيدها عند كتابتها التاريخ تصوير العرب الفلسطينيين وكأنهم أنصار المفتي والنازية ، ولكن الوقائع تختلف تماما ..

وتقرير فلسطين (الذى وضعته بريطانيا) يقرر أن مكانـــة أنصار المفتي هبطت بين الشعب العربي الفلسطيني بعد فشـــل ما عرف بثـــورة رشيد علي الكيلاني فى العراق فى أيار ١٩٤١ واصيبـت هذه المكانـــة بنكسة أشد حين فر المفتى ، الحاج أمين الحسينى، الى أقطـــار محور النازية • (المجلد الاول ص ٦٢) •

وانعكس النشاط الاقتصادي الواســـع النطاق في المجتمـع العربي الفلسطينى في ميدانين : ميدان العمـــال •• وميـــدان البرجوازية العربية •• فقد اتسعت صفوف الطبقة العاملـــة العربية اتساعا لا مثيـــل له بدخول عشرات ألـــوف العمال العرب الـــى معسكرات الجيش البريطاني للعمـــل في منشآتها ، كما دخلـــت بضعة ألوف أخـــرى المنشآت العربية التى نمت في ظـــروف الحرب العالمية الثانية •• وأثـــر هذا التطـــور فى نهوض الحركة النقابية العربية فقام اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب فـــي حيفا من نقابات عمال النفط وغيرها واستأنفت جمعيـــة العمـــال العربية الفلسطينية عملها بعد الركـــود الذي أصابها بفعل القمع البريطاني عام ١٩٣٦ ••

كذلـــك انتعشت الصناعة العربية بعـــد أزمة الاضـــراب العام وثـــورة ١٩٣٦ وبـــدأت توطد مواقعها القديمة وتنشـــىء مواقـــع جديـــدة •

وكان لا بـــد من أن يؤثر هذا الوضـــع فى الحركة القومية العربية ويغير شيئا من طابعهـــا خصوصا وان العمـــال بـــدوا يمارسون نفوذهم في هذه الحركة من مواقع اليسار والوسط ••

ونضجـــت نتيجة هذا كله فكـــرة تنظيم حزب برجوازي عصري يتبنى برنامجا ديمقراطيا ويستطيـــع أن يواجه تحديـــات

عالم ما بعد الحرب ·· وفعلا تنظم هذا الحزب سرا وعرف باسم حزب الشعب وضم في صفوفه البرجوازية وأبناء البرجوازية الصغيرة من أصحاب المهن الحرة وقادة الحركة النقابية الاصلاحية (فى جمعية العمال العربية الفلسطينية)

ولكن هذا الحزب لم يمارس نفوذه عمليا لان صراعا داخليا بين يمينه ويساره عرقل ظهوره خصوصا وأن بعض قادته ترددوا في مواجهة زمرة المفتي التى كانت تحاول اللجوء الى الاغتيال لوقف تنظيم القوى السياسية خارج اطارها ·

ولم يكن من الممكن أن تبقى فلسطين فى عزلة عن أحداث المشرق العربى ومن أبرزها اعلان استقلال سوريا ولبنان بعد دخول القوات الحليفة هذين القطرين وتقدم فكرة الوحدة العربية وحركتها لتحتل مكان الصدارة ·

وحاولت بريطانيا ركوب الموجة خوفا من أن يسبقها اليها النازيون ولذلك صرح وزير الخارجية البريطاني عند نهاية ثورة رشيد عالي الكيلاني أن حكومته تعطف على أماني سوريا فى الاستقلال ·· وستؤيد مساعى الدول العربية في سبيل تقوية روابطها الثقافية والاقتصادية والسياسية ·

وفي هذه الظروف خطط الموالون للامبريالية البريطانية مشروعا لحل القضية الفلسطينية في اطار خططهم لاقامة شكل من أشكال الوحدة العربية ··

وعرف المشروع بالكتاب الازرق وارتبط باسم نوري السعيد وكان موضع بحث فى لندن والقاهرة في أوائل عام ١٩٤٣ ·

ونص المشروع الذى كان شكلا من أشكال مشروعات الهلال الخصيب على أن تتوحد سوريا وفلسطين ولبنان وشرق

الاردن من جديد في دولة واحدة ويقرر الاهالي فيها شكل الحكم أجمهوريا أم ملكيا •• وتنشأ على الاثر جامعة عربية تنضم اليها العراق وسوريا الموحدة مباشرة وتستطيع أن تنضم اليها الدول العربية الاخرى متى شاءت •

ونص المشروع أيضا على أن يكون مجلس الجامعة العربية مسؤولا عن الدفاع والشئون الخارجية والنقد والمواصلات والجمارك وحماية الاقليات •• وعلى أن يتمتع اليهود في فلسطين بحكم ذاتي ويكون لهم الحق فى ادارة أقاليمهم في المدن والريف بما فيها المدارس والمؤسسات الصحية والبوليس مع الخضوع لاشراف الدولة السورية الموحدة •

وأكد المشروع على أن تكون القدس مفتوحة أمام المنتسبين الى كافة الاديان • كذلك قرر أن موارنة لبنان يستطيعون اذا ارادوا ان يتمتعوا بنظام حكم ذاتي مثل الذي ساد فى أواخر الحكم العثماني •• (الوحدة العربية ـ أحمد طربين ـ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤)

ورفضت القوى الوطنية المعادية للامبريالية المشروع ورأت فيه محاولة بريطانية للسيطرة على سوريا ولبنان ، القطرين الذين أعلنت فرنسا وبريطانيا استقلالهما في عام ١٩٤١ ابان احتلالهما بعد اجلاء قوات فيشي •• ومخططا لابقاء فلسطين فى قبضة الامبريالية والرجعية العربية المتمثلة في العائلة الهاشمية التي افترض المشروع أن تحتل دفة الحكم ••

كذلك رأت القوى الوطنية فى عزل اليهود في منطقة حكم ذاتي تجاوزا على برنامجها الديمقراطي الداعي الى دولة ديمقراطية فلسطينية يتعاون جميع أبنائها على تطويرها وتقدمها ••

ولم يضــع رفض المشروع حدا لفكــرة التعاون العربي أو الوحــدة العربية ٠٠ واذا كان الكتــاب الازرق قد أرتأى مــن ضمان السيطــرة الهاشمية استبعاد مصــر ٠٠ فالنشاط الــذى أعقب اخفاق المشروع اتخــذ مصــر محورا له ٠٠

وفي شباط ١٩٤٤ ، بعــد أن أجرى رئيس وزراء مصــر مصطفى النحاس مشاورات مــع رؤساء وزراء أو ممثلى العــراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن والعربية السعودية واليمن وقــع ممثلو تلــك الــدول العربية بروتوكول الاسكندريــة الــذى نص على اقامة الجامعة العربيــة التي نعرفها اليوم (٣) تكــون وعاء التعاون والتنسيــق العربي ٠٠

والمهــم هنا أن هذه المباحثات شملــت فلسطين التي مثل حركتها القوميــة أحد القادة التقليديين موسى العلمي وانتهــت بتأكيــد مكانة فلسطين فى اطار الوحدة العربية ٠٠ فهى القطــر العربي الوحيد الذى نص ميثاق الجامعة العربيــة في ملحــق خاص على انها « أصبحت مستقلــة بنفسها غير تابعة لاي دولــة منذ نهايــة الحرب العالمية الاولى » ٠٠ وان لم تكــن قد تولــت أمرها « فوجودها واستقلالهــا الدولي من الناحية الشرعيــة أمر لا شك فيــه ، كما انه لا شــك في استقلال البلاد العربيــة الاخرى ، واذا كانت المظاهــر الخارجية لهذا الاستقــلال ظلت محجوبة لاسباب قاهــرة فلا يسوغ أن يكون ذلــك حائــلا دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة » ولهذا قررت الجامعــة أن تختار هي مندوبا عربيا من فلسطين للاشتراك في أعمال المجلس الى أن يتمتع القطر بممارسة استقلالــه ٠

وأكــد هذا التطور نمو التضامــن العربي ولكنه فــي

٣ ــ طبعا انضمت اليها فيما بعد الدول العربيه الاخرى عند استقلالها ٠

تجسيده التنظيمي « اغتصب » الى حـــد ما دور الحركة القوميـــة العربيـــة فى فلسطين ..

فبعد قيام الجامعة العربيـــة لم يعـــد من الممكن استبعادها عن تطـــورات القضية الفلسطينية بل هي بـــدأت تتدخل عمليـــا فى بناء القيادة القومية وتؤثـــر فى نهجها . واذا أخذنا بعيـــن الاعتبار أن عناصر الامبريالية كانت نافـــذة فى هذه المنظمـــة استطعنا أن ندرك الاثار السلبية على تلك التطـــورات ..

ومـــع هذا فلا بد من رؤية الناحيتين : ناحيـــة التضامـــن العربي واثارة الايجابيـــة على مجموع الحركات القومية العربيـــة ومنها الحركة القومية العربية في فلسطين .. وناحيـــة ممارسة الدول العربية تأثيرا سلبيا في بعض الاحيـــان .

وحين انتهت الحـــرب العالمية الثانيـــة كانت الحركـــة القومية العربية قد تخلصـــت من جمودها .. لقد كانت الاحزاب التقليدية قد عادت الى الميـــدان وبدأت تستعد لايام ما بعـــد الحرب التي لاحت نهايتها في الافـــق .

لقـــد ترك وجود بعض قادة الحركـــة القومية العربيـــة التقليديين فى اقطـــار المحور اثره السيء في مسيرة الكفاح القومى ، خصوصا وان هـــؤلاء القادة كانوا من غـــلاة الرجعيين ولـــم يدركـــوا التطورات التي حصلت في العالم وضرورة تخطيـــط برنامـــج ديمقراطي لحـــل قضية فلسطين بحيث يأخـــذ بعين الاعتبار حقوق الشعب اليهودى فى فلسطين .

أزمـــة الامبريالية العامة بعد الحـــرب العالمية الثانيـــة

انتهت الحـــرب العالميـــة الثانية في أيار عام ١٩٤٥ باندحار ألمانيا النازيـــة وايطاليا الفاشيـــة واليابان العسكريـــة فكـــان

ذلك ضربة ضخمة نزلت بالنظام الامبريالي العالمي ودفعا جديدا وضع الاتحاد السوفياتي ـ الذى قام بدور حاسم فى دحر المحور النازي ـ في مكان الصدارة على الصعيد الدولى٠

وعمقت هذه الضربة الضخمة أزمة الامبريالية خصوصا وقد انطلقت بعد الحرب موجة جارفة من النضال القومي التحرري ٠

ولم يعد من الممكن بقاء النظام الامبريالي على حاله ٠٠ فقد أخذ يتداعى ٠٠

وفي فلسطين تسارعت وتيرة التطورا باحتدام النضال لانهاء النظام الامبريالي البريطاني فيها ٠٠ واشتدت الضغوط من أجل حل القضية التى ازدادت تعقيدا لوجود الاف اللاجئين اليهود من بقايا معسكرات الاعتقال والابادة الهتلرية في أوروبا ٠٠ ولاحتدام التناقضات الانجلو ـ أمريكية بعد فترة من « التفاهم »

وجدير بالذكر في هذا الصدد ان وايزمن يروي في كتابه « التجربة والخطأ » ان تشرشل استدعاه في ١١ اذار ١٩٤٢ وقال له : « أريد ان تعرف أن لدي خطة يمكن أن توضعموضع التنفيذ بعد الحرب ٠ أود ان ارى ابن سعود سيد الشرق الاوسط أي سيد الاسياد على شرط أن يتفق معكم ، ويعتمد عليكم أن تحصلوا على أفضل الشروط (بالاتفاق معه) ٠٠ سنساعدكم طبعا ٠ احتفظ بهذا سرا ولكنك تستطيع أن تتحدث مع روزفلت حين تذهب الى أمريكا ٠ لا شيء لا نستطيع تحقيقه اذا صممنا أنا وهو سويا عليه » (ص ٤٢٦) ٠

ويضيف وايزمن أن موضع سر ابن سعود ، وكان أنذاك جون فيلبي ، أكد له المخطط ذاته (ص ٤٢٨) ٠

ولكن هذا الشعور بالتوافق الذى أحس به تشرشل في مطلع ١٩٤٢ تبدد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وظهر التناقض على أشده بين الامبرياليين الامريكيين والبريطانيين حين طالب الرئيس الامريكي هاري ترومان ، الذى ورث روزفلت اللاجئين بادخال مئة الف مهاجر يهودي من اللاجئين الى فلسطين

وهنا مرة أخرى استغلت الصهيونية حالة هؤلاء اللاجئين من يهود أقطار أوروبا الوسطى وضحايا النازية لتضغط على بريطانيا لتقبل بادخال المئة ألف ٠

ولاحظ جيمس واربورغ هنا أيضا أن الصهيونية لم تكن تهتم بحالة هؤلاء اللاجئين بقدر اهتمامها بتهجيرهم الى فلسطين (باعتبارهم قوة احتياطية لقواها العسكرية)

وكتب أن ترومان فكر في فتح أبواب الولايات المتحدة للهجرة اليهودية ولكن المدة لذلك كانت ستكون طويلة نسبيا ، وأضاف أن هذه المدة كان يمكن تقليصها لو أن المنظمات ، التيكانت تضج بالمطالبة فى تهجير هؤلاء اللاجئين الى فلسطين ، حولت ولو جزءا من جهودها لفتح أبواب الولايات المتحدة أمامهم ٠ (تيارات متصلبة في الشرق الاوسط ص ١٢٨) ٠

وبديهي أن ترفض بريطانيا طلب الولايات المتحدة وهي التى قررت ، ازاء المنافسة الامريكية وضغوط حركات التحرر القومي العربية ، أن تهاود الحركة القومية فى فلسطين ولا تتحداها بفظاظة ٠

وعلى هذا الضوء كان تأليف اللجنة الانجلو ـ أمريكية في تشرين الثاني ١٩٤٥ من ١٢ عضوا ، مناصفة بين الدولتين محاولة لتسوية الصراع الامبريالي بينهما ..

وبحثت اللجنة ، كما طلب منها ، الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فلسطين ، بقدر تأثيرها على الهجرة اليهودية ، .. كما فحصت وضع اليهود في أقطار اوروبا حيث كانوا ضحايا التعذيب النازي وخرجت بتوصية تدعو الى ادخال مئة الف مهاجر يهودي حالا وتسهيل الهجرة فيما بعد بخلق ظروف ملائمة لذلك . كما أوصت بالغاء القيود تقريبا على بيع الاراضي العربية وبفرض وصاية على فلسطين على أن يكون الحل السياسي فيما بعد دولة ثنائية القومية .

وبهذا التقرير الذى صدر في ٣٠ـ٤ـ١٩٤٦ فشلت محاولة التسوية الانجلو ـ أمريكية وبدأت فترة المشاريع البريطانية.

ومع هذه المشاريع التى عرفت بأسماء أصحابها مثل مشروع موريسون وبأسماء طابعها : الكانتونات ، قامت بريطانيا بمحاولة أخرى لصياغة حل يصون مصالحها .. ولهذه الغاية عقدت مؤتمرا جديدا فى لندن بين آب ١٩٤٦ وكانون الثانى ١٩٤٧ اشترك فيه ممثلو الدول العربية المستقلة في المشرق العربي ووفدا الحركة القومية العربية في فلسطين .. والوكالة اليهودية .

واخفق المؤتمر .. لان الحلول المقترحة أخذت مصالح بريطانيا بعين الاعتبار ولم تأخذ مصالح الشعبين عاملا مقررا للاسراع فى التسوية .. ولذلك لم يشمل أي من هذه المقترحات تصفية الانتداب عامة في فلسطين وجلاء القوات الاجنبية عنها ـ وهما شرطا التسوية العادلة المتوافقة

مع مصالـــح الشعبين العربي واليهودى .

وأدرك الشيوعيون اليهود والعـــرب ان الحل الديمقراطـي يقـــوم على هذين الشرطين ودعـــوا الى اقامة جمهورية فلسطينيـة ديمقراطيـــة مستقلـــة ونادوا باحالـــة قضية فلسطين الى الامـم المتحـــدة لاخراجها من الطوق الامبريالـــي الذى مثلتـــه اللجنـة الانجلـــو ـ أمريكية .

وتميـــزت السياسة الصهيونية في هذه الفتـــرة بأمرين : التمســـك بالانتداب ومقاومـــه احالة قضية فلسطيـــن الى الامم المتحـــدة من ناحيـــة ، ومحاولـــة التحالـف مع الامبرياليـة من ناحيـــة ثانيـــة ..

وصرح ناحوم غولدمان رئيس المؤتمـــر الصهيونـي فـــى ٢٤ـ١٠ـ١٩٤٦ : « الصهيونيون على استعـــداد لمنـــح بريطانيـا حقوقا كاملـــة لاقامة قـــواعد عسكريـــة وبحرية وجويـــة في فلسطين مقابـــل موافقتها على اقامـــة دولة يهودية في ٦٥٪ مـــن مجمـــوع أراضي فلسطين . وسنقتـــرح اقامـــة قواعد للولايات المتحـــدة .. ان وضع القضيـــة الفلسطينية على جـــدول أعمـال الامم المتحدة سيؤخـر الحـــل فقط » .

وصـــرح زعيم صهيوني اخر في اجتمـــاع صحفي فـــي تل أبيب في ٢١ـ٨ـ١٩٤٦ : « من واجبنـــا أن نقنع البريطانيين والامريكيين ان الاعتبارات الاستراتيجية هي التى تجعـــل السكان اليهود الاحـــرار فى فلسطين ربحا لا خسارة فى النضـــال بيـــن العالم الانجلو ـ ساكسوني والعالـــم الروسـي ... علينـــا أن نقنـــع الانجليز أن مصلحـــة الجيش البريطانى تطابـــق مطالب الصهيونية يجب أن نكـــون وصلـــة في الحلقـة الانجلـــو ـ امريكية » .. وصرح بن غوريـــون لريتشارد كروسمان : « اذا

وافـــق البريطانيون على اقامـــة دولة يهودية في جزء من فلسطين فنحن على استعـــداد لاعطائهم قاعدة ضد روسيا » ٠

وفي الوقت ذاتـه كشفت القيـادة الصهيونية عـن توجههـــا الكولونيالي في رفضهـــا محـــاولات بريطانيا ـ فى سبيـــل توطيد مواقعها فى البـــلاد ـ التهاود مـــع ممثلي الحركة القوميـة العربيـة التقليديـيـــن فكتبت : « هامشكيف » صحيفة الاصلاحيين اســـلاف « حيروت » في ١٩ـ٥ـ١٩٤٥ « ان جميـــع مشاريـــع الاستعمـــار (الاستيطان الكولونيالي) التي قام بهـا الانجليـــز والامريكيون والفرنسيون والهولنديون فى العالـــم ، كان يقابلهـا سكان البـــلاد الاصليـــون بالمقاطعـــة الشديـــدة اذ ان ذلك هو الطبيعي ٠٠ ولكن هل تراجع المستعمرون أمام هذه المقاومـة ؟ »

وكتبت « دافار » صحيفـــة النقابـات « والاشتراكيـــة الديمقراطيـــة » الصهيونية في اليوم ذاتـــه : « اذا كان العالـــم فى كل محاولـــة قام بهالتحويـــل الصحاري الى أرض خصبة (!) انتظـــر قبل ذلك موافقـــة قاطني الصحراء القلائـــل فان المدنية ما كانت لتنتصر على التأخر في أي موقع (من العالـــم) » ٠

واضطـــرت بريطانيا الى اللجوء الى الامـــم المتحدة ، وأكدت تصريحات المسؤولين وانها اعتقـــدت بعجز المنظمة الدولية عـــن تسويـــة القضية خصوصا وانها رفعت شعـــار « تفاهم » العـــرب واليهود شرطا لهذه التسويـــة ٠٠

وفي اجتماع طـــارىء عقد في ايار ١٩٤٧ قـــررت هيئـــة الامم المتحدة تاليف لجنة تحقيـــق دولية تالفت من السويد وكندا واستراليا والهند وبيـــرو وهولندا وايران وتشيكوسلوفاكيـــا ويوغسلافيا وجواتيمالا واورغواي وضعت عليها واجـب البحـــث

والحل ، وزارت اللجنة فلسطين واستمعت الى شهادات قادة الصهيونية وغيرهم • أما قادة الحركة القومية العربية التقليديون فقاطعوا اللجنة وبذلك عمقوا طابعهم الرجعي أمام لجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية التي كانت محاولة ابقاء القضية الفلسطينية في اطار الامبريالية ورفضوا الشهادة أمام لجنة دولية تمثل أيضا قوى خرجت عن ذلك الاطار

والاخطر من هذا أن تصريحات هؤلاء القادة تركزت على شعار الدولة الفلسطينية العربية ولم تأخذ بعين الاعتبار حقيقة التحول الديموغرافي الذى طرأ على البلاد أو تؤكد طابع الدولة الديمقراطي المقترحة •

لقد أخفقت هذه القيادة بسبب مهاودتها الامبريالية وماهيتها الرجعية فى الارتفاع الى مستوى الاحداث ومواجهة الصهيونية التى استغلت الى أقصى حد الكارثة التى حلت بيهود أوروبا لتكشف عطف الرأي العام على برامجها وخططها •

بل ان هذه القيادة رفضت الموافقة حتى على دعوة الجامعة العربية الى اقامة دولة فلسطينية غير مجزأة مستقلة استقلالا تاما تشكل فيها حكومة ديمقراطية حسب دستور يضعه مجلس تأسيسي منتخب يحفظ حقوق اليهود المدنية والدينية والثقافية • وأصرت على الدولة العربية وأعلنت انها تعترف بمواطنة اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل وعد بلفور •

وقررت اللجنة الدولية بأكثريتها تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية • أما أقليتها فدعت الى اقامة دولة ثنائية القومية اتحادية الشكل ••

ولعل اللجنة في هذا اقتنعت بموقف ممثل الاتحاد

السوفياتي أندريه غروميكو في اجتماع الامم المتحدة الطارىء انذاك أعلن ان الحل الامثل هو قيام دولة مستقلة في فلسطين أما اذا ظهر ان العلاقات السيئة بين العرب واليهود تجعله مستحيلا فلا مناص من التقسيم ·

وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ في اجتماع الجمعية العامة العادي قررت هيئة الامم المتحدة انهاء الانتداب وتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية ، حسب خرائط قررت سلفا كما قررت تدويل القدس ، وتعاون الدولتين اقتصاديا ··

وبذلك فتحت صفحة جديدة في قضية فلسطين ·

ملاحظة

لقد انهيت هذه المقالات عند قرار التقسيم لان تنفيذه كان بداية مرحلة جديدة في قضية فلسطين ، تميزت في انها أصبحت قضية علاقات بين اسرائيل والدول العربية أيضا

ففي أعقاب هذا القرار وقعت الحرب الفلسطينيه وقامت اسرائيل على رقعة أوسع من الرقعة التي افردت لها ·· وادى قيامها الى تشريد مئات الالاف من أبناء الشعب العربي الفلسطيني الذى حرم من ممارسة حقه في تقرير المصير ·· ونشات قضية أزمة العلاقات بين الدولة الجديدة والاقطار العربية ··

وكان هذا استمرار عضوي للقضية الفلسطينية ولكنه استمرار في ظروف جديدة ·· تؤلف وحدة مترابطة ·

وهذه « الدراسات » لم نخطط لها ·